عبد الكريم السعاوي



رواية

رابع المستحيل

روايـــة

مولانـــا

عبد الكريم السبعاوي

ســــيدي و مــــولاي الــــوالد الشــــيخ

رضـــــــوان الله عليـــــه

تأدبـــاً في الحضــرة .. وخضوعـــاً في التجلي ..

وخلوصـــاً إلى الأعتاب .. من وحشة الهزيع الأخير

(1)

أبو التوفيق هده الحزن .. لم يستطع تحمل الصدمة .. موت أم التوفيـــق نـــزل عليه كالصاعقة .. لم تمرض .. لم تشك من شئ .. نامت إلى جواره وقضـــت الليـــل هادئة هدوء سمكة في قاع البحر .

عند آذان الفجر هزها من مرفقها .. لكي تنهض وتهيئ له إبريق وضوئه كمـــا تعودت أن تفعل كل يوم .. لم تستجب .. هزها ثانية وبقوة أشد هذه المرة .. لـــم تبـــد حراكـــاً .. زغدها في خاصرتها بكوعه وقد نفذ صبره :

– قومي قامت قيامتك .

لم تقم قيامتها كما أراد .

مال عليها بجذعه متفحصاً .. مر بيده على وجهها .. رابه انقطاع أنفاسها .. لم تطل حيرته .. أدرك جلية الأمر .. انهار عليها يحضنها ويجهش مثل طفـــل .. أطلـــق عقيرته بالندب على رفيقة عمره حتى انفطر قلبه ..

استيقظ الأهل والجيران على نحيـــبه :

– ما كانش يومك يا أم التوفيق .. ما كانش يومك يا كوم البنور .

انقضت أيام العزاء وهو ذاهل عن نفسه .. أخيراً قطع الـــزاد .. انطـــوى فـــي غرفته لا يبرحها .. يناجيها كما لو أنها مازالت حيه :

– يا مقلـــة العين يا أم التوفيـــق ..

يا روحي الروحانية يا أم التوفيق ..

يا سريرتي .. ودخيرتي .. ورفيقة عمري ..

تِحْرَم عليَّ حور الجنة بعدك يا أم التوفيـــق

في الأسبوع الثاني ساءت صحة أبو التوفيق .. في الأسبوع الثالث ظهـــر البلاء على جسد ه .. وتقرح جلده .

أحضروا له الأطباء .. طردهم واحداً بعد الآخـــر .. ألحت عليه راضـــية أن يأخـــــذ الدواء .. قال لها والدموع في عينيه :

- رحــل ولِفـــي وأنا عالـــدار ضليــت
صريـــع الهـــم والحســـرات ضليــت
نَشَــدْتِ المـــوت من بعدو وضليـــت
وما غير المـــوت يجمعنـــا ســــــوا

جزعت عليه راضية .. تيقن الآخرون أن أيامه باتت معـــدودة .. وقـــع أبـــو التوفيق صريع إغماءة كدأبه في الآونة الأخيرة .. لكن إغماءته طالت هـــذه المـــرة .. عاده شقيقه الشيخ علي .. شق عليه ما يكابده .. ضرب كفاً بكف :

- (حتى إذا بلغت التراق .. وقيل من راق .. وظن أنه الفراق .. والتفـــت الســـــاق بالساق .. إلى ربك يومئذ المساق) .

أمرهم أن يعدلوه على القبلة .. وأن يقرأوا على رأسه القـــرآن .. إلـــى أن يســـترد الله وديعته .

مشعل الذي ترك دكانه في يافا في عهدة صبيه .. استعجل الحصول على الغنائم والأسلاب .. استغل خروجهم لوداع عمهم الشيخ علي .. أغلق الباب .. جرد والده من ثيابه .. وصل إلى حزام نقوده الذي يلبسه على اللحم .. فك الحزام وأخفاه في عبه :

- بدك اتقابل الله بحزام المصاري .. المصاري وسخ الدنيا .

في اليوم التالي اجتمع أبناؤه الثلاثـــة وبناته في غرفتـــه .. تنازعـــــوا علـــى الميراث .. أطلق مشعل لجشعه العنان .. ادعى أن والده كتب له كل أملاكه بيع شـــراء بشهادة الشهود .. لم تنطل الحيلة على أخويه عبد الحميـــد والـــديناري .. اشـــــتبكوا بالأيدي .. صوتت راضية .. وصوتت نساء اخوتها .

فجأة استيقظ أبو التوفيق من إغماءته .. هتفت راضيه :

- فيها خيرة إللي صحيت يابا .. شوف إيش جبتلك معايا .

أسندته إلى صدرها .. قربت من شفتيه طاسة الحلبة الممزوجة بعسل النحل .

- إشرب يابا .. إن شاالله فيه الشفا والعفا .

ارتشف أبو التوفيق الدواء .. لم يتأفف هذه المرة .. لم يتصنع المعارضة .. شرب حتى الثمالة .. نحى الوعاء الفارغ جانباً .. أراحت راضية رأسه على الوسادة ثـــم ســـحبت

عليه الملاءة .. كان يتنفس بقوة وعيناه مفتوحتان على سعتهما .. تحلقوا حـــوله غيـــر مصدقين :

همس مشعل في أذن زوجته :

– باين عليه رفصو [1] .

وضعت زوجة مشعل أصبعها على شفتيها محذرة وأشارت إلى الآخرين :

– بلاش يشمتوا فيك .

لمحهما أبو التوفيق وهما يتهامسان .. داخلته الريبة .. اعتدل في فراشه حـــتى استوى جالساً .. تحسس حزام نقوده .. لم يجده .. طاش صوابه .. أطلق صرخة نشفت الدم في عروقهم :

– إورثتوني بالحيا يا أولاد الحرام .. انتو مش أولادي .. علي الطلاق بالثلاثـــة مـــن راسي .. إمكو بندقت فيكو واحد ورا الثاني .. ومن قلة عقلي حزنت عليها .. تعـــالي شوفي بناديقك[2] يا أم التوفيق .

بكت راضية وتسمر الباقون كل في مكانه .

تحامل أبو التوفيق على نفسه حتى استوى واقفاً :

– بره يا بزونكات .. يا أولاد الحرام .. سِكْتِر[3] .

هتفت راضية :

– صلي عالنبي يابا .

– أنا مش أبوكي .. إنتو مش من ظهري .. شوفوا من وين إمكو لقتطكوا تلقيط .

تنهدت وهي تغالب دموعها :

– الله يرحمك يا أمه ويحسن إليكي .

أرعد أبو التوفيق :

– الله لا يحسن إلها ولا يرحم لها فشه .

تناول عصاه .. طوح بها في وجوههم .. تدافعوا نحو الباب كل يحاول أن يسبق الآخر .. لم يتوقف أبو التوفيق عن مطاردتهم إلا عندما وصلوا ساحة الجماقية .

كانت شمس تموز ترسل أشعتها اللافحة .. هجعت الحارة وقت الظهيرة .. آوى الناس إلى بيوتهم طلباً للقيلولة .. أحس أبو التوفيق جسده يتصبب عرقاً .. هرش صدره وجنبه .. فاحت رائحة نتنه .. لم يستطع أبو التوفيق احتمالها .. انحـــاز إلـــى حـــوض الجماقية .. خلع ثوبه .. لفه حول حقويه وصار يغرف الماء بكلتا يديه ويمسح به جسده

1. **رفص عزرائيل الذي جاء ليقبض روحه .**
2. **البناديق : أولاد الحرام .**
3. **ســكتر : كلمة تركية تعني انصــرفوا .**

بنت الهدار التي أوغلت في العنوسة دون أن يدق بابهــا أحــد .. أكملــت ملء جرتها .. تلكأت في الانصراف .. راقبت أبو التوفيق بشغف .. هالها جســده الضــخم المغطى بالشعر الأبيض .. بدا لها مثل حمار قبرصي .. اقتربت منــه وهــي تغــالب الضحك .. صعدت إلى حافة البركة المواجهة له .. رفعت جرتها الملــوءة .. صــبت الماء على رأسه :

– حمام العافية والنصاحة يا عمي .

تأملها أبو التوفيق كأنه يراها لأول مره وراود نفسه :

– (الحلاوة مش كل إشي .. أقل بغلة مجرية الميــة .. البنــت مفخــده .. ومشــبهه وصدرها تخت ورخت ..) .

نزل بأنظاره حتى استقرت على كشحها الضخم .. تابع يحدث نفسه : (عليهــا حوض ولا حوض الجماقية) .

كان الماء المتدفق من جرتها يفرق شعر رأسه وشعر صدره الكث ويستقر على الثــوب المعقود على وسطه .. دافعاً الثوب إلى أسفل مبرزاً ثمرته الضخمة التي تنعقد تحته .

ضحكت الفتاة ضحكة ماكرة .

مد أبو التوفيق راحتيه حتى امتلأتا بالماء وشرب .

قالت الفتاة :

– هنيئاً .

رفع أبو التوفيق ناظريه حتى استقرا على وجه الفتاة .. وسألها :

– إيش اسمك بلا صغره ؟

– أنا لولو يا عمي .. لولو بنت الهدار .

– والله والنعم والسبع تنعام .

تابع في سره :

(البنت سمارها غامق .. بس إنت جفصان بياض وشقار .. وحل لك تغيــر الطعــم .. يالله .. اتحدق على هالقراصية اللي سايحه على إمها .. البنت بايرة وحايرة .. و بتحلم

بريحة الزلمة حلم .. وأنت يا أبو التوفيق لسه عودك أخضر وقلبك أخضـــــر .. علــــيَّ الطلاق لايقين لبعض) .

فرك أبو التوفيق جسده منتشياً بالماء وحضور الأنثى التي تصب على رأسه .

قرأت بنت الهدار نظرات أبو التوفيق وقالت في سرها : (أتاريه لســـه فيـــه رمـــق .. صحيح شايب وعايب) .

هتفت مداعبة :

– مية الجماقية كلها ما رح تحوِّق فيك .. روح على الحمام الفوقاني .. برجعوك شاب مشورب .

أرسلت ضحكاتها وانثنت تملأ جرتها من جديد .

غمغم أبو التوفيق وهو يرتدي ثوبه :

(عليها مياصه بتفتن الأنبيا .. وإذا قسمت القسمة رح تخليك تمد شروشك فـــي الأرض وتطلق من جنابك زي كعوب الزتون) .

عاد أدراجه إلى البيت .. نظر إلى قبة الشيخ احيار الراقد خلف البد وهتف :

– مدد .. هالقيت إجا وقتك .. إلك ولا للديب يا شيخ حيار .

لمح راضية تغادر البيت منكسرة النفس والدموع في عينيها :

قال في سره :

(راضية بتخرب الغزل كلو .. وإذا ما كسبتها في صفي بتطير البنت من إيدي) .

ناداها جاهداً أن يكون صوته دافئاً حنوناً :

– ليش مستعجلة يا أم محمد ؟؟! .. لسه ما قعدناش مع بعض .

– بدي أطل على حسين .. اليوم جابولوا الفتاح المغربي .. ويا عـــالم إيـــش قلهـــم .. مسكين هالولد صارلو سنه ملقح على ظهرو .. عين وصابتو .

قاطعها أبو التوفيق بلهجة مسترضية لم تتعودها منه :

– يكون زعلتي مني .. كنت حمقان وفضفضت عن قلبي .. هادي فشة خلق مش عداوة

دنى منها .. وضع يده على كتفها برفق .. زاد توجسها حين قـــدم لهـــا أكـــثر عروضه سخاءً :

– ابعتيلي جوزك أشغلو معايا .. بدل ماهوه بفرك الفسا وبلحـــس نـــاعمو .. تجـــارتي كبرت وإخوتك بسرقوني عيني عينك .. وخليل الوحيد إللي بستأمنو .

هزت رأسها بإذعان وهي تنفلت إلى كروم خالها الحاج أحمد .

أحس أبو التوفيق أنه لم يكسب ودها بما فيه الكفاية لتخطب له بنت الدهـــدار .. فخفض لها جناح الرحمة :

– بلاش تروحي لدار خالك وإديكي فاضية تعالي خديلهم إبريق زيت من البد .. خسارة على شباب هالولد الفالح حسين .. الله يشفيه ويقيمو للأيتام إللى في رقبتو .. من يوم ما اتكسح انكسر قلبي عليه .

تبعته راضية إلى البد وقد أخذتها الحيرة في أمر هذا الإنقلاب المفـــاجئ الـــذي رقق شمائله وحنن قلبه ولم تعتم أن غمغمت وهي تهز رأسها غير مصدقة ما تراه وما تسمعه :

– قلبك فيه العافيه يابا .

حين غابت عن ناظريه .. دلف إلى داخل البد يحصي ما نقص من الغلة أثنـــاء مرضه .. هالته الخسائر الفادحة .

قال له جلهوم قطروس البد :

– أولادك باعوا الغالي برخيص .. وحشو المصاري في صـــدورهم .. قلتلهـــم حـــرام عليكم .. نزلوا فيا ضرب .. إللي ما تجعك خود بدالها .. الله وكيلك إتآجروا فيّه .

لم يغضب أبو التوفيق كما توقع جلهوم .. لم يلطم وجهه أو يشـــق ثيـــابه أو يســـتمطر اللعنات على أبنائه .. لم يعقب بكلمة واحدة على ما قاله القطروس .

كانت صورة بنت الهدار تحتل جوارحه .

التفت إلى القطروس وهتف :

– الرفاتي .. جيبلي الرفاتي من تحت طقاطيق الأرض .

سأل الصبي وقد فاجأه طلب معلمه :

– الرفاتي الحلاق ؟!.

قال أبو التوفيق ساخراً :

– ياسين عليك .

قبل أن يبتعد لاحقه صوت أبو التوفيق :

– قوللو يكتر الحِنّة .. حِنّة حجازية .. حِنّة سودة زي قرن الخروب .

حين اختفى جلهوم عن ناظريه .. اتخذ مجلسه المعتاد في صدر البد مستســـلماً لصورة بنت الهدار .. كانت ضحكاتها ما تزال تشنف أذنيه .. وصدرها الرجراج يملك عليه لبه

تنهد في شجن بالغ .. مد أصبعيه في طاقة أنفه .. انتزع خصلة كثيفة من الشعر .. فركها بين أصبعيه وطوح بها في الفضاء .. ثم أخذ يدندن :

– يا بنت يا مدلعنه ياللي العسل بوزك
مريت عطشان أنا وشربت من كوزك
إمتى تحق المنى .. وأصير أنا جوزك
وكل ما قتلنا الهوى .. الوصل يحيينـــا
عالروزنة عالروزنة .. كل الهنـــا فيها
وإيش عملت الروزنـــة الله يجازيـــها

(2)

عندما اشترى خليل كروم مقاط بثمن بخس دراهم معدودة .. وكـــان فيـــه مـــن الزاهدين .. لم يدر بخلده أن الإنجليز سيقيمون على مرمى حجر منه .. واحدة من أكبر

محطات السكك الحديدية في فلسطين .. ومثله مثل باقي الجيران .. لم يستطع التنبؤ بما ستتركه هذه المحطة من أثر عليهم وعلى حياتهم اليومية .

احتلت المحطة سهل الرنجس كله .. خطوط السكك الحديدية المتشابكة .. بعضها للمناورة وبعضها لمبيت القطارات .. مزلقانات لإنزال البضائع .. عبارات ورش لإصلاح العربات .. مخازن لقطع الغيار .. عنابر للبضائع .. مكاتب للجمارك .. ساحات لتنزيل وتحميل المحاصيل وتخزينها .. منازل أنيقة لكبار المهندسين والمدراء مغطاة بالقرميد الأحمر .

اتسعت المحطة ونبتت على جوانبها الدكاكين والمقاهي والمطاعم .. يرتادها الجنود الإنجليز والأسترال ويخرجون منها وقد تعتعهم السكر .. حولها أقيمت بيوت من الطين أو الآجر وحتى الأسمنت المسلح لإيواء العدد الآخذ في التزايد يوماً بعد يوم من الموظفين والعمال والأجراء المياومين .

كروم مقاط أصابه ما أصاب المنطقة .. أطراف الكروم المواجهة للمحطة تم تأجيرها وأقيمت عليها المباني التي تكونت في الغالب من دكان كبيرة على قارعة الطريق وممر ضيق بجانبها يفضي إلى بيت مقام خلفها يستخدم عادة منامة أو مخزناً إضافياً لصاحب الدكان .

يوماً بعد يوم فقد المكان خصوصيته .. أصبح أهله غرباءً وسط هذا الخليط الذي توافد من كل فج .. مصريون و شوام و أتراك وإنجليز .. مسلمون ومسيحيون وأرفاض ممن لا دين لهم .. اختلط الحابل بالنابل .. لكن أبرز هذا الخليط .. كان تجار المخدرات الذين وجدوا في المحطة وقطاراتها المتلاحقة الصاعدة والهابطة إلى مصر وسيلة للإثراء السريع .. شيئاً فشيئاً فرضت المحطة قوانينها وأعرافها التي لم يستطع أهل الحارة لها دفعاً أو مقاومة .

حاول خليل أن يستقطب أهل الخير في حارته لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من القيم القديمة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم .. والتي هي عماد حياتهم .. وزاد آخرتهم .. استقر رأيهم على بناء مسجد على أطراف المحطة .. كانت هناك أرض للوقف حصلوا عليها بسهولة وبدأوا يجمعون التبرعات لإقامة المسجد .

في العام الأول لم يستطع خليل أن يجمع إلا قروشاً معدودة .. قال له الحاج ضيا أمين الصندوق :

- هذه النقود لا تكفي لشراء حصير للجامع .. لماذا تصر على أن تجمع التبرعات من الذين يصلون وراءك فقط .. عليك طلب التبرع من الذين لا يصلون .. إذهب إليهم في بيوتهم ونواديهم .. إن لم يدفعوا كفارة عن ذنوبهم سيدفعون حياءً منك وأنت تضبطهم بالجرم المشهود .

تذكر خليل ما كان يجهد في نسيانه .. زوجات عمال المحطة في ثيابهن القصيرة أمام الدكاكين والمقاهي .. ضحكاتهن مع الباعة وعابري السبيل .. وحتى عساكر الإنجليز .. محنته الكبرى في تحصيل الإيجارات من هؤلاء النسوة .. رجالهن غائبون عن البيوت معظم الوقت .. ولا يأبهون بمن يدخل أو يخرج على حريمهم .. النساء يبرزن له في فضلة من الثياب .. يدعونه لتقاضي أجرة البيت في الداخل .. وحينما يصر على البقاء في الشارع ولا يرفع عينه عن الأرض .. يسمعنه آيات من الغنج والدلال .. تفيده هانم كانت أكثرهن جرأة وقلة احتشام .. خرجت له يوماً شبه عارية تغني وهي تتمايل أمامه :

- أمانة يا شاطر .. ما تكسر لي خاطر .

وحين يئست منه انصرفت إلى الداخل وهي تبالغ في هز أردافها وصوتها يلعلع :

- تعاليلي يا بطه .. وأنا مالي هيه .

غض خليل عينيه وردد قوله تعالى : ربِ إن لم تصرف عني كيدهن .. أصبُ لهن .. وأكن من الجاهلين .

هزه الحاج ضيا :

- ماذا قلت ؟

- ما أراني أجمع مالاً كسب من حرام لكي أبني به بيتاً من بيوت الله .. إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .

شخر الحاج ضيا :

- بدك تأدن في مالطا .. الدنيا اتغيرت والناس اتغيروا .. والمثل بقول (على قد سوقك سوق) .. وإلا بدك تعمل فينا زي اللي قال : (لا برحمك ولا بخلي مين يرحمك .. ولا بخلي رحمة الله تنزل عليك) .

نفض خليل يديه من التراب الذي علق بهما أثناء الصلاة وقال للحاج ضيا :

– عرض عليَّ أبو التوفيق أن أعمل معه في التجارة بين غزة وحيفا .. أنقل إلى حيفا الزيوت والتمور والصوف والجلود والفاكهة .. وأعود إليه بالخروب والبندق والقمر الدين والصابون الممسك وخلاف ذلك من بضائع الشام .. كنت متردداً .. أما الآن وبعد ما سمعته منك فإني لا أجد مندوحة عن القبول .. اختاروا لمسجدكم إماماً غيري .. لا يطلق لسانه عقب كل صلاة في تجار الحشيش وكسبة المال الحرام .. ويقول فيهم ما قاله مالك في الخمر .

نهض خليل من مجلسه .. انتعل حذاءه المكعوب .. مضى يهرول في الطريق إلى دكانة أبو التوفيق .. مردداً قوله تعالى : (ألم تكن أرض الله واسعة .. فتهاجروا فيها) .

في الطريق .. اعترضته شرذمة من عساكر الإنجليز .. كانوا يتطوحون وزجاجات الخمر في أيديهم .. يغنون بعربية هجينة :

– حطي ويسكي حطي بير

صاجن ميجر مش تشرب عصير

ومن(1) في غزة مشكل كبير

تل أبيب فيها زقزق كثير

حطي ويسكي حطي بير

تحلقوا حول خليل مد أحدهم زجاجته باتجاهه عارضاً عليه أن يشرب :

– اشرب خبيبي .. في صخة أمك .

تخلص خليل منهم بصعوبة .. انطلق إلى دكان أبو التوفيق .. وهو يسب اليوم الذي ركب فيه هجينه من محطة السكة الحديد في معان .. ميمماً عسكر الشريف في الحجاز .

1. **نساء .**

(3)

فتح حسين عينيه على سعتهما .. رأى سقف الصيرة بوضوح .. حاول أن يحرك أطرافه فلم يستطع .. استجمع كل قوته محاولاً تحريك أصابع قدميه أو أصابع يده اليمنى دون جدوى .. أيقن أن المعجزة التي ينتظر لم تقع أثناء نومه .. تنهد وهو

يردد الدعاء الذي سمعه من خليل ودأب على المناجاة به أمداً طويلاً (رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) .

لاحظ أن فراش أمه في الجانب الآخر من الصيرة [1] قد طُوِيَ فأيقن أنها ذهبت في رحلتها اليومية وراء خبز اليتامى .. كانت أمه عجفاء قصيرة داكنة البشرة .. فقدت عينها اليسرى بسبب رمد اجتاح الحارة في صباها ..أطفأ عيوناً كثيرة قبل أن يجدوا له دواء .. لازمتها المرارة والسخط .. قضت الكوليرا على السويسي زوجها الأول وطفلتها منه .. فاكتأبت وأوغلت في الكآبة .. تزوجت للمرة الثانية .. وحين ظنت أن الدنيا تصالحها .. ضاع وادي الزيت وضاع معه زوجها الثاني .. أيقنت أن سوء الطالع يجد في أثرها .. ثم كانت الطامة الكبرى .. أصيب ولدها وعائلها اليافع .. اسودت الدنيا في عينها الوحيدة ..تحولت الكآبة المزمنة في أعماقها إلى شراسة وقسوة .

مد حسين ذراعه السليمة .. أزاح طرف الشادر الذي يغطي باب الصيرة .. سطعت الشمس على ذوائب الشجر .. مدت قرونها الذهبية بين ضلوع الصبر العالية .. شم رائحة الحطب ممزوجة برائحة الخبز .. لابد أن جيرانه البطوش أشعلوا فرنهم وتحلقوا حوله لتناول افطارهم .. ليل آخر قد رحل .. نهار جديد قد حل ومازال لصيق التراب ..

هبت نسمات الصباح الباردة حاملة رفاً من الكركز [2] .. حط تحت الجميزة .. انهمك في نبش الأرض الرخوة بحثاً عن الديدان .. أدرك حسين أن الشتاء قد اقترب وأنه جاوز الحول في رقدته .. منذ أصابه هذا الداء اللعين .

1.الصيرة : سقيفة تقام كمأوى بدائي .
2. الكزكز : صنف من صغار العصافير .

آخر مرة وقف فيها على قدميه كانت على حافة بركة اعبية .. في نهاية موسم الحصاد .. أراد الاستحمام كعادته .. خلع ملابسه وطواها إلى جانب المزراب .. نظر إلى سهل الرنجس قبل أن يقفز في ماء البركة .. كان الدخان يتصاعد كثيفاً .. ظن أن قطار الشحن يقوم بالمناورة كعادته .. قفز إلى الماء وأخذ يضرب بساعديه .. غطى الحباب والزبد وجه البركة .. خامره شعور بالحبور والبهجة .. حصاد السنة كان وفيراً .. شارك فيه بحصة كاملة رغم أنه لم يبلغ الرابعة عشر بعد .. امتلأت الصيرة

بالغلال .. قمح .. شعير .. فول .. عدس .. سمسم .. وحتى الزيت والزيتون كان لـــه منه نصيب .. جمع ما يكفي اخوته اليتامى طوال العام .. شهد له أهــل حــارته .. الله يرحم أبوك الحاج أحمد سبع الرجال .. صدق المثل (إللي بخلف ما بموت) .

لم ينتزعه من خيالاته إلا صوت هاشم ابن عمته آمنة :

– النار .. النار أكلت " الصيرة " وكل ما فيها .

ظنه في البداية يمازحه ..

وقف على أرض البركة والماء يسيل من مفرق شعرة وأكتافه .. صـــعد إلـــى الحافة .. استوعب ما حدث ثم تهاوى إلى الماء مرة ثانية فاقداً القدرة على الحركـــة .. كاد يموت غرقاً لولا أنهم سارعوا بإخراجه من الماء وحمله إلى حيث يرقد الآن .

في البداية اجتهدت له الأمهات بالرقي والتمائم .. ثم بالوصفات الموروثـــة جيلاً بعد جيل .. تدليك الجسد بزيت الزيتون أو بالمومياء .. وقائمة طويلـــة مـــن أعشـــاب الحقول بعضها يُغلى ليشرب ماؤه .. وبعضها يدق ويهرس في لبخات تغطي الجسد كله أو أجزاء منه ..

لم يحرز الصبي أي تقدم .. أحضروا له حكيماً مغربياً عالجه بخزانـــة براهـــم وأدوية استنفذت مال المريض وجهد المداوي دون نتيجة .. أخيراً جاء دور العرافيـــن والمنجمين وقراء البخت .. هذا يسلمه لذاك .. مارسوا عليه كل الطقوس والحيل حـــتى أعياهم أمره .. تلقى وعده بين أيديهم .. عارياً كسيدنا يونس .. صابراً كسيدنا أيوب .. مستهدفاً كسيدنا عيسى .. وموعوداً مثله بالصليب الأكبر ..

لم يشكُ .. لم يتذمر .. لم يندب حظه .

أخواله وأعمامه وجيرانه الذين التفوا حوله في الأيام الأولى لإصابته انصـــرفوا عنه واحداً وراء الآخر .. بعد أن يئسوا من تحسن حاله .. إلا خليل والديناري ..

ابن عمه خليل كان أبر أهله به .. أما الديناري ابن عمته أم التوفيـــق فمـــازال يزوره بين الحين والآخر .. ناقلاً إليه أخبار الحارة والمدينة .. جاهداً أن يكون خفيـــف الظل كعهده .

أمس أسر إليه الديناري .. رفيق طفولته وصباه .. أنهم سيحضرون له طـــارد عفاريت بغية إخراج الروح الشريرة التي تلبست جسده .. هز رأســـه دون مبـــالاة .. ولكن الديناري حذره :

- إذا استعصى العفريت على قراءة الأوراد والتمائم .. اتلقى وعدك .. رح يضــــربوك ضرب ما أكلو حمار في مطلع .

حملق فيه غير مصدق :

- يضربوني .

- آه عشان يطلعوا العفريت .

- وإذا ما طلع ؟

- بتطلع روحك إنت .. هادا إسمو حدود الفرقين .. الحياة أو الموت .

ران الصمت برهة ..

- أليس هناك من دواء آخر ؟

- الكي .

تأمله حسين بنظراته المستسلمة .

رق الديناري لصاحبه حتى لمعت الدموع في عينيه ..

حسين اللصيق بالتراب منذ عام ونيف .. هون عليه الأمر وانشغل بمواساته .. تعجب الديناري لرباطة جأش ابن خاله .. ثم قال :

- لن أتركك تحت رحمتهم .. سأخطفك كما خطفت قرعة الشيخ احيار .. وأفر بك إلى مكان لا يدركك فيه أحد .. كل ما عليك فعله لمساعدتي أن لا تصرخ طلباً للنجدة .

تبسم حسين وهو يتخيل نفسه على ظهر الديناري وقال له :

- هل تنوي أن تصعد بي النخلة هذه المرة كما فعلت بقرعة الشيخ احيار ؟

ودعه الديناري ضاحكاً :

- بل سأطير بك إلى مأمنك كما فعل الجني أرميش بالملك سيف ابن ذي يزن .

غادر الديناري وضحكاته تجلجل في الفناء .

تذكر حسين حلم الديناري في مخاواة الجان وتعلم السحر .. كيف أغرته بديعـــة الفتاحة بأن يسرق لها جمجمة ميت .. لم يجد أقرب من الشيخ احيار .. لعله كان فـــي العاشرة مـــن عمره حين فعلها .. نبش القبر وأخذ الجمجمة وأراد أن يطير بهـــا إلـــى بديعة .. أبصر به أولاد الحارة متلبســـاً ووشوا به .. طارده أهل الحارة والقرعة فـــي يده .. لم يجد مكاناً للهرب بغنيمته سوى أن يضعها في عبه ويصعد بهـــا نخلـــة فـــي الجوار .. تحلق أهل الحارة حول النخلة .. أعطوه الأمان وطلبوا منه النزول .. لكـــي

يردوا للشيخ احيار ولي الحارة وشفيعها ما سرق منه .. حضر أبو التوفيق وهو يتميــز من الغيظ لهذه الفعلة النجسة .. وفمه يكتظ بالشتائم :

– يا بندوق يا ابن الحرام .. حسبي الله قاطعه مــانعه .. تقصــف الأشــجار وتقصــر الأعمار .. الله ياخدك ويريحني منك .

أمره أن يلقي إليهم بِقَرَعة الولي الصالح .. ألقاها .. تلقفوها .. هرعوا لإعادتها إلى مكانها بكل تجلة واحترام .. أحكموا إغلاق القبر وسووا عليه الــتراب .. انشــغلوا بإنزال الصبي عن النخلة .. كان الرعب الذي أحسه وهو مطارد كفيلاً بأن يدفعه إلـــى تسلق النخلة .. أما وقد سكن روعه فلم يعد يعرف كيف ينزل من هذا العلو الشاهق ..

أحضر أحدهم مطلاعاً .. صعد النخلة حتى وصل إلى مكان الطفــل الشــقي .. حمله على أكتافه ونزل به جاهداً من تحاشي السقوط .. تعثرت قدم الرجــل وكــاد أن يهوي بحمله إلى الأرض .. رق قلب أبو التوفيق ..توقف عن كيل الشــتائم .. صــار يدعو لطفله بالنجاة والهبوط سالماً .. تضرع أبو التوفيق كعادة أهــل الحــارة حينمــا يحزبهم أمر جلل .

– يا الله يا شيخ احيار .. أنا واقع في عرضك .. تنتعوا بالسلامة .

علق الرفاتي حلاق الحارة ضاحكاً :

– يا أبو التوفيق .. استنى على الشيخ احيار لما يلقط نفسو .

* * *

فجر اليوم التالي كان الديناري قد أعد كل شئ .. اشترى تذكرة لراكــب واحــد بالقطار إلى يافا كلفته كل مدخراته .. تحت جنح الظلام حمل القعيد وتســلل بــه إلــى محطة القطار .. أسنده على أحد المقاعد .. لفه بالعباءة وسلمه التذكرة :

– عليك تبديل القطار في محطة اللد .. إن لم تفعل ستنتهي بك الرحلة في حيفا حيــث آخر محطة لهذا القطار القادم من مصر ..

أضاف مازحاً :

– لا تستعجل وتزاحم الركاب في النزول .

اختفى الديناري في لمح البصر .

أطبق حسين كفه السليمة على التذكرة .. تلفت حواليه .. كـان علـى بعـض المقاعد ركاب أتوا من مصر .. غادر بعضهم في محطة غزة وبقي الآخرون .. صعد ركاب جدد .. أطلق القطار صفارته الأخيرة .

بدأت الظلال السوداء في الاختفاء .. جلى النهار الجديد صور الحياة على امتداد شريط القطار .. بيارات البرتقال .. أسيجة الصبر .. أشجار الجميز .. قرى بسـقوف طينية واطئة تظهر وتختفي ..

جاء الكمساري وتفحص تذاكر الركاب .. لم يلاحظ أحد أن هذا الجسد الملفوف بالعباءة .. لصبي مقعد لا يستطيع التحرك من مكانه .. تجاذب الركاب أطراف الحديث .. كان على أحدهم سيماء الوجاهة .. خلع طربوشه .. مسح جبينه ورأسـه بمنديلـه الأبيض .. أعاد الطربوش إلى مفرقه وواصل الحديث :

– الحاج أمين الحسيني وصل مصر ونزل في فندق الكونتينانتـال .. فاجـأه تعـاطف الشعب المصري مع أشقائه في فلسطين .. علي علوبة باشا وعبد الرحمن عزام والشيخ رشيد رضا والمؤرخ أحمد شفيق باشا نظموا حملة تبرعات برئاسة الأمير محمد علـي أخو الخديوي السابق عباس حلمي .. الحملة حققت نجاحـاً شـعبياً كـبيراً .. انزعـج الإنجليز .. أوعزوا للملك فؤاد بإفشال الحملة .. الملك فؤاد الأول أقام حفل عشاء على شرف الحاج أمين في القصر الملكي وخاطبه باللغة التركية :

– مفتي أفندي .. لجنة تبرعات موش تمام .. الأمير محمد علي عقلو تراللي .. الشـيخ بخيت أعـور مجنون .. أحمد شفيق باشا صفر .. تبرعات وأنا موجـود ؟؟!!.. كـم تتعشـم أن تجمع ؟.. عشرة آلاف ؟.. عشرين ألف ؟.. أنا أعطيك مائة ألف جنيـه .. وبلاش الغاغة إللي إنتو عاملينها ..

توقفت الحملة ولم يدفع الملك شيئاً للمفتي .. عاد المفتي من مصر صفر اليدين .

بلع حسين ريقه .. وهو لا يكاد يصدق .. أيعقل أن يكون الملوك كذابين .

ظهرت بلدة كبيرة .. توقف القطار عندها .. ظنها حسين محطة اللد .. انتـابه القلق .. أين اختفى الديناري ..

سأل جاره بلهفة :

– هل وصلنا اللد ؟

– رفع جاره حاجبيه إلى أعلى مستغرباً :

– وينك ووين اللد .. هادي يبنا .

أخيراً وصل القطار محطة اللد .. تدلت قدمان من سطح القطار ودقتا على زجاج النافذة .. تبين حسين أنهما قدما الديناري .. أدرك أن صاحبه انبطح على سطح القطار طوال الرحلة مخاطراً بنفسه .. لو أبصره أحد هناك سيحكم عليه بالسجن وبغرامة كبيرة .. ما أن توقف القطار تماماً حتى قفز الديناري على الرصيف .. انتظر نزول الركاب .. انطلق كالزوبعة ليحمل صديقه من جديد إلى قطار يافا .. وضعه في المقعد .. أسنده كما فعل في المرة السابقة واختفى ثانية ..

تحرك القطار إلى يافا .. اختلفت المناظر هذه المرة .. القرى التي مر بها كانت مبنية بالحجارة ومغطاة بالقرميد الأحمر .. بيوت مشرعة وشوارع نظيفة معبدة .. عرف من الركاب أسماء القرى التي مر بها القطار .. بيت دجن .. يزور .. سلمه . أخيراً وقف القطار في محطة يافا .. حمله الديناري إلى أقرب دلجنس[2] واتخذ مقعده إلى جوار السائق .. أمر الديناري السائق بصوت جاهد أن يجعله صوت رجل راشد مقتدر

– إلى اسبيطار الفرنساوي .

مر الدلجنس بشوارع يافا .. لاحظ حسين المباني العالية .. الدكاكين بواجهاتها الجميلة المنسقة وبضائعها الفريدة .. الشوارع المعبدة المزدحمة بالأطومبيلات والعربات التي تجرها الخيل .. الرجال بطرابيشهم المكوية وسراويلهم الفاخرة .. النساء على الشرفات بملابسهن النظيفة المرتبة ..

انعطف الحوذي إلى شارع العالِم .. لم يسر إلا قليلاً .. اضطرب المرور في الشارع .. أمرت الدلجنسات بالوقوف على جانبي الطريق .. هب رجال المرور يفسحون الدرب أمام فارس يمتطي صهوة حصان أدهم .. على رأس الحصان لاحظ حسين طائراً ملوناً يقف وذيله يتعامد مع عرف الحصان .. قال الحوذي :

2. الدلجنس : عربة ركاب تجرها الخيل .

– هياتو إبن الأكابر محمد بركه .. ياللي ورث عن إمو وأبوه نص يافا .. صاحبو للمندوب السامي .. هيئتو نازل من قصرو في تلة بيدس .. رايح لقهوة الحلواني .. الطاووس على جنزبيلة الحصان .. والخدم والحشم حولو وحواليه .. وبعد ما يوصل القهوة تعال واتفرج .. عليَّ النعمة ما بفضى يحك راسو من كترة الحشيكة ومساحين الجوخ .. صدق مين قال العز بهدله .

تجاوزهم الموكب وعاد الطريق إلى سابق عهده .. ساق الحوذي الدلجنس حتى وصل إلى المستشفى ..

حمل الديناري ابن عمته ومدده في الردهة .. سجل المريض الجديد .. وأفهمهم أن الصبي مقطوع من شجرة .. لا صلة على الإطلاق تربطه به :

- أنا فاعل خير ..

قالها ومضى دون أن ينتظر جواباً .. حين صار خارج المستشفى تنهد :

- هيك لزقنا الطينة في العجينة .

كان صاحب الدلجنس مازال واقفاً بالباب في انتظار الأجرة .. أخبره الديناري بالحكاية كلها وطلب منه أن يسامحه بالأجرة :

- ثوابك على الله سبحانه وتعالى .. وهنيالك يا فاعل الخير .

احتج السائق بشدة :

- ما أنا فاتحها إتكيه يا أخو الهيك وهيك .

خلع الديناري دُفيته .. عرضها عليه بدل الأجرة .. تناولها السائق .. قلبها بين يديه .. كانت مليئة بالثقوب بالية لا تصلح لشئ .. كورها وقذف بها في وجهه :

- لِم قملك وسيبانك .. غِزاوي أكال فلفل .

طوح سوطه في الهواء .. خال الديناري أنه سيلسعه بالسوط .. حمل دفيته وولى الأدبار .. سمع السوط يفرقع على ظهور الخيل وعجلات الدلجنس تصر على حجر الطريق .. وشتائم السائق المقذعة .. تنال أمهات الغزازوة وأخواتهن .. ولم يشتف السائق .. فلاحق الديناري بأحر تمنياته القلبية :

- ولى غِزاوي .. يفضح ولاياك على طابور عسكر .

(4)

أخرج الديناري كسرة خبز ناشفة من جيبه .. أسكت بها عواء أمعاءه .. انطلق يبحث عن بيت أخيه مشعل .. مر بمسجد حسن بيك .. سمع آذان العصر .. تأمل المسجد الذي يراه لأول مرة .. شرحت صدره المئذنة الرشيقة والقباب والأسوار المحيطة بباحة المسجد .. لمح من فرجة الباب الأرض المبلطة بالرخام الناصع .. وصفوف المصلين الذين ينتظمون استعداداً للصلاة .. أراد الدخول لقضاء الفريضة .. لوى الجوع أمعاءه .. واصل السير .. سأل عن بيت أخيه حتى اهتدى إليه .

دق الباب المغلق ممنياً النفس بأطايب الطعام .. انتظر قليلاً ثم دق ثانية .. واصل الدق حتى تعبت ذراعه .. أطلت احدى الجارات من الشرفة ..أخبرته أن زوجة أخيه قد خرجت .. أسقط في يده .. عليه الآن أن يواجه شقيقه مشعل في دكانه بالمنشية .. تردد قبل أن يتخذ قراره .. دفعه الجوع للمجازفة بلقاء لا تحمد عقباه .. وقف في مدخل الدكان .. هم بأن يرجع أدراجه .. صوت مشعل سلقه من الداخل :

– إيش جاب الغراب لإمو .. بشوفك مآنس .. حافي القدم مكشوف الراس .. شحاتين يافا أنضف منك .

لم يجد مندوحة من إخبار مشعل بالحكاية كلها .. جاهداً على أن يحنن قلبه على ابن خاله المريض عله يحظى بتعاطفه .. قال له مشعل بخسة :

– إيش إلنا في هالأقرع انمشطو .. ما أخوه حسن نص البلد .. ارجع على غزة قبل ما يشوفك حداً ويعرف إنك أخويه ويعايرني فيك .

تردد في الخروج .. تابع مشعل :

– أكيد قبل ما تيجي عندي ميلت على الدار وحَشّيت لما ملّيت بطنك .. ما أنا عارفك دِني .. ورمّام .

لم يستطع أن يحتمل أكثر .. انطلق لا يلوي على شئ .. سار في الطريق إلى المحطة .. روائح الطعام المنبعثة من المطاعم وبسطات الفلافل والمطبق فتكت به .. واصل السير .. فجأة سمع صوت رزق أصغر أولاد خاله يلهث خلفه :

– محمد الشيخ أنس .. نورت يافا .

هتف الديناري (يا للي ما تهمّل عبدك) .. احتضن ابن خاله وقال له :

– لسه فكك رخو بس كلامك تحسن عن أيام غزة .

دعاه رزق إلى المبيت معه على سطح دار حسن كبير أبناء الحاج أحمد وشقيق حسين .. حيث مجمع الخلان من الوهايبة وأنسبائهم .

اقتربا من باب البيت .. سمعا الغناء والقصف وضحكات النساء تنبعث من الداخل .. تذكر رزق أن هذا يوم الاستقبال عند زوجة حسن اليافاوية .. وأن صديقاتها يملأن المكان صخباً وحبوراً .. تسللا إلى بيت الدرج وصعدا إلى السطح دون أن يلمحهما أحد .. اقتاده رزق إلى شباك صغير في بيت الدرج يطل على غرفة النساء .. جلس الصبيان يراقبان ما يدور داخل الغرفة جاهدين أن لا يلفتا الانتباه .

كانت إحدى النساء ترتدي ثوباً يكشف عن نحرها وصدرها ولا يكاد يغطي شيئاً من ذراعيها .. انذهل الديناري الذي لم يتعود أن يرى من نساء غزة إلا العينين والكفين .. كانت تغني وتعبر بيديها وجسدها عن معاني الأغنية ..باقي النساء بمن فيهن زوجة أخيه مشعل يصاحبنها بالطبلة والدف والتصفيق بالكفين :

– يا قضامي مغبره

يا قضامي ناعمي

غبرها لي حبيبي

وأنا عاصدرو نايمي

جَبْلي الحلق في الورقه

وقللي إلبسي يا شبقه

قلتلو جسمي ما بيلقى

لبسني وأنا نايمي

انثنت بجذعها لتستكمل المعنى .. أشارت إشارة بذيئة إلى المكان الذي لبسها فيه .. فهم الديناري مقصدها فوقف شعر رأسه .

نقل بصره في النساء وهن يتمايلن ضاحكات .. لاحظ أن ثيابهن ليست أكثر حشمة من ثوب المرأة التي ترقص .. وأنهن جميلات شهيات كعرائس المولد .

أنهت السيدة أغنيتها .. أفسحت الحلبة لضيفة أخرى .. ألبسوها ملابس الرجال وضعوا على رأسها طربوشاً .. رسموا لها بقلم الحواجب شارباً عريضاً .. طلبت عصاً وضعتها بين فخذيها بحيث تظهر نصف العصا من الأمام ونصفها من الخلف .. مشت حنجلة وهن يواكبن خطواتها بالإيقاع والضحك .. تتوسل إليها إحدى المدعوات :

– عمـــي ارادادا .. عمـــي ارادادا ..

ارحـــم حبـــي الرحمـــة عبـــاده

تتوقف الراقصة أمامها مشيرة إلى طرفي العصا :

– مش عايز ولا كلمة زياده

بـــدك هـــادا ولا هـــــادا

تغرق النسوة في الضحك .. ويتمايلن بغنج وتهتك .

سمع الصبيان خطوات تصعد الدرج .. انطلقا إلى السطح مـــذعورين قبـــل أن يضبطا بالجرم المشهود .

مرت لحظات التقطا فيها أنفاسهما .. ظهر طربوش حسن من قاع الـــدرج ثـــم وجهه وقامته الفارعة .. سار نحوهما بخطى وئيدة وهو يتكئ على شمسيته المطوية .. تأمله الديناري بالقنباز الروزة والساكو الحرير والكندرة الكريب .. تذكـــر قـــول أبيـــه (روح يافا .. وشوف إللي تنطقوا لفوق .. أخوك مشعل صار تاجر ألفي .. وابن خالك حسن عندو عشرين جمل بنقلوا زفزف .. من شط البحر ليافا وتل أبيب .. وإنت قاعـــد في غزة طيزك بتسف تراب) .

حياهما حسن .. عانق ابن عمته بحرارة .. شكر رزق لأنه دعاه للمبيت عنده .. سأل عن عمته أم التوفيق .. وزوج عمته أبو التوفيق .. وعن الوهايبة كـــل باســـمه .. حين سأل عن شقيقه حسين .. لم يجد الديناري مندوحة من الاعتراف بفعلته .

قطب حسن جبينه وقال له مؤنباً :

– زي ما إنتو بتسمعوا عن اسبيطار الفرنساوي في يافا .. إحنا بنسمع عـــن اســـبيطار استرلي في غزة .. وإلا الولي البعيد سرو باتع .. الله يهديك .. حســـين حـــالتو ميئوس منها .. على رأي المثل (فالج لا تعالج) .

رانت برهة من الصمت .. رأى حسن خيبة الأمل على وجه الديناري فأراد أن يخفف عنه .. سأل ضيفه بمودة :

– اتعشيت ؟..

لم ينتظر جوابه وتابع :

– بس يروحو النسوان إللي تحت بيجي دورنا وبتفضالنا نواره .. (هكذا كـــان يســـمي زوجته) .

تناهى إلى أسماعهم صوت الغناء القادم من الطابق الأرضي :

- نور جمالك آيه

آيــه مــن الله

أمــنت بالله

طافت برأس الديناري المشاهد التي حظي بها .. وهو يختلس النظر مــن بيــت الدرج الى وجوه اليافاويات الندية .. أجسادهن الطرية كالملبن .. تذكر نساء الحـــــارة الخشنات .. بملابسهن السوداء الطويلة .. يتراكضن في أزقة الحارة .. ينقلــن جــرار الماء .. أو يجمعن الوقود للأفران .. حافيات متسخات الثياب .

فاجأه حسن :

- إذا بدك تشتغل في يافا .. بنشغلك في نقل الزفزف .. شاور أخوك مشــعل واســتلم الشغل من بكره .. بدناش يتهمنا مشعل إنا خطفناك منو .

هز الديناري رأسه مغتبطاً بالحظوة التي نالها .. أكد لحسن زهد مشــعل فــي خدماته .

قطع عليهما الحديث وصول مدحت وهبه وابن عمه ونديمه فايق الذي يصــغره بعشرة أعوام .. كانا في حالة بيِّنه من السكر .. بعد جولة لهما في علب الليل بتل أبيب ويافا .

صعدا الدرجات الأخيرة يتساند كل منهما على صاحبه وهما يغنيان :

- يا طيره طيري يا حمامه

روحي عــا دمر والهامــه

هاتيلي مــن حبي علامــه

ساعــة وخاتــم ألمــــاز

على على ديني

جننتينـــــــــي

على ديني العشق حرام والله

تأملهما حسن وضرب كفاً بكف .

- الحُق [1] دَوّر على غطاه لما لقاه .. إنتو الجوز بعرة وانقســمت بشــعرة .. عليــه العوض ومنو العوض .

الحُقْ : علبة صفيح صغيرة .

قال فايق يدفع التهمة عن نفسه :

– أنا مش زيو .. أنا شغيل كسيب .. " واجنر " صاحب المحددة إللي بشتغل فيهـــا .. بحسب لي ألف حساب .. " واجنر " ميت مرة يقول لي (إنـــت مـــش بـــس شـــكلك ألماني .. إنت عقلك ألماني) .

تابع حسن مؤنباً :

– والسكر يا فايق .. العربدة إللي بتعربدها في كباريهات تل أبيب .. وخمارات يافا .

– حَسِّن ألفاظك .. السكر مش عيب .. " واجنر " نفسو بسكر .. أما العربدة فحـــدالله بيني وبينها .

أشار إلى ابن عمه مدحت :

– هادا إمها وأبوها .. هادا تربابة الخواجه لامبيدس .

تدخل مدحت وهبه مخافة أن يزلق لسان فايق ويفضح مغامراته فـــي بانســـيون روزا :

– فايق زلمة آدمي ومن يوم ما شغلتو في محددة " واجنر " والكل بحلف بحياتو .

قاطعه حسن :

– طبعـــاً يا عمي .. إيش بدو يتعلم منك .. اربط حمار جنب حمار يا بعلمو الشهيق .. يا بعلمو النهيق .

انتبها لوجود الديناري .. عانقاه مرحبين به في يافا .

قال فايق وهو يترنح من السكر :

– كِمِلْ الجيش بالحج اقطيش .. جاي تدور عاشغل ؟

أشار إلى مدحت ..

– هادا بشغلك وين ما بدك .. انشالله في دار المندوب السامي .

فاجأهم وصول الدوش عائداً من عمله في الميناء .. لم يكمل وردية الليل الـــتي اختارها طمعاً في أجرتها العالية .. تهاوى الدوش على الكرسي مهدوداً .. توجس حسن من هذه العودة المفاجئة :

– خير يا ابن عمي .. عسى ما شر ؟

– شر .. وهم ما بلتم .

نظروا إليه واجمين .. تابع وهو يتميز من الغيظ :

– اليوم في المينا وإحنا بنزل براميل الشمينتو من بابور البحر " ليوبلد الثـــاني " وقـــع برميل من الونش على الرصيف وانكسر .. ما كانش فيه شمينتو ..
قاطعه رزق وقد وجدها فرصة لاستعراض خبرته كبناء متمرس :
– إن شالله حاطين فيه قُصُرْ مِل **(2)** .
قاطعه الدوش غاضباً :
– حاطين فيه مدافع برن يا افندي .. اولاد الميتـــة بهربـــوا الســـلاح فـــي صـــناديق البضاعة .. المدافع جايه من ألمانيا لمستعمرة بتاح هتكفا .. البوليس الإنجليزي طـــوق المينا .. أمر العمال يروحوا على دورهم .
غمغم الديناري :
– أكيد رح يشنقوا كل اليهود إللي في هتكفا .
سخر منه فايق :
– الإنجليز بشنقوا العربي إذا ضبطوا عندو رصاصة فارغة .. أما اليهودي فلا تثبـــت عليه التهمه مهما كان الدليل واضحا ضده .

تدخل رزق للمرة الثانية وقد وجدها فرصة ليشرح لابن عمته الديناري ما خفي عنه .. حرك فكه الرخو ببطء كأنه يستحضر الكلمات من مكان بعيد :
– هما اولاد الست .. وإحنا اولاد الجارية .
قال حسن :
– أكيد الخبر وصل للهيئة العربية العليا .. وبكره يافا بتولع مظاهرات واضـــرابات .. والله يستر .

خيم الصمت .. لم يتبادلوا بينهم أي حديث حتى ظهرت نوارة ومعها الصغيرتان يحملن ما تبقى بعد الغزوة النسائية العارمة .. ورق العنب .. محشي الكوسا .. صحون الكباب .. والكفتة .. وما لذ وطاب .
دعاهم حسن إلى العشاء :
– باسم الله .

2. قصرمل :

وقع الديناري على الطعام وقوع بدوي مقروح على جميز مسطوح .. كان يملأ فمه بكلتا يديه .. راقبوه قليلاً .. ثم بدأوا يتناولون طعامهم .

فترت همة الديناري .. أخيراً توقف عن الأكل .. ربت فايق على ظهره :

– صرت يا إبن عمتي مثل فردة القمح[3] .. إقف وخَصِّم[4] .. لسه القُرَنْ ما انتلت .

3. فـــردة قمح : شوال القمح .
4. إقف وخَصّم : قف واقفز أعلى وأسفل .

(5)

لم توفر تجارة أبو التوفيق لخليل راحة البال التي كان يتوخاها .. فعلـــى طـــول خط السكة الحديد .. كان يرى المستوطنين اليهود وهم يصـــعدون إلـــى القطـــارات أو يهبطون منها في الإتجاه إلى مستوطناتهم .. في كل مكان من فلسطين كان خليل يـــرى بعينيه أو يسمع من زبائنه حكايات تعيد إلى ذهنه ما حدث في وادي الزيت .. الفلاحون

العرب يطردون من أراضيهم التي زرعوها آلاف السنين .. لكي تسيج هذه الأرض وتحاط بالأسلاك الشائكة .. ويمنحها المندوب السامي للمستوطنين اليهود بمختلف الأعذار والحجج .. مرة لأن شركاتهم الاستثمارية قادرة على تجفيف المستنقعات .. ومرة لأنها قادرة على إدخال زراعات جديدة .. مرة لأن لديهم تعاونيات منظمة وليس لدى العرب شئ من ذلك كله .. ناهيك عن المشاريع الصناعية الكبرى التي تسربت امتيازاتها لأيديهم .. كهرباء روتم بيرج .. بوتاس البحر الميت .. مصفاة البترول في حيفا .. قائمة طويلة لا تنتهي ..

حين وصل القطار هذه المرة إلى محطة حيفا .. وجد خليل عميله رشيد الحاج في انتظاره على الرصيف .. ساعده في إنزال بالات الصوف وصفائح الزيت وقفائز العجوة .. حمل ذلك كله على عربات تجرها الخيل وانطلق إلى حاصل رشيد الحاج في سوق حيفا .... حين انتهيا من إنزال البضاعة اصطحبه رشيد الحاج إلى حانوت اللحام ليتناول طعام الغذاء .. طلب رشيد الحاج شواءً ولبناً وأرغفة من الخبز الطازج .. جلسا متقابلين على مائدة تتسع لاثنين في عمق الدكان .. ساد الصمت بينهما .. وضع العشي أطباق الكباب والسلطة والخبز .

همس العشي في أذن رشيد الحاج :

– صاحبك الشيخ عز الدين أخذه الإنجليز إلى مركز الشرطة للتحقيق معه .

هتف رشيد الحاج :

– هادي ثالث مرة يعملوها .. وإيش التهمة هالمرة ؟

قال العشي :

– نفس التهمة .. التحريض على الثورة .. والتركيز في خطبه على الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. ومن رباط الخيل) .

انهمك رشيد الحاج في شرح ما يجري لضيفه الغزاوي .

– يقول لهم الشيخ عز الدين كل مرة .. (هذه الآية من الآيات الرئيسية في القرآن الكريم .. لم أؤلفها .. ولم أفترها على الله كذباً .. وإذا كانت النسخة التي لدي من القرآن الكريم موضع شك عندكم .. أعطوني نسخة أخرى من مصحف عثمان .. لكي أتلو منها على المصلين دون أن أغضبكم ..)

تكدر مزاج رشيد الحاج .. لم يلتهم طعامه بتلذذ كما في كل مرة .. توقف بعد اللقيمات الأولى وهمس :

- الظاهر يا خليل ما سمعت بالخبر .

قال خليل وهو يزدرد ما تبقى من الكباب في صحنه :

- خير يا طير .

- العجوز اللبنانية الشمطاء بنت سُرسُق .. باعت مرج ابن عـــامر لليهـــود .. واحـــد وأربعين ألف دونم .. ألف وخمسمائة عائلة تعيش عليها وتعتاش منها ..

أحس خليل أن الحانوت يميد به .. وأن مقعده يسوخ في الأرض .. سأل جليسه بحنق :

- ولكن كيف آلت كل هذه الأراضي لهذه العجوز ؟؟

- جدها حصل على هذه الأرض مثل كل المغامرين الوافدين على فلسطين .. بمـــوجب تيمار اشتراه من السلطان العثماني .. يخول له حق جمـــع الضـــرائب مـــن أصـــحاب الأراضي والفلاحين في الناحية التي يشملها التيمار .. بمرور الوقت ادعى هؤلاء الجباة حقوق الملكية .. سقط السلطان العثماني وبدلاً من أن تعيد حكومة الإنتداب الأرض إلى أصحابها وترد الظلم عنهم .. أسبغت الشرعية على هذه الصكوك الجائرة لأنها تســـهل انتقال ملكية هذه الأراضي إلى اليهود .. تنفيذا لوعد بلفور .

- مرج ابن عامر ؟ .. عشرات القرى ومئات العزب وآلاف الفلاحين يباعون لليهود .

تابع رشيد الحاج :

- بدأ الإنجليز في طرد السكان العرب من أراضي المرج وتسليمها لليهود .. نفس مـــا جرى لعرب الزبيدات .. وعرب الحوارث عندما سلمت أراضيهم في الحارثيـــة قـــرب حيفا لليهود .. خلال أيام سترى طلائع اللاجئين من قرى المرج يملأون شوارع حيفا .. إن هؤلاء الذين حولتهم الصفقة لمتسولين .. كانوا أحسن زبائني ..

غـــادرا المطعم وخليل يترنح تحت وقع النبـــأ .. قـــادته أقـــدامه إلـــى جـــامع الاســـتقلال .. كان المسجد يغص بالمصلين بانتظار عودة الشيخ من مركز الشرطة .. حيث بدأ التحقيق معه منذ الصباح الباكر .. هم المصلون بترك المسجد والاتجـــاه إلـــى مركز الشرطة لإخراج الشيخ عنوة .. قائد الشرطة البريطاني كان من الحـــذق بحيـــث أعاد الشيخ إلى منبره قبل فوات الأوان .. صعد الشيخ إلى المنـــبر لإلقـــــاء خطبـــــة الجمعة .. توضأ خليل ودخل المسجد .. نوى ركعتين تحية المسجد .. ولكـــن الإمـــــام عاجله .. بدأ الخطبة بصوت جهوري مهيب ينفذ إلى القلب .. كان موضوع الخطبة عن

بيت المقدس .. جلس خليل دون أن يتم صلاته .. تهدج صوت الخطيب .. الشيخ عـــز الدين :

– جاء في الأنس الجليل لقاضي القضاة مجير الدين الحنبلي أن الناس اختلفوا في أول من بنى مسجد بيت المقدس .. روى بعض العلماء أن أول من بناه الملائكـــة بـــأمر الله تعالى قبل خلق آدم بألفي عام .. وكانوا يحجون إليه ..

ومن العلماء من قال : أول من بنى بيت المقدس آدم عليه السلام .. ومنهم من قـــــال : أسسه سام ابن نوح عليهما السلام وكان اسمه ملكي صادق الذي خضـــعت لــــه ملـــوك الأرض .. وحجت إلى مسجده بشعوبها ..

قيل أن كل ماء عذب إنما يخرج من أصل الصخرة الشريفة ثـــم يتفـــرق فـــي الأرض وقال كعب : القدس أقرب الأرض إلى السماء .

عن معاذ رضي الله عنه قال .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال الله تعالى : يا شآم (يقصد ما حول بيت المقدس) أنت صفوتي من بلادي .. وأنـــا ســـائق إليـــك صفوتي من عبادي .. من كان مولده فيكِ فاختار عليك غيرك فبذنب يصـــيبه .. ومـــن كان مولده في غيرك فاختارك إنما يختارك برحمة مني .. يا شآم اتسعي لأهلك بالرزق كما يتسع الرحم للولد .. وعيني عليك بالطّل والمطر منذ خلقت السنين والأيام .. مــــن يعدم فيكِ المال لا يعدم الخير .. ومن دخلك استغنى عن الزيت والقمح .. أنت المقدسة بنوري وفيكِ المحشر والمنشر .. أزفك يوم القيامة كما تزف العروس إلى بعلها ..

وعن معاذ قال .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يا معـــاذ إن الله عـــز وجل سيفتح عليكم الشام بعدي من العريش إلى الفرات .. رجالهم ونساؤهم وإمـــــاؤهم مرابطون إلى يوم القيامة .. فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس .. فهو في جهاد إلى قيام الساعة .

وعن كعب قال : شكى بيت المقدس إلى ربه الخراب فأوحى الله إليه .. لأملأنك خدوداً سجداً .. يزفون إليك زفيف النسور إلى أوكارها .. ويحنون إليك حنيـــن الحمـــام إلـــى بيضها .. فقال رجل اتق الله يا كعب .. وهل لبيت المقدس لسان ؟

قال : نعم وله قلب مثلك .

عن أبي هريرة رضي الله عنه .. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قـــال .. (الميـــاه العذبة والرياح اللواقح تخرج من تحت صخرة بيت المقدس .

وقيل من أراد أن يشرب ماءاً في جوف الليل فليقل : (يا ماء .. مـــاء بيـــت المقـــدس يقرؤك السلام) .. ثم يشرب فإنه أمان بإذن الله عز وجل .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه .. أن النبي صلى الله عليه وسلم قال .. من مات فـــي بيت المقدس فكأنه مات في السماء ..

وقال ابن عباس رضي الله عنه : صخرة بيت المقدس من صخور الجنة .

وقال كعب رضي الله عنه : إن الله ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين .. وقال أنس ابن مالك : إن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس .

كان الحماس قد بلغ بالشيخ مبلغه .. اغرورقت عيناه بالدموع .. صار يبكي .. أبكـــى كل من في المسجد .. تمالك نفسه .. أكمل وهو ينشج :

– في الأخبار المتواترة كلم الله موسى في بيت المقدس .. تاب الله على داوود وسليمان في بيت المقدس .. بشر الله زكريا بيحي في بيت المقدس .. أوتيت مريم عليها الســـلام فاكهة الشتاء في الصيف .. وفاكهة الصيف في الشتاء في بيت المقدس .. ولد عيســـى عليه السلام وتكلم في المهد في بيت المقدس .. أنزلت عليه المائدة في بيت المقـــدس .. رفعه الله إلى السماء من بيت المقدس .. وينزل من السماء إلى الأرض في بيت المقدس .. هاجر إبراهيم عليه السلام من كوثا إلى بيت المقدس .. أسري بمحمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. تكون الهجرة في آخر الزمان إلى بيـــت المقـــدس .. تتغلب يأجوج على الأرض كلها إلا بيت المقدس .. ينصب الصراط إلى الجنة في بيت المقدس .. ينفخ إسرافيل في الصور ببيت المقدس ..

عن أبي عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه .. أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : النجاة النجاة إلى بيت المقدس إذا ظهرت الفتن .

يا عباد الله الفتن قادمة كقطع الليل .. وإنكم أضيع من الأيتام فـــي مأدبـــة اللئام تغتصب بيوتكم وأراضيكم وتؤكل حقوقكم .. وتسلب أقواتكم وتنزع اللقمة مـــن أفـــواه صغاركم .. ينقض عليكم الغاصبون مثل انقضاض الأكلة على قصاعها .. فأين أنتم من هذا الظلم الفادح والخطب الجلل ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قبل على نفسه الظلم شارك ظالمه في الإثم .. فليتخير كل منكم موقعه وليتحسس مكانه .. أقول قولي هذا واســـتغفر الله لـــي ولكم .

تهالك الشيخ على مقعده في أعلى المنبر ينهنه دموعه .. ثم وقف ليتم خطبته بالــــدعاء وحين انتهى أشار للمؤذن بإقامة الصلاة ..

ظل خليل ساهماً يفكر فيما سمعه من الشيخ إلى أن وصل إلى المحطة .. وجـــد رشيد الحاج على الرصيف ومعه البضاعة المزجاة إلى غزة .. ساعده خليل في تحميلها ثم اتخذ مجلسه في القطار .. ولوح بيده من النافذة .

كان خليل مازال تحت تأثير كلمات الشيخ عز الدين .. أحس أن هذه الكلمــــات تفجر ما تراكم في أعماقه من الغضب .. منذ رأى عمه الحاج أحمد يسقط صريعاً على أرض وادي الزيت .. وعساكر الإنجليز يسلمون الوادي إلى شركة مردوك اليهوديه ..

أحس أن اللحظة التي خبأ لها بندقيته كل هذه السنين قد دنت .. وأن ساعة الثأر لكل اللذين قضوا غيلة وغدراً تمثل أمام عينيه .. محمود الذي سقط مضرجاً بدمه على ضفة القناة .. وسعد الدين الذي عاجله خنجر لورنس ..

بدأ النوم يخاتله .. بين النوم واليقظة .. سمع مولود مخلص يهمــس في أذنه : (الإنجليز يا خليل لبسونا طرف الخازوق والغليظ ورا) .. سمع الدوش يزأر في وجهه بعد ضياع الوادي (إذا الأتراك قلعوا الزتون .. الإنجليز تعونك بدهم يقلعوا الأرض من شروشها) ..

لم يغلبه النوم إلا بعد أن رأى نفسه في الإقطية يسوق الأســـرى مـــن عســـاكر الإنجليز كما تساق النعاج .

(6)

أصبحت يافا مقلوبة رأساً على عقب .. استجاب الأهالي لدعوة الهيئة العربية العليا للإضراب والتظاهر احتجاجاً على تواطؤ الإنجليز مع اليهود في تسهيل وصول شحنات السلاح إلى المستوطنات .

شق الديناري وصاحبه رزق طريقهما بصعوبة بالغة من بيت حسن في النزهة إلى أطراف المنشية حيث دكان مشعل .. حينما عبرا سراي الحكومة كانت صفوف رجال الشرطة والجيش تحول دون وصول المتظاهرين إلى المبنى .. في الصفوف الأولى شاهد الديناري بعض النساء بالملاءات يتصدرن المظاهرة .. تعرضت إحداهن لشرطي بريطاني بأقذع الشتائم .. ولم تنس أن تشمل بالذكر مفتش الأمن العام .. مدت قدمها في وجه الشرطي وأشارت بإصبعها إلى حذائها :

– ولى .. سبايسر تبعك بإجري .

شرح رزق للديناري ما غاب عنه .. مدحت عشان يرضي صاحبو يوسف هيكل وجماعة الحاج أمين .. جند بنات الكار في يافا يمشوا مع الستات المحترمات .. وزع عليهم ملايات على حسابو .. بكره الجرايد بتكتب عن مشاركة النساء العربيات في المظاهرة .. ومدحت برفع راسو قدام صحابو .. والا بدك يسيبوا يهوديات الهاجانا [1] يستفردوا فينا .

هتف الديناري بسخرية :

– ولا يجيبها إلا نسوانها .

أخيراً وصلا دكان مشعل على أطراف المنشية .. عقدت الدهشة ألسنتهم .. كانت الواجهة محطمة تماماً .. الحجارة تنهال على مشعل الذي احتمى بأحد الأعمدة داخل دكانه .. والهتافات تشق عنان السماء :

1. يلمح إلى تجنيد اليهوديات في عصابة الهاجانه .

– سكر يا قليل الدين ..

ضاعت منك فلسطين ..

فلسطين بلادنا ..

نفديها بأكبادنا

سكر يا قليل الدين ..

بايع وطنك بالملالين

تصرف الديناري بسرعة البديهة التي هي إحدى مزاياه .. نادى بأعلى صوته :

– يا شباب .. اليهود هجموا على العجمي .. عليهم .

ترك المتظاهرون دكان مشعل .. هرعوا وراء الديناري متجهين صوب العجمي .. الديناري انفتل عند أقرب منعطف عائداً إلى الدكان ليجد رزق يمسح الدماء التي تسيل من وجه مشعل وذراعيه وأنحاء جسده التي أصابتها الحجارة .. عنف الديناري شقيقه بلهجة قاسية :

– يافا معلنه الإضراب .. وإنت بتتحداهم وبتفتح دكانك ؟؟!!.

أدار الديناري عينيه في المكان فوجده قد نهب تماماً .. على الأرض كانت بقايا الأرز والسكر والشاي التي وقعت أثناء عراك المتظاهرين .

هز مشعل سبابته في وجه الديناري ورزق :

– بهاء الله قال في البيان (خراب بيت المقدس .. عمار يثرب) .. بس ما كنتش عارف إنو الخراب رح يبدا من دكاني .

أخذ يضرب بكفيه على ركبتيه :

– يا خسارة تعبي وشقايا .

أمرهم بإنزال الباب الحديد .. تساند عليهم عائداً إلى بيته .. لطمت زوجته خديها وهي تولول :

– يا وردي على ما نابك يا مسخم .. هادي ثالث مرة يتقصدوك .. ابصر مين مسلطهم عليك .. حسبي الله ونعم الوكيل .. قاطعه مانعه .

تهالك على الأريكة .. انشغلوا بتضميد جراحه .. انسل رزق من بينهم ليبلغ حسن والدوش بما جرى .

دخل حسن يرغي ويزبد .. كان قد توسط لمشعل مع لجنة يافا حين تحدى الإضراب الأول .. وتعهد لهم بأن لا يعود ابن عمته لفعل ذلك .. وأن يكون أول الملتزمين بالقرارات الوطنية .. في الإضراب الأول اكتفوا بالتعهد .. في المرة الثانية

تحدى مشعل الإضراب فقذفوه بالحجـــارة .. أما هذه المره فقد نهبوا محتويات دكانه .. (في المرة القادمة سوف يقتلونه ..) صر حسن على أسنانه ثم انفجر غاضباً :

– نهيتك ما انتهيت وكان الطبع فيك غالب .. وذيل الكلب أعوج لو انحط في مية قالب

نكس مشعل رأسه .. ولم يتفوه بكلمة ..

ابنة مشعل التي أنهت دراسة المترك في القدس برعاية من بستان البهجـــة فـــي عكا .. وتحضر لدراسة الحقوق .. أمسكت بخيوط القضية وانطلقت تدافع عـــن أبيهـــا بشراسة :

– أصلاً دكان بابا تابعة لبلدية تل أبيب .. مش تابعة لبلدية يافا .. وزباين بابا كلهم يهود ليش بدكم إياه يسكر ..

ضرب حسن كفاً بكف :

– ما سرني القرد .. لما يسرني ابنو .

أشار لها مشعل :

– اعملي شاي لعمامك .

ثم تابع بصوت جاهد لكي يكون متعقلاً ومنطقياً :

– اليهود من سنين وسنين بتدَّربوا والسلاح بجيهم من كل مكان .. وصار إلهم جيـــــش أقوي من جيش الإنجليز .. الحاج أمين بدوا يكســـرهم بالمظـــاهرات والإضـــرابات .. الكف ما بتعاند المخرز .

لم يحتملوا أكثر من ذلك .. غلى الدم في عروقهم .. غادروا المكان واحداً وراء الآخر ..

قال الدوش حين صاروا على قارعة الطريق :

– رب .. لا تذر على الأرض من الكافرين دَّياراً .. إنك إن تذرهم يضلوا عبـــــادك .. ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً .

ندم الديناري على تدخله لإنقاذ مشعل من أيدي المتظاهرين وهمس في أذن رزق :

– يا ريتنا سبناهم يخلصوا عليه .

حين عادت فاطمة بالشاي .. لم تجد أحداً .. قال لهـــا والـــدها وهـــو يضـــغط بالضمادة على جرح في ذراعه :

– كلامنا ما عجبهم .. لسه راسهم حامي .

توسلت زوجته لابنتها :

– لم يعد لنا مكان في يافا .. مش كل مره بتسلم الجره .. إقبلي الوظيفة إللي انعرضت عليكي في المجدل .. خلينا نرحل قبل ما الثوار يقتلوا أبوكي وتتيتموا .

مشعل بعد نهب دكانه .. لم يعد حريصاً على البقاء في يافا لذلك لم يتردد في تأييد رأي زوجته :

– أستاذه في المجدل .. وظيفة مضمونه .. ودخل ثابت .. وإذا الله سهل بنفتح الدكانة هناك .. إيش بريحك من الأقرع طلاق إمو .

(7)

أصدر حسن أوامره لجَّمالته بالكف عن نقل الزفزف .. حثهم على غسل الجمال وتنظيفها .. وإعداد الرواحل وتزيينها بالشراشيب والشرائط الملونة .. استعداداً لموسم روبين .. الذي ينتظره أصحاب الجمال من العام للعام .

قسم حسن جماله على حارات المدينة .. خير الديناري في اصطفاء المنطقة التي يريدها .. بالغ الديناري في تزيين جمله .. علق على رقبته القلائد .. ثبت عليها الأجراس النحاسية الصغيرة التي تحن وترن على رقبة الجمل الطويلة .. طاف شوارع المدينة وأزقتها للتعاقد مع المصطافيين الميممين روبين .. في أول أيام الموسم أسعفه الحظ براكبة خالها البدر ليلة تمامه .. وضعها في الهودج من ناحية ووضع أمها في الناحية الأخرى .. ظل يسحب لهما الجمل ويخالسهما النظر .. منتهزاً كل فرصة لمجاذبتها أطراف الحديث .. لم تكترث الفتاة به .. لم تبادله كلمة واحدة .. قال في سره : يكفيني غنجها وهي تبالغ في إظهار الخوف من ركوب الجمل .. حين يئس من نيل اهتمامها لجأ إلى الغناء .. غنى لها طوال الطريق .. جاهداً أن يختار أبيات الدلعونه التي تنطق بلسان حاله .. تابعت أمها السجال دون أن تتدخل حتى أنشدها :

- يا للي مرقتِ ولا التفتي

تلتين العقل مني أخدتي

إذا بدك بدل .. ببدل بأختي

وإذا بدك مهر بدفع مليونا

ضحكت أمها وقالت :

- هات المليون وما رح نردك .

قفز قلبه من صـــدره للمفاجــأة .. ظل صامتاً حتى أنزلهما في الخيمة المعـــدة لهما .. عاد أدراجه وهو يتدبر ما قالته أمها حتى دخل يافا ..

التقى زميله سليمان بهار يسحب واحداً من جمال ابن عمته حسن .. حياه وحمله السلام لحبيبة القلب :

- يا رايــح عــاروبيــن

سـلم ســلم عالحلوين

يا رايــح عــاروبيــن

فرغت يافا من سكانها .. حملتهم الهوادج الملونة .. المزينة بالشـــرائط والقلائد إلى رمال روبين .. استقروا هناك لقضاء موسم الصيف .. استسلموا لطقوس المصيف الفذ .. حلقات الدبكة والرقص في النهار .. وسهرات الغناء والقصـــف فـــي الليـــل .. والتريض جيئة وذهاباً بين التلال المترامية على مطارح البصر ..

عرج الديناري على المستشفى الفرنساوي .. ربط جمله في سروة علـــى بـــاب المستشفى .. تسلل إلى الداخل باحثاً عن الوديعة التي أودعها منذ ستة أشهر .. جاهداً أن لا يلفت الانتباه حتى لا يكتشف أحد قرابته للمريض فيلزمونه دفع ما عليه من المال.

وصل إلى سرير حسين في عنبر الرجال .. وجده جالساً في منتصف الســـرير وفي يده السليمه قلم وعلى ركبتيه كراس كبير يخط عليه .. لم ينتبه حســـين لوقـــوف الديناري خلفه محدقاً في الكراس :

– بشوف عَينوك في القلموده[1] .

رفع حسين رأسه وعلى وجهه علامات السعادة البالغة .

عانق ابن عمته وعاتبه على مقاطعته له طول هذه المدة .

– زمان هالقمر ما بان .

لم يكترث الديناري لعتابه .. أخذ منه الكراس وحدق فيه مستغرباً .. شرح لـــه حسين ما خفي عنه :

– الحكيم الفرنساوي نصحني أتعلم القراءة والكتابة .

– هيك خبط لزق من غير خوجاية ولا شيخ كتاب .

– الخوجايـــة موجودة .. شايف العجوز إللي هناك .. هذه الراهبـــة تعـــرف القـــراءة والكتابة .. والحكيم طلب منها مساعدتي .

– وصرت تفك الحرف .

– فك الحرف سهل .. المهم ربطو .. شوفة عينك .. الكتابة هيه ربط الحرف زي مـــا القراءة فك الحرف .

جلس الديناري إلى جانبه على حافة السرير .. حدق في الحروف الـــتي كتبهـــا حسين .. وجدها طالعة نازلة .. قال ساخراً :

1. القلمودة : غرفة السجلات في سراي الحاكم التركي .

– ما شاالله يا ابن خالي خطك زي سناسل الذهب .. بدي إياك تكتبلي حجـــاب للمحبـــة والقبول .. في هاليافاوية مكيعاني .. من يافا لروبين ما حكت معايـــا ولا كلمـــة .. ولا لوحتلي بطرف أصبعها .. بيضا وشعرها أشقر وعينيها زي صدر البحر .. رموشـــها بتدبح دبح .. أي إذا شِرْبِتْ بتشوف الميه من زورها ..

تنهد الديناري :

– وين بدها تروح مني ؟؟!!.. حملتها من باب دارها لروبين .. وبعد الموســـم .. رح أحملها من روبين لباب دارها .. وأسوق على أبوها كل الملل .. إســـلام .. يهـــود .. نصارى .. لغاية ما يتعب ويجوزهالي .. أنا وراها والزمان طويل .

انطلق الديناري يحدث حسين بكل ما جرى له منذ أودعه اسبيطار الفرنســـاوي وحسين ينصت له بشغف .. أخيراً تعب الديناري .. سكت برهة ثم سأله :

– وأنت .. ماذا جرى معك .. هل هناك أمل ؟

تبسم حسين ابتسامته الوادعة :

– يقول الحكيم أنني لو جئت إليه في الشهر الأول من إصابتي لعالجني في يوم واحـــد وأعادني إلى البيت مشياً على قدمي .. أما الآن وبعد عام مـــن الإصـــابة فـــإن العلاج سيأخذ وقتاً طويلاً .. ولن أعود إلى البيت على قدمي بل على عكاز أستند إليه .. يؤكد الحكيم أنني سأقف دون معونة أحد .. لكنني سأستند على العكاز حينما أخطو من مكان إلى آخر .

هتف الديناري :

– يا سيدي نص العمى ولا العمى كلو .

ودع الديناري ابن خاله .

– علي أن أحمل اليوم عائلة الحسن إلى روبين .. حين ينتهي الموسم سنبدأ فـــي نقـــل المصطافين ثانية إلى يافا .. خاطرك ..

لوح بيده ومضى .

شيعه حسين بنظراته حتى اختفى .. عاد ليمسك القلم من جديد ويقلد الحـــروف التي رسمتها له الممرضة .

حين وصل الديناري بعائلة الحسن إلى خيمتهم .. كان الزحام في روبين علـــى أشده ..الشباب تركوا حلقات الدبكة والرقص والغناء ..انتظموا في موكب مهيب يســـير من مقام النبي روبين إلى المخاضة .

عرف الديناري أن الحاج أمين الحسيني يترأس الموكب وأن الموسم كله تحـــول إلى مظاهرة للحفاوة بالمفتي .

تقدم الديناري على ظهر جمله ليشرف على المظاهرة .. الأهازيج تشق عنـــــان السماء .. الشباب يهتفون للمفتي ويقذفون طرابيشهم في الهواء فرحاً بوصوله .. المفتي يسير منتصب القامة .. وقوراً شامخاً بعمامته تحت خفق الرايـــات .. أمـــامه الســـيافة يتبارزون بالسيوف .. وصوت الجموع يرج المكان :

– سيف الدين الحاج أميـــن
شمسك طلعت يا فلســــطين

حاج أميـــن ارتـــاح ارتـــاح
الأقصــــى مســـيج بالأرواح

حـــاج أميـــــن لا تعبـــــس
بـــدك عســــكر بنلبـــــــس

الحــــاج أميــــن قالهـــــــا
القـــدس واحنـــــا رجالهــــا

(8)

فشل خليل في اللحاق بالقطـــار .. قرر المبيت في حيفا انتظاراً لقطـــار اليـــوم التالي .. توجه إلى المسجد .. وجد المكان على غير عادته يغص بـــاللاجئين .. قـــال خليل في سره : (لابد أنهم طردوا من أراضيهم في قرى الشمال .. لم يجـــدوا مـــأوى آخر) .. شق طريقه بين النساء والأطفال في الساحة الخارجية .. دخـــل المســـجد .. تخطى الصفوف حتى وصل إلى الحلقة التي تحيط بالشيخ .. ألقى التحية وجلس ينصت باهتمام .. كان الشيخ قد شارف على الانتهاء من الدرس .

تفرس فيه خليل عن قرب .. وجده رجلاً مربوعاً .. ممتلئ القامة .. عريـــض الأكتاف .. حنطي اللون له لحية مشذبة .. يرتدي جبة رمادية وشملة بيضاء ..

قال في سره : (الزلمة فوق الستين) .

جاءه صوت الشيخ قوياً معبراً مفعماً بالإيمان :

– وهكذا يا إخوان نرى أن قوله تعالى .. (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) .. إنما جاء في زمن مثل زماننا هذا .. امتحن الله به قلـــوب عبـــاده .. ومـــا أحوجنا الآن أن نعمل بهذا القول العظيم .. وأن نعد للصهاينة والمستعمرين مـــا أعـــده الرسول وأولي العزم من صحابته .. الذين شرفهم الله بدينه .. فانتصروا له وانتصروا به .. لقد شردهم كفار مكه واستولوا على بيوتهم وأموالهم وأملاكهم .. كمـــا شـــردكم اليهود من بيوتكم وقراكم وأراضيكم .. لم يستكينوا ولم يضعفوا .. فصدقهم الله وعده .. قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمـــة ونجعلهـــم الوارثين) صدق الله العظيم ..

يا أهل حيفا .. يا كل المسلمين في فلسطين .. أين نخوتكم .. أين إيمانكم .. أين عروبتكم .. إن الصليبية الغربية والصهيونية اليهودية تريد ذبحكـــم والاســـتيلاء علـــى بلادكم .. كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكا ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا ديس شبر من أرض المسلمين فعلى المـــرأة أن تخرج للجهاد بغير إذن زوجها .. وعلى الشاب أن يخرج بغير إذن أبيه) .. فرض الله علينا الجهاد .. ليحمينا به .. يحمي أرضنا وعرضنا قال تعالى : (قـــاتلوا الـــذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) .

وقف أحد المصلين وسأل :

– بماذا نقاتلهم وليس معنا سلاح .. ولا نملك مالاً لشرائه ؟

أجابه الشيخ :

– بقتلهم وأخذ السلاح منهم .. ضموا صفوفكم وليحدث كل منكم شقيقه أو جاره أو صديقه لكي تنتشر دعوة الجهاد حتى تعم البلاد كلها .. إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

رأى خليل الدموع تلمع في عيني الكثيرين .

رفع الإمام يديه وبدأ في قراءة خافتة .. ثم مسح براحتيه على وجهه :

نهض الشيخ وانصرف إلى خلوته .. تاركاً أحد أعوانه يدور على المصلين بصندوق صغير يجمع فيه التبرعات .. قرأ خليل على الصندوق كلمة واحدة .. الجهاد

لاحظ أنهم يدسون في الصندوق دراهمهم القليلة .. بعضهم كان يدس خاتماً صغيراً أو قرطاً جادت به زوجته .

تبع خليل الشيخ حتى استوقفه على باب الخلوه :

– يا مولانا .. أنا خليل وهبه من غزة .. كنت ضابطاً في جيش الشريف .. وإنني أضع نفسي تحت تصرفك .

تأمله الشيخ برهة وقال :

– يا بني إن الإنسان على نفسه بصير .. لعلك سمعت الدرس في هذا اليوم .. إن علينا أن نصدع بما أمرنا الله به .. أن نعد لهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل .

ضحك خليل :

– ليس عندي شئ من رباط الخيل .. عندي بندقية ألمانية عدت بها من الحرب وأحرزتها في حرز أمين .. أنا والبندقية رهن إشارتك .

وضع الشيخ يديه على كتفي خليل وضغط عليها برفق :

– البندقية تساوي الآن مائتي جنيه .. ما أظن في ذلك الصندوق الذي رأيته نصف هذا المبلغ .

– لقد نذرت أن أبيع هذه البندقية لمن اشترى من الذين آمنوا أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة .

هتف القسام والدموع في عينيه :

– ربح البيع يا أبا يحي .. ربح البيع [1] .

تعانقا كأخوين .. ثم دلفا إلى غرفة الشيخ ليتابعا الحديث .

1. الإشارة إلى حديث النبي (صلعم) لصهيب الرومي بعد أن اشترى من كفار قريش حريته في الهجرة إلى المدينة بكل ما يملكه في مكة .

(9)

قال له الحكيم الفرنسي الأشيب وهو يجمع أدواته في حقيبته الجلدية السوداء :
– تستطيع أن تغادر المستشفى غداً .. لقد عملنا لك كل ما بوسعنا .. أنقذنا منك ما نستطيع انقاذه .. الطب في زماننا هذا لا يمكنه أن يقدم لك أكثر من ذلك وما حققناه ليس بالقليل .. عاد الدم للتدفق في الشرايين وإن كانت دورته بطيئة .. تستطيع الوقوف دون مساعدة أحد .. تستطيع المشي مستعيناً بالعكاز في يدك السليمة .. أحضرت لك معي هذا العكاز هدية .. بقليل من التمرين تستطيع الركوب على الدابة والنزول عنها دون أن يساعدك أحد .. تطوير قدراتك منذ الآن أمر مرهون بإرادتك .. مسز أليس معلمتك أخبرتني أنك تعلمت من أحد المرضى شغل الصنارة .. اشتغلت الكثير من اللفحات والطواقي .. باعتها لحسابك لزوار المستشفى وللمرضى في العنابر المختلفة ادخرت لك ثمنها .. هذا جيد .. لابد للإنسان من صنعة يكسب بها عيشه .. الأهم من ذلك ما نقلته إلي .. تعلمك القراءة والكتابة في زمن قياسي .. وأنك قرأت لزملائك المرضى في العنبر قصص ألف ليلة وليلة والزير سالم وتغريبة بني هلال .. بداية رائعة لكن علي تنبيهك إلى أن القراءة لا يجب أن تكون للتسلية وقتل الوقت فقط .. هناك نوع آخر من القراءة هو القراءة الجادة التي هدفها إثراء المرء .. أعني القراءة المعرفية التي تعنى بمعرفة الذات ومعرفة المحيط الذي تعيش فيه وتتأثر به .. لا أريد الدخول في التفاصيل عليك أن تبحث عن الطريق وحدك .

فاجأه حسين بلهفة :
– أين أبحث عن الطريق ؟؟!!.. وضعت يدي على كتفك منذ حللت هذا السرير .. وإنني مدين لك بما أنا عليه الآن وأطمع أن تزيدني .

ضحك الحكيم الأشيب .. خلع المنوكل عن عينه وتشاغل بمسحه بمنديله الأبيض النظيف :

– ستجد طريقك وحدك .. استعن بالصحف والمجلات والكتب التي تعنى بالثقافة .. سيشحذ ذلك همتك .. سوف تكتشف شيئاً فشيئاً ما في داخلك من مكامن القدرة والطاقات الخفية التي تجعل من السهل على الإنسان أن يتحدى إعاقته .. تحوله من أنبوب للهضم إلى مخلوق خرافي قادر على صنع المعجزات .

إن كل ما وعته البشرية .. وما كسبته من المعارف موجود في بطون الكتب .. ليس من سبيل إلى إدراك ذلك الكنز إلا بالقراءة الواعية .. القراءة الواعية تُحِدُ البصيرة وترفع الحجب عن العقل .

نهض الحكيم .. حمل حقيبته بيد وربت بالأخرى على كتف حسين .

أدرك حسين أنها المرة الأخيرة .. ودعه بغمغة لا تكاد تبين .. انحبست الكلمات في حلقه وأشرق وجهه بالعبرات .

جاءت مسز أَليس بحقيبة بها بعض الثياب اشترتها له من السوق .. ألبسته بعضها وحين اطمأنت إلى أناقته .. احتضنته وقبلته من جبينه كما لو كان حفيدها .. أوصلته بالحقيبة إلى الباب الخارجي .. وضعت في يده ما ادخرته له طوال إقامته في المستشفى .

كان باب دار حسن مفتوحاً .. أدخل الحوذي حقيبته .. أما هو فقد استند بظهره إلى الجدار .. ودق بعصاه على الباب من الداخل .. حين تباطأوا في الرد عليه .. نادى بصوته الجهير :

- يا أهل الدار .

خرج الديناري لاستقبال القادم .. وما لبث أن لحقه مدحت وفايق ..

فوجئوا بشاب بهي الطلعة .. نحيف .. مربوع القامة .. طر الشارب .. حليق الذقن .. يرتدي القمباز الروزة والساكو .. على رأسه طربوش أنيق وفي قدميه بلغة بيضاء .. يستند إلى عصاً معقوفة مما يتقلده الوجهاء في المدينة .. لم يخطر ببال أحدهم أن هذا هو السطيح الذي تركوه لمصيره في اسبيطار الفرنساوي منذ أكثر من عام .. لم يتركهم في حيرتهم طويلاً .

- أنا حسين .

استند إلى عكازه ونقل خطاه نحوهم .. كانت خطواته بطيئة ولكنها ثابته .. حين ذهب روعهم .. أحضروا له كرسياً فجلس والتفوا حوله .

أجاب عن أسئلتهم باقتضاب ودون جفوة أو تحامل .. ثم اتجه بكلامه إلى الديناري :

- أحضرتني من غزة .. أنا في عربة المسافرين وأنت على سطح القطار .. عليك أن تعيدني الآن .. سأجلسك إلى جواري هذه المرة وسأدفع لك ثمن تذكرتك .

علق الديناري وهو ساهم مكتئب على غير عادته :

- لن أعود معك إلى غزة .. إلا إذا وعدتني بالتوسط مع زوج عمتك أبو التوفيق .. بعد أن فشل جميع الوسطاء في حمله على الموافقة على زواجي بالبنت اليافاوية التي أحببتها .. هؤلاء (وأشار إلى الجالسين) .. تخلوا عني .. ولم يذهبوا لخطبتها مشترطين

موافقة والدي الذي ركب رأسه وأعلن على الملأ : (إذا عملها محمد لا هوه إبنـــي ولا بعرفو .. متبري منو ليوم القيامة .. بدو يجيبلي العار في آخر زماناتي .. الفاســـق .. الضلالي .. بدو يتجوز وافاوية من بنات التاترو) .

قال حسن بنبرة جادة :

– أبو التوفيق لم يدخل يافا في حياته .. ويعتقد أن جميع بناتها يعملن في بيوت الهـــوى والمراسح .. الله يسامحوا ويعينا عليه .

قاطعه فايق وقد طغى عليه السكر :

– بنات يافا أشرف من الشرف .. وأقل واحدة فيهم طيزها بتضوي على كل أهل غزة .

وخزه حسن بنظرة مؤنبة :

– الله يقص لسانك .. لا منك ولا كفاية شرك .

وعد حسين الديناري خيراً .

حين هموا بالإنصـــراف .. أقسم حسن بالطـــلاق أن شقيقه حسين عزيز علـــى قلبه .. وأنه لن يدعه يرحل قبل أن يقوم بواجبه .. ذهب إلى السوق واشـــترى خروفـــاً ذبحه وأعد وليمة للوهايبة احتفالاً بسلامة أخيه .

رفض الدوش أن يمد يده إلى الزاد قبل أن يُخلِّف عليه[1] حسن فيقوم هو الآخر بواجبه تجاه ابن عمه .. ثم توجه بالكلام إلى حسين :

– رأيت يافا .. والآن جاء دور سلمه .. تزورنا في سَلَمهْ لترى ابنـــة عمتـــك عزيـــزة وأولادها .. ونقيم سهرة تتعرف فيها على جيراننا وأصدقائنا .

1. يُخلِّف عليه : عادة الفلسطينين أن المضيف له الحق في تحديد المضيف التالي للضيف نفسه .

همس فايق في أذن مدحت وهبه :

– ما شاء الله على هيك جيـــران .. البويجـــي .. والزبال .. والشحات .. إشي برفـــع الراس .. يعني زي أصحابك اللي بتقعد معاهم عالبار في شارع هرتزل .

خلَّف حسن على الدوش .. مد الدوش يده إلى الطعام ومدوا أيديهم معه .

تلذذ الوهايبة بأصناف الطعام التي أعدتها نوارة من لحم الخروف الـــذي جلـــل الصواني .

بعد الوليمة أزاح حسن الستار عن صندوق مهيب .. استقر على طاولـــة فـــي زاوية الغرفة .. أدار مفاتيحه .. كانت هـــذه المرة الأولى التي يـــرى فيهـــا حســـين الراديو .. انبهر أكثر حين جاءه صوت المذيع :

– هنا محطة يافا للإذاعة العربية .. نقدم لكم ما تيسر من آيات الذكر الحكيـــم يتلوهـــا علينا فضيلة المقرئ الشيخ (محمد فريد السنديوني) .

شخر فايق :

– فريد السنديوني .. عليَّ الطلاق شارب معاه بطحتين عرق الجمعه إللي فاتت .

تشككوا في روايته .. فقدم براهينه :

– حضرنا مباراة البُكس بين الدسوقي بطل يافا والزيناتي بطل طرطوس .. الدســـوقي خلع الزيناتي بُكْس في الجولة الخامسه سلبطوا على الأرض .. عد الحكم للعشرة وأعلن فوز الدسوقي .. قضينا بقية الليل نحتفل عند الجيفيرِت[1] إللي في شـــارع هرتســـل .. سلخ كل واحد منا بطحتين عرق .

قطب حسن حاجبيه :

– تمك زي مقص السكافي .. ما بفتح إلا على نجاسة .

رزق أبت عليه طيبة قلبه إلا أن يصحح الواقعه :

– أكيد إسم على إسم .

واصلوا الإستماع للإذاعة مبهورين .

❋ ❋ ❋

1. الجيفيرت : كلمة باللغة العبرية تعني السيدة .

تعرف حسين على جيران ابن عمه الدوش .. الغضب عتال في مينـــاء يافـــا .. العبد البويجي .. صاحب صندوق دهن للأحذية على باب سينما الحمراء .. يونس الدسه

حمَّار (مكاري) بين يافا وسلمه .. الشيخ سليمان .. خليفة دراويش الرفاعية .. وزوجته بدرية فتاحة .. ومخاوية الجن .

جلست النساء بثياب محتشمة في مجلس الرجال .. كل إمرأة وراء زوجها إلا عزيزة .. تصدرت المجلس إلى جوار الدوش وليس خلفه مثل باقي النساء ..

تأملها حسين مشدوهاً وهي تحاور الرجال نداً لند .. دون أن تتكلف أمامهم حياءاً ولا خجلاً .. أذهلته تماماً حين قطعت حديثها ومدت يدها في جيب معطفها مخرجة علبة فضية .. نقرت عليها بأصابعها ..

أخرجت دفتر الأتومان ..نفخت فيه .. استخرجت منه ورقة وضعتها بين أصبعيها السبابة والإبهام .. ملأتها بالتبغ .. أحكمت لفها .. مدت لسانها ولعقت طرف الورقة .. ملست عليها بأصابعها ووضعتها بين شفتيها .

جارها الإسي أخرج ولاعته وقدحها ثلاث مرات حتى اشتعلت فتيلتها .. مدها لعزيزة .. اشعلت عزيزة سيجارتها وربتت على يده :

- يكفيك شرها .

- ولا تقاسي حرها .

أطفأ الولاعة ووضعها في جيبه .. حسين الذي لم تنل منه يافا بعد .. والذي مازال أسيراً لتربيته الغزاوية الصارمة .. ابتلع ريقه غير مصدق .. ثم همس لنفسه :

- عزيزة فجرت .. وجوزها دلخ .. ولو شافها أبو التوفيق راح يحلل دمها .

مجت عزيزة أول نفس من سيجارتها .. نفثت دخانها في الهواء .. باغتتها السعلة فأفسدت عليها كيفها .. غمغمت وهي تغالب السعال :

- الله يحرق سجرتو .

أشعل الغضب سيجارة وقال لعزيزة متسائلاً :

- يحرق سجرتو ؟؟!! والله ما بنقدر نعيش من غيرو يوم واحد .. أي الراس إللي ما فيه كيف قطعوا أولى .

أجاب حسين على أسئلتهم .. جاذبهم أحاديث السياسة .. تبادل معهم القصص والنوادر .. انبهروا به .. لم يعجب ذلك ابن عمه الدوش .. هذه (سلمه) ساحته وملعبه وهؤلاء الجيران .. عترته والملتفون برايته .. لا يجوز أن يشركوا به أحداً .. حتى لو كان من أرومته وأهله المقربين .

تتنحنح الدوش محدثاً جلبة لفتت أنظار الحاضرين .. وحين تأكـــد مـــن حســـن استماعهم .. بدأ حديثه المفضل عن أخبار قاطعي الطريق اللـــذين تطاردهمـــا شـــرطة الإنجليز :

– أبوجلده والعرميط .. ربطوا الطرق تربيط .. بريطانيا العظمـــى كعيـــت معـــاهم .. الإنجليز جابوا فرقة برشوت ونزلوها في مطار اللد .. الفرقة طلعت كلها بنات .

وصل الخبر لأبو جلده .. بعت برقية للملك جورج السادس يقوللـــو (مـــن أول ســـنه حاربتك .. لبست البنات عسكر .. إيش بدك تعمل ثاني سنه وثالث سنه) .

تهلل وجه الغضب العتال :

– سلم تمك يا أبو عبدالله .

علق العبد البويجي منبهراً بالقصة :

– يا عمي أبو عبدالله .. بجيب الأخبار من مصادرها .

أكد يونس الدسه رأيهم في الدوش :

– في السياسة إبراهيم نابو أزرق .

لم يعلق حسين بكلمة .. تركهم يلتفون من جديد حول بطلهـــم .. اســـتمع إلـــى تعليقاتهم بروح رياضية ..

أخيراً وصلوا في سهرتهم إلى الغناء .. أخرج الدوش ربابته من جرابها وشـــد وترها وقوسها وأدناها قليلاً من النار حتى تحن وتـــرن .. حـــز عليهـــا حـــتى تهلـــل الحاضرون.. يونس الدسة استخفه الطرب .. أطلق مواويله يلهب بها حماس الحاضرين

عاتبني يا مرج ابن عامر عاتبني

صلايب فيـــك مـــن قمحي وتبني

أنا روحـــي فـــداك وروح إبنـــي

وعلى الدوشـــمان مـــردود النخا

أطلقت النساء الزغاريد وحين بلغت السهرة مداها .. استأذن الحاضـــرون وانصـــرفوا تباعاً .

قالت عزيزة لابنتها خديجة التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها وهمـــا يضـــعان قدور القاورما على النار استعداداً ليوم العمل القادم :

– أبوكي الله يرحمو قرأ فاتحتك على حسين يوم ميلادك .. كان الحاج أحمد والده قـــد جاء ليهنئ بسلامتي وجاء معه حسين .. صبي جميل وعاقل .. أحبه أبوكي كثيراً وقال للحاج أحمد :

– خديجة لحسين .. عطية أب لا ترد .. بسط الحاج أحمد كفيه وقرآ الفاتحة .. الزيـــن ما بكمل .. وقع حسين في المرض والعيا .. ما أظن واحدة ترضى تتجوزوا ولو كانت مقطوعة من شجرة .

تأثرت خديجة بما سمعته من أمها حتى أن وجهها أشرق بالـدمع .. لـم ترفـع عينيها عن الضيف طوال الوقت .. سابقت إخوتها وأخواتها في تلبية ما يطلبه .. أما هو فقد كان يسترق النظر إليها كلما تصادف وقوفها أمامه ..

المفاجأة التي أعدتها له فتاته الصغيرة لم تخطر له على بال .. تسللت خديجة في الصباح الباكر إلى البيارة المواجهة للبيت .. ملأت حجرها زهور برتقال .. عادت إلى البيت .. أيقظت الضيف من نومه .. جلس في فراشه .. أفرغت في حضنه الزهور .. انطلقت تعدو حتى غابت عن عينيه .. تاركةً فراشه وغرفته كلها تعبق بالأريج .

قضى حسين ليلته الأولى في ضيافة ابن عمه الدوش .. وفي الصباح كان على موعـد مع قدره ومصيره .

(10)

لم تكن أمه قد عادت من رحلتها اليومية وراء خبز اليتامى .. كان من الممكن أن يظل سرها خافياً على حسين العائد لتوه من يافا .. لولا زلة لسان عمته الثرثارة ..

وقف على باب الصيرة .. كانت عمته آمنة مشغولة بتنظيف طبق الفول المجروش مما علق به من الحصى والقشور .. تخيلت أن زوجة أخيها عادت مبكرة على غير عادتها .. بادرتها بالسؤال دون التفات :

– سمحولك النصارى تروحي بدري اليوم .. كل يوم بشغلوك لما المغرب يقول الله أكبر .. كيف كان يومك .. غسيل ونشير .. ولا طحن قمح وغربله ؟

بادرها حسين بالسؤال وهو ما زال متسمراً في مكانه :

– أمي بتشتغل خدامة عند النصارى .. وين اخوتها إللي الواحد منهم دقنوا بتشد منخل ؟

صعقت آمنه وسقطت من يدها صينية الفول المجروش .. دخل حسين الصيرة مستنداً على عصاه .. وقف أمامها تماماً .. نحى عصاه جانباً وجلس على الحصير .. تأملته آمنة غير مصدقة .. حين ذهب روعها هجمت عليه تحتضنه وتقبله .. سقط طربوشه عن رأسه .. تناولت آمنة الطربوش .. مسحته بكمها وثبتته على رأسه وهي تغمغم :

– لايق عليك الطربوش .. اسم الله حولك يا ابن أخويه .. زي البيك .. حوطك بالله ومحمد رسول الله .

حدثته آمنه بما جرى طيلة غيابه .. كيف تقاسمت العبء مع أمه .. انشغلت هي بخدمة أولادها وأولاد أخيها اليتامى .. وانشغلت أمه بتدبير معاشهم .. لم تخدم أمه في بيوت المسلمين حتى لا يصل الخبر إلى اخوتها فيمنعونها أنفة وكبرياء .. دون أن يقدموا لها ما يحفظ أودها وأود أبنائها لضيق ذات اليد أو لشح الأنفس .. اختارت تلك المرأة الصلبة أن تخدم في بيوت النصارى التي لا يدخلها أحد من المسلمين فيكشف سرها .. تجنب إخوتها العار وتكسب معاش أولادها .. لم ينطق حسين ببنت شفه .. تشاغل بتفقد الكروم حول الصيرة وملاحظة ما طرأ على أشجاره من تغيير

في صباح اليوم التالي استيقظ مبكراً وقال لأمه :

– لن تخدمي عند أحد بعد اليوم .. أنا رجل البيت وعلي منذ الساعة أن أتدبر أمري وأمركم .

أخرج من جيبه النقود التي ادخرتها له معلمته وناولها لأمه :

- اشتري بهذه النقود طعاماً لعشرة أيام .. وصوفاً وكرداشاً ومغزلين .. ستغزلين أنت وعمتي خيوط الصوف وسوف أشتغلها طواقي تبيعينها في السوق .. ننفق من ثمنها ما نحتاج إليه وندخر ما يتبقى .

لم تكن مقتنعة .. قررت أن تسايره .. عرجت على حارة النصارى وأخبرت أم حنا وباقي مخدميها أن أولادها أصيبوا بالحصبة وأنها مضطرة للتغيب عن العمل عشرة أيام على الأقل ..

نفذت ما طلبه منها .. اشترت له كمية من الصوف قدرت أنها ستكفيه عاماً بطوله .. أعملت هي وآمنة مغزليهما في الصوف .. تحول إلى كرات من الخيوط .. استلمها حسين وبدأ العمل .. يمسك طرف الخيط بأصابع يده السليمه ويطبق على الصنارة بيده الشلاء .. صنارة واحدة من الخشب صنعها بسكين عادية .. مرت سحابة النهار .. استولت عليهما الدهشة .. قالت آمنة وهي تصلي على النبي وتزيده صلاة :

- سبع طواقي في اليوم .. وكل طاقية بشلن .. مجموع ما كنت تحصلينه من الخدمة في بيوت النصارى في أربعة أشهر .

لم يكن شغل الطواقي طوال اليوم يمنع حسين من الحديث إليهم ..عن رحلته إلى يافا وعن حياته في المستشفى .. عن أطبائه وزملائه النزلاء الذين كسبهم دائماً بسهولة .. لما يتمتع به من بشاشة الوجه وطلاوة الحديث .. أكثر الخصال التي عاد بها من يافا قيمة وتأثيراً في مسار حياته كانت القراءة .. قسم الوقت مناصفة بينها وبين شغل الطواقي .

عقد حسين أواصر صداقة قوية مع أمين مكتبة الأوقاف في المسجد العمري الكبير .. وما أن انقضى عام على صداقتهما حتى كان حسين قد أتى على معظم ما حوته المكتبة .

قال له أمين المكتبة مازحاً :

- أنت فأر مكتبة وأسنانك أمضى من أسنان القوارض .. أراك قد فتكت بكل كتبنا دون تمييز .. الفقه والنحو والعلوم والتاريخ والشعر والأدب .

يستغرقك ابن خلدون ثم يستهويك بعده الجاحظ إلى أن يستخفك الأصفهاني .. أتراك تستمتع بما تقرأ .. أم أنك حاطب ليل ..

فكر حسين في مقالة صديقه دون أن يحير جواباً .

(11)

ما أن استقر الحاج أمين في مكتبه بالمسجد الأقصى .. بعد أداء فريضة الجمعة حتى رآه واقفاً أمامه كأنما انشق عنه الجدار.. رجل في ثياب البدو الرثة .. يحكم لـف الكوفية العتيقة على وجهه .

– هل أستطيع الجلوس ؟

تناول كرسياً وأدناه من المكتب وجلس .. كان الحاج أمين مازال أسير المفاجأة .. لم يتوقع أبداً لقاءاً كهذا .. كثيرون هم الرسل الذين سعوا بينه وبين عز الدين القسام .. بعضهم مكلف وبعضهم متطوع .. ولكن العلاقة بينهما ظلت تراوح مكانها .

حسر القسام اللثام عن وجهه .. ألقى بطرفي كوفيته وراء ظهره .. فبدى شاربه ولحيته وقد وخطهما الشيب .. جاء صوته معاتباً ومؤنباً :

– أما زلت متعلقاً بالحبال البالية .. مفترضاً حسن النية في حكومة بريطانيا العظمى .. مكرساً وقتك في البحث عن الحجج والأسانيد التي تثبت ما أوقعه وعد بلفور على فلسطين وشعبها من الظلم والإجحاف .. متجولاً بين حواضر الدنيا .. تدبج الخطب الرنانة .. وتنشر المقالات الدامغة .. عن مأساة شعبك .. أما يكفي ما أهدرته من الوقت والحبر ..

– أنا صاحب قضية عادلة .

– الدول الكبرى يا مولانا لا يهمها مبادئ الحق والعدل والحرية .. تهمها مصالحها فقط

– أعلم ذلك .. وأنا على يقين من أن مصالح بريطانيا في البلاد العربية والإسلامية ستجبرها على الوقوف في صفنا آخر الأمر .. لقد اخترت النضال السياسي .. ولا عيب في ذلك .. هذا هو الطريق الذي سار فيه غاندي وسعد زغلول والكثيرون .. أما عن رحلاتي بين الحواضر العربية والإسلامية فهي ضرورية لتوعية أشقائنا بالخطر الذي يحيط بنا .. طلباً لنصرتهم وتأييدهم .. محاولين استغلال صداقتهم للإنجليز ونفوذهم لدى الحكومات البريطانية لترجيح كفتنا على كفة أعدائنا .

– أنت تسوط جياداً ميته .. هؤلاء العرب والمسلمون الذين ترجو نصرتهم .. لن ينفعوك بشيء .. إن لهم قضاياهم وهم بحاجة لمن يشفع لهم .. في لندن كل شاة معلقة من عرقوبها .. وعز من قال (لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه) .

الإنجليــز هم أعداؤنا وعلينا أن نقاتلهم كما علينا أن نقاتل اليهود .. بعضـــهم لبعــض ظهير .

تأفف الحاج أمين :

– لقد صنع الإنجليز كل ما تراه في بلادنا من الدول والممالــك والعــروش وأنصــاف العروش .. وليس لنا إلا ما نستطيع استخلاصه منهم بالحيلة والدهاء واقتناص الفرص .

– أنت تبالغ في قوة الخصم .. لكي تبرر لنفسك ما أنت فيه من التخاذل .

– وأنت تستهين بقــوة الخصم .. لكي تبرر لنفسك استعجال الصدام معه والوقوع في المهالك .. لديك بندقية واحدة تؤرق ليلك وتضني نهارك .. أنــت وأتباعــك تتنــاوبون بالتمرن عليها وتسمون ذلك جهاداً .

ضحك عز الدين القسام لأول مرة .. وقال مداعباً :

– حتى هذه وصلتك ولم تغفل عنها .. لك عيون وآذان في كل مكان ..

رانت فترة صمت قبل أن يتابع الحاج أمين :

– إن الوقت لم يحن بعد للصدام مع الإنجليز .. الجهود السياسية الــتي نبــذلها تكفــي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم .. والسياسة تقتضي أن لا نجاهر الإنجليز بالعداء حتى لا نجعل منهم الخصم والحكم .

– الوقت هو أثمن ما يكسبونه وأثمن ما تخسره .. عندما دخل الإنجليز فلسطين لم يكن عدد اليهود يتجاوز الأربعين ألفاً .. في هذا العام فقط بلغ عدد المهاجرين اليهود ســتين ألفاً حسب الإحصائيات الرسمية .. وربما دخلها مثلهم سراً .. إنه طوفان لا يبقــي ولا يذر .. الإنجليز يعطون اليهود الأرض والسلاح والمال والقوانين .. فما الذي أعطوه لك غير السراب .

– الإنجليز شر لابد منه وإن حالي معهم يصدق فيه قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بُد

– كل ذلك لأنهم منحوك حق التصرف في أموال الوقف الإسلامي .. رشــوة .. لكــي تكبح جماح المظاهرات العربية التي تندلع ضد السياسة البريطانية .. سوف يواصــلون شراء ذمتك المرة بعد المرة .. لكنها أولاً وأخيراً ليست أموالهم بل هي أموال المسلمين وأنت مشغول بالكيد لآل النشاشيبي وقطع الطريق أمامهم للحصول على ثقة الإنجليز.. أسقطت راغب النشاشيبي في انتخابات بلدية القدس .. عمد إلى تشكيل أول حزب فــي فلسطين .. حزب الدفاع الوطني فانبريت لتشكيل الحزب العربي الفلسطيني .. أجلست

على رأسه ابن عمك جمال الحسيني .. كرت مسبحة الأحزاب بعد ذلك .. أخشـــى ألا ينتهي هذا العام .. إلا وقد صار عدد الأحزاب أكثر من عدد الوجهاء في فلســـطين .. سوف تتسابق هذه الأحزاب في إرضاء المستعمر .. للحصول على المكاســب الوقتيــة الرخيصة .. والتنافس فيما بينها ضاربين عرض الحائط بقوله تعـــالى " ولا تتخـــذوا عدوي وعدوكم أولياء " .

مد يده ووضعها فوق يد الحاج أمين .. وسأل :

– لماذا تمنع مال الأوقــاف عن المجاهدين وتصرفها حيثما اتفق ؟

سحب الحاج أمين يده محتداً .. لوح بها في الهواء وقد نفذ صبره :

– عمارة المسجد الأقصى ليست حيثما اتفق .

– المساجد تستطيع الانتظار أعواماً طويلة .. ولكن فلسطين التي يقضمون منها كل يوم قضمة لا تستطيع الانتظار .. لعل أبو عبد الله الصغير آخر ملــوك الأنــدلس .. كــان مشغولاً بإعادة إعمار مسجد غرناطه الكبير حين دهمته خيول الفرنجة .

وقف الحاج أمين وارتفع صوته لأول مرة منذ بدء اللقاء :

– أين تظن نفسك .. في مسجد الاستقلال في حيفا وحولك العوام الذين ينبهــرون بمــا أوتيت من البلاغة .. وذرابة اللسان ..

أنت لا ترى من الصورة ما أراه .. ليست لديك المعلومات التي لدي .. آرمسبي غور أكد لي .

قاطعه عز الدين محتداً :

– آرمسبي غور .. آرمسبي غور .. ما هو إلا محتال آخر من آلاف المحتالين الـــذين يخدمون إمبراطورية الإنجليز .. يستخدمون المكر والدهاء .. كلما أمكن للمكر والدهاء أن يحل محل المدافع .. تحريك الألسنة أقل كلفة على الإنجليز من تحريــك الأســاطيل والجيوش .

اسمع يا مفتي القدس الأكبر .. يقول الله في محكم كتابه : (لن ترضـــى عنــك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم) صدق الله العظيم ..

جلس الحاج أمين في مقعده واضعاً رأسه بين كفيه .

تناول القسام كوب ماء عن الطاولة وارتشف منه ثم نحاه جانباً .. حـــدق فـــي الحاج أمين .. أحس أمين أن عيني القسام تتجاوزه كأنما ترود عالماً بعيداً .. تستشـــف أفقاً ملبداً بالسواد .. رانت فترة صمت .. قال الحاج أمين :

– لا أعتقد أن الإنجليز سيخذلوننا في آخر المطاف .

– لن يخذلوك أبداً .. سوف يمنحونك حق اللجوء في إحدى مستعمراتهم .. وتقضي بقية حياتك شريداً طريداً كما حدث لشريف مكة .

احتد الحاج أمين :

– عينتك إماماً لمسجد الاستقلال في حيفا .. ثم مأذوناً شرعياً في القضاء حسب طلبك .. جبت المدن والقرى مبشراً بالثورة .. داعياً الناس إلى الجهاد .. سكتنا عن كل ذلك .. التمسنا لك الأعذار .. ها أنت تدعي التنجيم وقراءة الطالع ؟

مد كفه إلى القسام ساخراً :

– اقرأ كفي .. لعلك تراجع نفسك في بعض ما تنبأت به .

– اسمع يا أمين .. لست بحاجة إلى قراءة كفك أو طالعك .. يكفي أن نقرأ التاريخ .. ضع يدك هذه في يدي ..

تناول يد الحاج أمين وضغط عليها بقوة :

– ما الذي يريبك مني ؟؟ .. أنا كهل في الستين من عمره .. وضعت نفسي في خدمة أمتي وملتي .. لا عزوة لي في هذه الديار ولا أهل ولا سند .. لا أطمع في أي غرض من أغراض الدنيا .. لا أريد أن أكون ملكاً أو رئيساً .. أقسم أن هدفي الوحيد أن أنال إحدى الحسنيين .. فإن كانت الشهادة رجعت إلى ربي راضياً مرضياً .. وإن كان النصر سأحمل عصاي على كاهلي وأرحل إلى بلد آخر من بلاد الإسلام أصابه عنت المستعمرين وطغيانهم .. أتابع ما بدأته في الشام من الجهاد ضد الفرنسيين .. حتى يكرمني الله بالشهادة .. لنتفق الآن ونقسم على كتاب الله .. نعلنها على الإنجليز والصهاينة حرباً لا تبقي ولا تذر .. أنت تمهد للثورة في جنوب فلسطين مثلما مهدت لها أنا في شمال فلسطين .. عندها تصير البندقية بنادق لا تحصى .. ويصير لنا جيوش مدربة في كل مدينة وقرية مثلما صار لليهود جيوش مدربة في كل مدينة ومستوطنة .

– وإذا لم أفعل ؟

– سأعتصم بجبل من جبال فلسطين .. أعلن فيه الثورة .. سوف يلتحق بي الكثيرون ممن لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. ولينصرن الله من ينصره .

– ببندقية واحدة تعلن الثورة ؟

– أعلنها بالإيمان في صدور الرجال وبالعزم في السواعد .. هذه البندقية هي أول الغيث .

نهض الحاج أمين واقفاً فنهض الضيف .. أعاد إحكام اللثام بطرفي كوفيته وقال مودعاً :

– لنفترق كصديقين .. أنا واثق أنك ستدرك حقائق الأمور يوماً مـا .. ستبقى يـدي مفتوحة بانتظار يدك .

انطلق الرجل الستيني بهمة تعز على الكثيرين في سنه .. خُيل للحاج أمين أنـه يتواثب إلى الخارج ولا يمشي على قدميه .

لاحظ الحاج أمين بروز شبحين من وراء مصراعي الباب في ثياب البدو .. قدر أنهما مرافقان لعز الدين .

قال في نفسه :

– لابد أنهما منعا أحداً من الدخول إلى الغرفة أثناء اللقاء .

تبع الرجلان شيخهما مثل ظله .. حين وصلا إلى الطريق زمجر نمر السعدي :

– نحن نجود بأرواحنا والحاج أمين يبخل بالمال .. كنت أعلم أنها رحلة خاسرة .

أجابه عز الدين :

– بل رابحة إن شاء الله .. ألم نؤد صلاة الجمعة في ثالث الحرمين وأولى القبلـتين .. حيث الصلاة بألف صلاة .

ثم التفت إلى خليل :

– سأعود أنا والشيخ نمر إلى حيفا .. أما أنت فعليك أن تواصل طريقك إلى غزة بالمال القليل الذي جمعناه لك من المصلين في مسجد الاستقلال .. اشترِ لنا البنادق والـذخيرة من مظانها في غزة وبئر السبع وبادية النقب .. احرص على أن تكون البنـادق جيـدة والذخائر صالحة للاستخدام .. اجعل الكتمان ديدنك ولتتلطف ولا تشعرن بنا أحدا .

قال الشيخ نمر السعدي :

– إذا كنت في حاجة مرسلاً .. فأرسل لبيباً ولا توصه ..

قاطعه القسام مداعباً .. أظن الشاعر قال :

– أرسل خليلاً ولا توصه .

ضحك الثلاثة .. عانقهما خليل وانصرف عائداً إلى غزة .

(12)

تلبدت سماء غزة بالغيوم .. دومت في شوارعها ريـــاح أيلـــول تحمـــل أوراق الشجر والأوشاب .. وتلوي أذيال المارة ..

نظر أبو التوفيق إلى السماء .. قرأ نذر المطر الوشيك وغمغم :

– باينها ناوية على مطرة الصليب ..

أرسل صبيه جلهوم في طلب سعيد غباين .. من محجار الشعف .. ليعيد نقش حجر البد استعداداً للموسم الجديد .. تفقد الجمل المعصوب العينين داخل المدار الضيق .. ضاعف له العليقة وانتخاه :

– طول الصيف وإنت نايم .. أكل ومرعى وقلة صنعة .. إجا وقتك يا جمل المحامل .. الزتون السنة طيس .. ومقرطس على الشجر تقرطس .. وإن شاالله سنة خير وبركة ..

ربت على ساق الجمل الذي يغب عليقته دون مبالاة .

– مشوارنا طويل .. إنت بتلف على طاحونة البد .. وأنا بلف على طاحونة الهـــدار .. ويا عالم مين يصل فينا آخر الطريق قبل رفيقو .

تناول جرة زيت ملأها من الخابية :

– عليّ التخلص من زيت العام الماضي وإعداد الخوابي للموسم الجديد .

حين استغرق سعيد غباين في نقش حجر البد .. قال له أبو التوفيق :

– خود بالك يا سعيد من البد لغاية ما أرجع من هالمشوار .

أمر صبيه بحمل جرة الزيت ومضى بها إلى بيت حسين .. على باب الصيرة .. تنحنح يطلب الإذن بالدخول .. لم يكن من عادته زيارة حسين وعـــائلته .. ولا حمـــل الهدايا لهم ..

كان حسين مشغولاً بالعمال الذين يدقون له الطوب .. لكنه لم يجد مندوحة مـــن الترحيب بأرمل عمته والإذن له بالدخول .. أبو التوفيق المتعجل دائماً أحله من الجلوس معه :

– أنا مش جاي إلك .. روح شوف عمالك .. أنا بدي أحكي مع الوالدة كلمتين عالماشي

تركهما حسين وذهب لشأنه .. قبل أن يبتعد سمع أبو التوفيق يتوسل لها :

– مرة الهدار بنت خالك .. بدي إياكي تسعيلي بنصح .. بركي قسمت القسمة واعطتني بنتها .

تمتمت أم حسين بصوت خافت (خللي السـمن في جـرارو .. لمـن تيجيـه أسعارو) .

صاح فيها أبوالتوفيق وهو يلعن في سره المدبغة التي أحوجته لخراء الكلاب :

– إيش قلتي ؟؟.

قالت وهي تستر بغطاء رأسها عينها المطفأة :

– الله يقدم إللي فيه الخير .

– من إيش أهلها خايفين ؟ ما أنا على قولة اللي قال (إيد بتصُر .. وجيـب بتهُـر .. وظهر بِعُر) .

استفزها اعجابه بنفسه ومباهاته بما ليس فيه من الخصال .. كفت عن مجـاملته وقررت إظهار مخالبها :

– خايفين تحمق عليها زي ما كنت تحمق على إم التوفيق .. ما إنت كنت اتطلع اللـي في الخيش وتحط إم التوفيق مطرحهم .

حشرته في الزاوية .. لكنه استعاد رباطة جأشه :

– ولا ترُدي .. هادا كلوا ما إلو أصِل .. أي والله أحن مني على النسوان الله ما خلق .

نهض أبوالتوفيق وهو يجزل لها الوعود :

– اسعيلي فيها وإلك الحلاوة .. والله لأكسيكي كسوة من القمعة للزهرة .

ضحكت وهي تشيعه إلى الباب :

– عَيِّنْ خير .. عّيِّنْ خير يا أبو التوفيق .

لحق بحسين وتأمل جبل الطوب الذي أنجزه عماله .. لم يستوعب أبو التوفيـق حجم البناء الذي ينوي حسين إقامته .. مازحه كما اعتاد أن يفعل :

– إنت مش ناوي على بايكة .. إنت بدك تبني قصر شبيب (وغمغم : كل ذي عاهـة جبار) .

تذكر حسين والده الحاج أحمد عندما تمدد على الأرض وأمره أن يضـع خطـاً عند قدميه وخطاً عند رأسه ثم جلس (هذه حدود بيتنا الجديد) وقتهـا احتـج حسـين وتوسل لأبيه أن يزيد مساحة البيت .. أصر الحاج أحمد على رأيه .. حفر الأساس في موضع العلامات وهو يردد (بيت من عنكبوت .. كثير عللي بموت).

(13)

بنى البناءون أكبر بايكة عرفتها الحارة .. عرضها خمسة أمتار وطولها عشرون متراً .. جهزها بمعالف ومساقي وشبابيك ونوافذ واطئة ..

في يوم الجمعة بدأ حسين صناعته الجديدة .. بشراء ثلاثة عجول عفية فتية اقتادها الرجال ..ربطوها في الجهة اليمنى من البايكة ..ملاوا المعالف والمساقي بالعلف والماء .. قال لهم وهو يراقب العجول تغب العلف بشراهة :

– بعد أسبوع من الآن تنقل العجول إلى الجهة اليسرى من البايكة وتنظفون تحتها .

علق جاره صالح البطش وهو يراقب الصنارة بيده تغزل طاقية جديدة :

– الأصحاء من أهل الحارة لديهم صنعة واحدة وأنت بصنعتين .. لا تتعارض أحداهما مع الأخرى .. تغزل الطواقي وتسمن العجول .

قاطعه عبد الجواد الجرو :

– من زرع زرعين ما خاب .

ضحكوا بمودة .. تابع صالح البطش :

– اللهم لا حسد .

فاجأهم حسين بقوله :

– ضايل زرعة ثالثة .. والثالثة نابتة إن شاء الله .

حدقوا فيه يحاولون أن يخمنوا زرعته الثالثة .. ثم أطرقوا برءوسهم .

علق عبد الجواد :

– بوضع سرّو في أضعف خلقو .

بدأ السمار في التوافد .. قربوا منه الفانوس .. تناول كتاباً وبدأ القراءة .. لم يكن الكتاب مألوفاً لديهم .. رغم ذلك شدهم إلى متابعته والتمتع بقصصه وحكاياته .

تنحنح حسين وبدأ القراءة :

– قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل .. فاضرب لي مثلاً في الأشياء التي يجب على الملك أن يلزم بها نفسه .. ويحفظ ملكه .. ويثبت سلطانه .. ويكون ذلك رأس أمره وملاكه : الحلم .. أم المروءة .. أم الشجاعة .. أم الجود ؟

قال بيدبا : إن أحق ما يحفظ به الملك ملكه .. الحلم .. وبه تثبت السلطنة .. والحلم رأس الأمور وملاكها .. وأجود ما كان في الملوك .

اقتحم الصيرة شابان يأخذ أحدهما بتلابيب الآخر ويتبادلان أقذع الشتائم .. حين انتبها إلى وجود والدهما عبد الجواد .. أفلتا بعضهما ونكسا رأسيهما إلى الأرض .. ركعا أمام والدهما يقبلان يده .. نفض يده منهما وأشار إليهما أن يتنحيا جانباً :

– عيد عليهم الحكاية من أولها يا حسين .. بركي يتعلموا الحلم .. ويحلموا على بعض .. صحيح الحلم سيد الأخلاق .

احتج صالح البطش :

– ليش داقين في بعض .. احكي السالفة يا محمد :

تردد محمد في الحديث تهيباً لوالده .. لكن سعد انطلق كالزوبعة ..

– كنا بِنْعِسْ في تلة البلاخية على العملات والدفاين برماح الحديد .. علق رمحي .. ثم علق بعدها رمح سعد .. حفرنا تحت الرماح طوال اليوم .. سعد وجد حدوة فرس أكلها الصدأ .

ضحك صالح البطش حتى اغرورقت عيناه :

– أكيد هادي حدوة فرس الإمبراطورة هيلانه .

سأل شقيقه :

– وإنت يا محمد .. ماذا وجدت تحت رمحك ؟

– وجدت هذه .. أخرج من جيبه قطعة نقد من الذهب أضاء بريقها المكان .. اختطفها صالح البطش وقلبها بين يديه .. كان على أحد وجهيها نقشاً لرأس رجل وعلى الآخر خطوطاً تشبه الكتابة .. ناولها لحسين .

– اقرأ هذه المسكوكة لنرى في عهد أي الملوك ضربت .

قربها حسين من الفانوس ثم أعادها لهم :

– هذه كفريه[1] .. الكتابة التي عليها من اللغات الميتة .

شخر صالح البطش :

– اللغة بتموت ؟

هز حسين رأسه :

– يموت الناطقون بها فتموت معهم .. منذ آلاف السنين ظل الكنعانيون وأحفادهم يتوارثون غزة كابراً عن كابر .. لكل عهد من عهودهم دينٌ ولغة وتقاليد .. قد توافق أو تخالف من سبقهم ومن تبعهم .

1. كفرية : من عهود الوثنيين .

تأمل عبد الجواد الوجه المسكوك على القطعة الذهبية :

– لعلها عملة الإسكندر ذو القرنين .

– وهل دخل ذو القرنين غزة ؟

هز حسين رأسه :

– نعم دخلها بعد أن قاومته مقاومة شديدة وأثخنت في جيشه قتلاً وتجريحاً .. فلما انتصر أمر بقتل كل من فيها من الرجال .. حتى لا تجرؤ المدن بعدها على المقاومة .. بلغت أخبار ما فعله بغزة مصر فاستسلمت له دون مقاومة .

تساءل عبد الجواد :

– قديش عمر غزة .. ألف سنة .. ألفين .. ثلاثة ؟

أجاب حسين :

– يقال أن غزة بنيت قبل ميلاد المسيح بخمسة آلاف سنة .. أجدادنا الكنعانيون سموها غزة نسبة إلى العزة والشموخ .

رانت فترة من الصمت قبل أن يتابع عبد الجواد وهو ينحي قطعة النقود جانباً .

– ياما طوت هالخرسا .

– أحياناً نجد قدوراً وأباريقاً وجراراً مليئة بمقتنياتهم ومصنوعاتهم .. خرز ملون .. أمشاط عظم .. ملاعق خشب .. خناجر وسكاكين .. قطعاً من النقود فضية أو برنزية أو ذهبية إذا حالفنا الحظ .. أما العظام والجماجم فحدث ولا حرج .

خطف سعد القطعة الذهبية ووضعها في جيبه .

احتج محمد :

– اللقية لمن وجدها .

رد عليه شقيقه :

– ولكننا شريكان .

حكم بينهما صالح البطش :

– تبيعانها وتقتسمان ثمنها .. كما تفعلان عادة .

تأفف محمد :

– ولكنني أريد الاحتفاظ بها .. طلبت منه أن يبقيها معي حتى نعثر على أخت لها فتكون من نصيبه .. فرفض .

جنح سعد إلى الملاينة :

- أقبل .. إذا بقيت أمانة عند أبي .. فلا يعطيها لك إلا بعد العثور على مثيلتها .

قال عبد الجواد لحسين :

- مادامت قد اصطلحا على اقتسام سبوبة الإسكندر ذو القرنين فلنعد إلى دبشـــليم الملـــك ونصيحة وزيره بيدبا .

تابع حسين القراءة وهم ينصتون بشغف وتلهف .

حين انتهت السهرة تلكأ عبد الجواد الجرو في مغادرة المكان حتى انفرد بجـــاره ومضيفه .. همس في أذنه :

- غداً بعد صلاة الجمعة سوف أستضيف الشيخ محي الدين عبد الشافي الذي تعرفـــت عليه في العسكرية .. كان همشريتي[1] عمل إماماً لطابورنا .. سيكون ضيفي غداً على مائدة الغذاء .. وإنني أدعوك لمشاركتنا في الترحيب به .

1. همشريتي : رفيقي في العسكرية .

(14)

فتح عبد الجواد الجرو جبهته الخاصة .. هذه المعركة لم يكن فيها برتبة شاويش ولكنه صار مشير الجيش الهمايوني الرابع .. جمع عترته وأبناء عمومته ووزع عليهم الأدوار التي بدونها لن تنجح الوليمة .. إخراج الرمل الأصفر من حفرة إلى جانب شور الصبر وفرده تحت الجميزات الثلاثة التي اختارها مكاناً لوليمته .. استقبال الضيوف وقيادة ركائبهم إلى المكان الذي تربط فيه وتعلق لها الأعلاف حتى لا تفلت وتشتبك عضاً ورفساً فتفسد الوليمة .. طهو الطعام ونقل الصحاف أمام المدعوين ..الطواف على الضيوف بأباريق الماء وأكواب الليمون وشراب الورد .

اقترض البسط والوسائد النظيفة من جيرانه وأهل حارته وأشرف بنفسه على كل كبيرة و صغيرة .

بدأ ضيوفه بالتوافد .. استقبلهم هاشاً باشاً .. أجلس كلاً منهم في الموضع الذي أعده له .. تكامل الديوان .. اتخذ مجلسه بين يدي ضيفه ملبياً أدنى إشارة منه .

حسين جلس بحيث يسمع ويرى ولا تفوته كلمة مما يقال .. هؤلاء الكبراء الذين يسمع أسماءهم تتردد على شفاه أهل الحارة مقرونة بالتجلة والاحترام .. أكثرهم مهابة كان الضيف المحتفى به .. تأمله حسين .. وجده معتدل الطول .. نحيفاً ولكنه بهي الطلعة .. يشف حديثه عن دماثة خلقه وتواضعه .

قبل ابني عبد الجواد يد ضيفهم الشيخ :

– هذان ولداي سعد الله ومحمد .

سأل الشيخ باهتمام :

– هل يذهبان إلى المدرسة ؟

ضحك عبد الجواد وكأنه سمع نكتة :

– مدرسة .. !! نحن فلاحون .. لا نستغني عن أولادنا .. الصبي عندنا يبلغ السعي دون السادسة .. ويقوم بأوده وأود من يعولهم .

– ولكن يجب أن يتعلم الأولاد القراءة والكتابة على الأقل ..

– يتعلمون في الكتاتيب قصار السور .. وما يلزمهم لأداء الصلاة من طهارة ووضوء وذلك يكفي ..

تدخل جاره شملخ وقد رآها فرصة للحديث أمام كبار القوم :

– اللي ما بعلموه أهلو .. بتعلمو الإيام والليالي .

تذكر حسين حديث الحكيم الفرنساوي : (إن كل ما وعته البشرية وما كسبته من المعارف موجود في بطون الكتب .. وليس من سبيل إلى إدراك ذلك الكنز إلا بالقراءة)

أعرب الشيخ محي الدين عن أسفه لما سمع .. وقال لهم :

- إن أول ما نزل على نبينا كلمة اقرأ .. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

رانت فترة من الصمت .. شعر عبد الجواد بالحرج .. أراد أن يغير الموضوع .. ذكر الضيف بيوم تعارفهما .. طلب منه الحاضرون أن يروي لهم قصة تعرفه على الشيخ محي الدين .. انطلق عبد الجواد يروي لهم الحكاية ..

كان الشيخ إماماً لطابورنا في العسكرية .. اختارني قائد الطابور آمراً للطاقم الذي يتولى إطلاق مدفع الإفطار في رمضان .. كان يوماً غائماً .. لم أتبين إن كانت الشمس قد غربت أم لم تغرب .. ورغم أني تناولت سحوراً مهولاً في تلك الليلة .. إلا أن الجوع لوى أمعائي .. وضعوا الجراية أمامي .. صعدت رائحة البرغل الغارق في السمن إلى نخاشيشي .. سال لعابي .. تأملت مغرب الشمس الملبد بالغيوم وقلت في نفسي : (ما أظن أن الشمس سترجع إلى قبة الفلك ..)

ألح عليَّ الجندي الذي يحمل الشعلة وقد لوى الجوع أمعاءه :

- حكمت يا سيدي .

أصدرت أمري إلى طاقم المدفع :

- اضرب .

تناول جنود الطابور إفطارهم .. ولسوء حظي انقشع الغيم فجأة .. أشرقت الشمس .. جن جنون البيكباشي .. انطلق إلى مكان المدفع وسوطه في يده .. أشار بسبابته إلى رأسي الضخم :

- هذا موش راس .. هادا سفرطاس .

طوح سوطه في الهواء وهو يزمجر :

- صيام يوك .. جنات نعيم يوك .. كفر يتسم شاويش عبد الجواد .

لم أجد ما أحتال به لنفسي .. سوى أن أتنصل من التهمة وألقيها على غيري :

- هادي أوامر مفتي أفندي .. وحياة رأسك يا بيك .

طوى البيكباشي سوطه وعاد أدراجه وهو يتميز من الغيظ .

انطلقت بسرعة البرق إلى خيمة مفتي الطابور الشيخ محي الدين لأقع في عرضه .. ربت المفتي كتفي :

- هون عليك .. سأتدبر الأمر مع البيكباشي .

قبلت يدي الشيخ وأنا أتوسل :

- هل يغفر الله لي يا مولانا ؟

سأل الشيخ سعيد أبو شعبان صديقه :

- بماذا أجبته يا شيخ محي الدين ؟

ابتسم الشيخ محي الدين وتابع عبد الجواد :

- أجابني بالحديث الشريف :

(رفع عن أمتي ثلاث .. الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه) .

علق الشيخ محي الدين مداعباً :

- الصلاة على الحاضر يا عبد الجواد .. المهم الآن مدفع الغذاء وليس مدفع الإفطار .

ضحك الحاضرون ونادى عبد الجواد :

- الغدا يا أولاد .

ثم التفت إلى المشايخ :

- حضرتوا وما حضر واجبكم .

وضعت صحاف المفتول أمام الحاضرين مجللة باللحم واليخنة .. انشغلوا بتناول طعامهم الشهي .

بعد الانتهاء من تناول الطعام رفعت الصحاف .. دارت عليهم القهوة والفاكهة .

سأل الشيخ محي الدين صديقه الشيخ عثمان الطباع :

- سمعنا أنك تؤلف كتاباً عن عائلات غزة ؟

أجاب الطباع متهللاً :

- نعم .. وسميته إتحاف الأعزة في تاريخ غزة .

علق الشيخ سعيد أبو شعبان :

- لا توجد مراجع كثيرة حول هذا الموضوع .. من أين استقيت مادة كتابك ؟

- ما لا يوجد في الكتب .. يوجد على ألسنة الناس .. وفي الحديث الشريف : (المسلمون مؤتمنون على أحسابهم) .

تابع الشيخ سعيد مازحاً :

- أهل غزة مولعون بالفخر .. يمجدون أصولهم وفروعهم .. وإذا لم تمحص ادعاءاتهم فلن ينتهي نسب معظمهم قبل أن يصل إلى معد ابن عدنان .

لم يبد على مختار الحارة الأطرش هاشم الشرفا أنه يتابع الحديث .. المختار ادعى الصمم لأول مرة حين استدعي للعسكرية .. حبك الدور على الأتراك ونال الإعفاء .. أعجبته اللعبة فساقها على أهل الحارة .. يعطيهم الطرشة حين يتعلق الأمر بحق من حقوقهم .. ويسمع دبيب النملة حين يتعلق الأمر بمصالحه .

هذه المرة فاجأهم المختار بدقة استماعه :

- معد ابن عدنان جدنا إحنا .. جد الشرفات وحدهم .

تردد لحظة قبل أن يلحق أحداً بنسبه الشريف ولكنه حسم أمره أخيرا وتابع على مضض .

- وجد الحسينية كمان .. علشان ما نزعل الحاج أمين .. أما باقي الغزازوة يدبروا راسهم .

تضاحك الحاضرون لمداخلته .

همس الحاج موسى الصوراني في أذن الشيخ محي الدين :

- على ذكر الحاج أمين .. وصلنا أن خلافك معه في المجلس الإسلامي أدى إلى القطيعة .. فإن رأيت أن نتوسط بينكما فعلنا ذلك ؟

رد الشيخ محي الدين بعصبية :

- المسألة يا حاج موسى ليست خلافاً شخصياً تصلحه الوساطة .. الحاج أمين أصابه ما يصيب الملوك .. العجب والاستئثار بالرأي .. الشعور بأنه ملهم ومعصوم ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. يريدنا أن نبصم له دون أن نسأل أو نناقش .. لو فعلنا ذلك .. فهو التدليس والغش وخيانة الأمانة .. ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام (الدين النصيحة) .

قال الشيخ عثمان الطباع في نفسه : (انج بجلدك يا عبد الله .. بدأ التعرض للحاج أمين وما أظن عيونه وآذانه بعيدة عن مجلس كهذا) .

استأذن الطباع في الانصراف .. شد على يد الشيخ مودعاً وغادر المجلس .

قال حسني خيال للشيخ محي الدين :

- يا مولانا لدي سؤال يحيرني :

- الغازي مصطفى كمال الذي فرحنا بانتصاراته ولهجت ألسنتنا وأفئدتنا بالدعاء له .. لماذا لا يخف لنصرتنا وقد ابتلينا بالإنجليز والصهاينة مثلما ابتليت تركيا بالإنجليز والدونمة وقد نصره الله عليهم .

تدخل عبد الجواد الجرو :

– سمعنا أن وفداً من المسلمين الهنود عرض عليه أن يتولى بنفسه الخلافة وأن يصبح أميراً للمؤمنين .

تنهد الشيخ محي الدين :

– الغازي الذي تنتظرون قدومه لتحرير فلسطين لم يعد غازياً منذ زمن بعيد .. إن تركيا الآن مشدودة الوثاق بقيود كرازون .

هتف الأطرش هاشم :

– مين هادا كرازون ؟

أجاب الشيخ محي الدين :

– اللورد كرازون وزير خارجية بريطانيا أيام حكومة لويد جورج .. الإنجليز كانوا يعدون في أعقاب الحرب العالمية الأولى لتقسيم تركيا .. إعطاء اليونان اسطنبول وسالونيك ونصف بلاد الأناضول .. و إعطاء الأكراد والأرمن ما تبقى .. اضطر مصطفى كمال للرضوخ لشروطهم حتى يرفعوا السيف عن رقبته ورقاب الأتراك فيما عرف بشروط كرازون التي تشمل فيما تشمل .. إلغاء الخلافة نهائياً وأن تقطع تركيا صلتها بالإسلام وباقي المسلمين وأن تتجه نحو العلمانية .. ألغى أتاترك الحروف العربية واستبدلها باللاتينية .. أصبحت تركيا في عهده تابعاً ذليلاً لأوروبا في سياستها الداخلية والخارجية .

صاح الحاج موسى الصوراني مستنكراً :

– يا لطيف يا حفيظ .. هي الدنيا بتغني عن الآخرة .

قال شملخ :

– أكيد أتاترك خدع الإنجليز ولابد ما يردو أصلو .

استطرد الشيخ محي الدين :

– أتاترك أخذته العزة بالإثم وسكر بخمر السلطة .. زين له العملاء تقليد الغرب .. حتى أنه منع الحجاب وأجبر الأتراك على استبدال الطربوش بالبرنيطة .. منع تعليم القرآن في مدارس الحكومة .. حتى الآذان لم يعد يؤذن بالعربية .. وما خفي كان أعظم

قال حسني خيال وهو يضرب كفاً بكف :

– كل من قلنا عنو موسى .. بطلع فرعون .

ثم استدرك ووجه الحديث للحاج موسى الصوراني :

- ما عداك يا حاج .

ضحك الحاضرون .. ابتسم الشيخ محي الدين للدعابة ثم تابع حديثه :

- لذلك يا إخواني على العرب ونحن منهم أن يقلعوا شوكهم بأيديهم .

حان موعد صلاة العصر .. أمهم الشيخ محي الدين وبعد الصلاة غادر الكثيرون منهم .. تحلق الباقون حول الضيف ودار الحديث شجوناً بين الدعابة والجد حتى انصرف آخر المدعوين :

قبل أن يغادر الشيخ محي الدين المكان أسر لعبد الجواد :

- لقد ارتاحت نفسي لهذا المكان وأحب أن أجلس فيه للتلاميذ والمريدين بعد صلاة العصر كل يوم .. إذا سمحت لنا .

- هذا شرف عظيم يا سيدي .

- سنحضر قهوتنا معنا حتى لا نحملك عبئاً فوق أعبائك ..

قال عبد الجواد :

- هذه إهانة ولو لم تكن همشريتي في الحرب لما غفرتها لك .. قهوتنا فضلة خيرك يا شيخ محي الدين .

عانق الشيخ مضيفه وانصرف .

(15)

حرص حسين أن يكون أول الحضور في مجلس الشيخ محي الدين عبد الشافي عصر كل يوم .. كان يتوكأ بذراعه السليمة على عصا قطعها من شجرة اللوز وشذبها بالموس ودهنها بالكمليكا حتى صارت كالصولجان .. يلقي التحية على الحاضرين ويتخذ مجلسه خلف وجاق القهوة بجانب جاره عبد الجواد .. يغزل طواقيه بصمت ..

يتابع بأذنه ما يدور من الدروس والأحاديث .. في الشهر الأول لم يعيروه التفاتاً .. كان يستمع فقط ولا يشارك فيما يجري .. لكنه بعد انقضاء الشهر خرج عن صمته .. فاجأ حلقة الدرس بتدخله .. كان أحد طلاب الأزهر يحاول استذكار ألفية ابن مالك .. لم يفتح الله عليه بغير مطلعها .. ردد المطلع مرات عديدة .

– كلامنا لفظ مفيد كاستقم

اسم وفعل ثم حرف الكلم

فاض الكيل بحسين فانبرى يقرأ عنه .. قرأ ألفية ابن مالك كلها .. عقدت الدهشة ألسنتهم .. سأله الشيخ محي الدين إن كان قد حفظها قبل أن يشارك في مجلسهم .. أكد له أنه حفظها من تكرارهم لقراءتها في حلقة الدرس .. وزاد على ذلك أنه حفظ الأجرومية أيضاً .

قال الشيخ محي الدين لتلاميذه :

– الفتوح من الله .. إن هذا القعيد الذي يقف على قدميه بصعوبة .. ويعتمد على عكاز في المشي .. حباه الله عقلاً واعياً وذاكرة حافظة ..

تمتم الشيخ محي الدين لنفسه : (لا يضرب ربك بعصاوين .. لا يضرب ربك بعصاوين) .. ثم التفت إلى صديقه عبد الجواد واستشهد بشعر يليق بالمناسبة :

– ترى الرجل النحيف فتزدريه

وفي أثوابه أسد هصور

ويعجبك الطرير بغير لب

فيخلف ظنك الرجل الطرير

قال عبد الجواد مزهواً بجاره وصديقه الشاب :

– الرجال ما بتتكيل بالصاع .. ولا بتتقاس بالذراع .

الشيخ محي الدين تأمل حسين .. قلب الأمر على وجوهه ..

هل الذي أمامه الشق[1] ؟ .. أم الكاهن سطيح[2] ؟ همس لنفسه : (تخاله رُبْع رجل .. فإذا تكلم عوض ما نقص منه .. فإذا تابع الحديث علت هامته على هامات الرجال من حوله .. فإذا استرسل فاق الحاضرين والغائبين) .

يوماً بعد يوم امتدت حبال المودة والألفة بين الشيخ محي الدين وبين مريده الجديد حسين .. سبر كل منهما نفس صاحبه واستراح لما وجده .. كان الشيخ ينتحي بحسين جانباً قبل أن يبدأ دروسه .. يسمع منه أخبار البلاد وما يقترفه الإنجليز واليهود

من الجرائم .. وما يبيتونه من المؤامرات والمكائد .. حين يتشـــكك الحاضـــرون فـــي أخباره .. يخرج لهم حسين من عبه صحيفة أو مجلة ويقرأ عليهم منها ما يؤيد روايته .

كان لدى حسين ذخيرة لا تنفذ من الصحف والمجلات ..يحضرها له جيرانـــه من عمال النظافة في القطار .. مما يتركه ركاب القطارات خلفهـــم عنـــد نزولهـــم .. بعضها من مصر .. وبعضها من فلسطين .. وبعضها من لبنان .

تعرف حسين على مجلة الرسالة .. التي يصدرها الزيات .. ومجلة الهلال التي يصدرها جورجي زيدان في القاهرة .. كلف ابن خاله عبد الحكيم غزال ..سائق القطار الذي يربط فلسطين بمصر .. أن يحمل له ما يصدر عن مطابع مصر .

حمل له ابن خاله كتباً كثيرة مثل حديث عيسى ابـــن هشـــام للمـــويلحي .. وترجمـــات المنفلوطي للروايات الغربية .. وروايات جورجي زيدان .

إلى أن قادته قراءته لتوفيق الحكيم وعباس العقاد وطه حسين وغيرهم .. ممـــا جعلـــه موضع تقدير الشيخ محي الدين أكثر فأكثر .. حتى أنه صار يوكل إليه متابعـــة دروس تلاميذه حين يشغله عنهم طارئ أو سفر مفاجئ .

انتهت أشهر الصيف .. رجع تلاميذ الأزهر إلى القاهرة لمواصلة التحصيل على شيوخهم هناك .. انفض مجلس الشيخ محي الدين .. لم يعد لزيـــارة ديـــوان صـــديقه عبدالجواد إلا لماماً ..

حسين الذي اكتشف طريقه .. واصل رحلته في دروب المعرفة وحيداً .. ويوماً بعد يوم تبلور في ذهنه المشروع الذي سيكرس له حياته .

1. أحد عرافي الجاهلية .. ويقال أنه كان نصف إنسان .
2. كاهن جاهلي مقعد .

(16)

عامان مرا على مشروع تسمين العجول .. أحصى حسين مكتبته فوجد بها ستين كتاباً .. وأحصى أرباحه فوجدها ثلاثمائة جنيه عداً ونقداً .. وأربعـــة عجـــول يافعـــة استقرت خلف المذاود .. في دورة تسمين جديدة تبشر بربح أكبر ..

اطمأن حسين بالاً وبدأ في تنفيذ مشـــروعه الثالث الذي كان يحلم بـــه طـــوال الوقت .. أن يبني مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين .. مدرسة لا يشترط فيها على التلاميـــذ

الانتظام في الدوام طوال العام .. يجيئها التلاميذ في المواسم التي يستغني فيها الآباء عن خدماتهم .. خاصة بين موسمي الحرث والحصاد .

هذه المرة لم يشيد بايكة من الطين والطوب المخلوط بالتبن .. أقام مبنى حديثاً من الأسمنت المسلح .. صالة كبيرة للدرس مقسمة إلى ثلاثة أقسام .. مزودة بتخوت خشبية يتسع كل واحد منها لأربعة تلاميذ .. أمام كل قسم لوح أسود مثبت على الجدار .. على جانبي المبنى حديقة وملعب للأطفال .. على البوابة لوحة كبيرة كتب عليها (مدرسة سرور الأطفال) .

في صدر المكان نصبت للشيخ أريكة للجلوس أمامها طاولة مكتب مما يستخدمه نظار المدارس .

اتخذ الشيخ مكانه وأقبل عليه التلاميذ .. فرادى أول الأمر .. ثم جماعة صغيرة من كل حارة .. وما هي إلا أشهر قليلة حتى امتلأت المدرسة بالتلاميذ .. معظمهم من أبناء الفلاحين الذين لفظتهم مدارس الحكومة لعدم مواظبتهم ..

كانوا ينتظمون في مدرسة حسين الذي حمل لقب الشيخ .. ثلاثة أشهر قبل موسم الحرث وشهرين بعده .. ثم يذهبون إلى الحصاد ولا يعودون إلى مقاعد الدراسة إلا بعد ثلاثة أشهر لكي ينتظموا بعد ذلك حتى يحين موسم الحرث التالي .

عكف مولانا على وضع منهج للدرس يلائم حاجة تلاميذه .. قسم الأولاد إلى ثلاثة مستويات .. المستوى الأول يتعلم فيه التلاميذ حروف الهجاء قراءة وكتابة .. والأرقام كتابة وقراءة .. وقصار السور من جزء عم حتى منتصفه .. وبعض الأناشيد .

المستوى الثاني .. يتعلمون وصل الحروف .. في جمل مفيدة تتكون من كلمات لا تزيد عن حرفين ..

هل لك يا حر

في أخ ما ضر

سل عن من لك وَد

دع كل من لك صد

ثم جمل مفيدة كلماتها من ثلاثة حروف

ولد رفع علم بلد

عمر قطف قُطف عنب

ديب دخل دار

أكل شاة جار

ثم جمل مفيدة كلماتها أربعة حروف

رسول أمين نادى بدين قويم

جاهد جهاد وهدى عباد

باقي جزء عم وجزء تبارك .. مسائل حسابية في الجمع والطرح .. بعض الأناشيد والقصائد .

المستوى الثالث كتب القراءة الرشيدة المقررة على مدارس الحكومة .. جدول الضرب والقسمة .. سور منتقاة من القرآن الكريم .. قصائد وأشعار .. دروس عن التاريخ والجغرافيا .

نصوص مختارة من كتب الأدب ..الكسور العادية والعشرية .. دروس في مبادئ الفقه وأحكام الإسلام .. قصائد وطنية وحماسية .

كانت النتائج التي حصل عليها رائعة .. تجاوب أبناء الفلاحين مع المنهج الذي وضعه لهم .. وفي العام الرابع من التحاقهم بمدرسته رغم غيابهم الموسمي كان الأولاد يقرأون لأهلهم الرسائل .. وحجج استملاك الأراضي .. والجرائد .. والسير الشعبية .. و يكتبون لهم العرائض والإسترحامات .. يساعدونهم في حسابات البيدر وتسعير الغلال والمحاصيل .. ثم يتابعون بعد ذلك تعليم أنفسهم بما يتفق مع ميولهم ومواهبهم .

ذاعت شهرة مولانا الشيخ حسين في المدينة كلها .. أقبل عليه الطلاب من الحارات القريبة والبعيدة .. لم يكن يتشدد في تقاضي الأجرة منهم .. كبار الملاك من الفلاحين أجزلوا له العطاء .. الفقراء لم يحملهم فوق طاقتهم .. تقاضى أجرته من فائض غلالهم (فردة قمح .. خروفاً أو جدياً .. زوجاً من الدجاج أو البط .. سلة بيض .. فواكه مما تعطيه مواسمهم) .

(17)

لم يستطع خليل شراء البنادق .. القليل الذي عرض عليه كان قديمـــاً وباهظ الثمن .. كاد أن يعود إلى شيخه عز الدين خالي الوفاض .. ذات ليلة فوجئ خليل بالإنجليز يحاصرون الحارة يفتشون البيوت والبساتين .. المقاهي والدكاكين وبسطات الخضرة .. حتى المسجد لم يسلم من أذاهم .. فهم خليل من أهل الحارة أن مخازن الإنجليز في المحطة تعرضت للسطو .. اللصوص حملوا ما وصل إلى أيديهم وفروا بغنائمهم تحت جنح الظلام .. أبو التوفيق استنزل اللعنات على هؤلاء اللصوص وهو

يرى الإنجليز يقلبون دكانه رأساً على عقب .. بعد انصراف الإنجليز حاول الأطرش هاشم تهدئته .. فانفجر في وجهه :

– إنت إيش هامك يا مختار .. ما إنت إلك في كل عرس قرص .. وكل إشي بصير بإسك ..

ثم التفت إلى خليل مواصلاً احتجاجه :

– الندورة للدير .. والخرا على سمعان .

تنبه خليل أن لا سبيل إلى بغيته إلا بواسطة هؤلاء اللصوص الذين يسميهم أبو التوفيق وأهل الحارة (اليطق) ..

استدل على مكمنهم بعد جهد جهيد .. اقتحم مغارة حلاوة حيث يجتمعون كل ليلة لاقتسام غنائمهم ..

دخل المغارة .. كان الصياح على أشده .. رفع بعضهم السلاح على البعض الآخر .. تنبهوا لوجوده .. تحولت البنادق والمسدسات كلها صوبه ونسوا العركة التي تدور بينهم .. جلس خليل على أحد الصناديق دون أن يكترث للسلاح المصوب نحوه .. مد يده داخل الصندوق وأخرج علبة بولوبيف .. تأملها قليلاً ثم وضعها في جيبه .. وقال مازحاً :

– عشانا عليك يا رب .

لمح أكياس السكر وصناديق الشاي .. وكراتين الزبيب والفول السوداني المكومة أمامه وقال مواصلاً مزاحه :

– ضايل التحلاية .

قال له الهنطيري زعيمهم :

– يا خليل ليس أمامنا إلا أن نقتلك حتى لا تشـــي بنا .. أو نشركك معنا فنضمن سكوتك .. أنت حنبلي وخُزُقْ .. لكن هادي ما انسرقت من مال المسلمين .. هادي البضاعة مسروقة من الإنجليز الكفار ..

لاحظ خليل وجود بندقية على أحد الصناديق .. التمعت عيناه .. ها هو أخيراً يجد ضالته .

العبد هاشم غزال تناول بكرج القهوة .. صب فنجان قهوة لخليل .. هو أولاً وأخيراً جاره وعليه أن يكرمه .. تناول خليل فنجان القهوة من يد العبد هاشم .. وأخذ يرتشف قهوته .

استحثه الهنطيري :

– هاه إيش قلت .. يا مقطع حصر الجامع .

نحى خليل فنجان القهوه ومد يده إلى الهنطيري :

– حط إيدي في إيدك ..هادا عهد الله .. إنو الإنجليز أعداءنا .. وهما وأموالهم ومعسكراتهم غنيمة للمسلمين .

تنفسوا الصعداء .. أشار الهنطيري إلى كومة الغنائم :

– هل تختار نصيبك أو اختاره لك .

قفز خليل من مكانه وتناول البندقية :

– هذه نصيبي .. وكل سلاح تسرقونه منهم .. سأتولى بيعه وتوريد ثمنه لكم .

حذره الهنطيري :

– الإنجليز لا يتسامحون عند اكتشافهم لسرقة السلاح كما يتسامحون في سرقة الزبيب أو البولوبيف ..

رانت فترة من الصمت .. تابع بعدها الهنطيري :

– هل لديك من يدفع ثمناً مجزياً للسلاح الذي ربما يكلفنا أرواحنا ؟

لم يجد خليل مندوحة من مصارحتهم بكل شئ دفعة واحدة .. مراهناً على نخوتهم ووطنيتهم .

– السلاح سيذهب إلى المجاهدين في الشمال .. إلى الشيخ عز الدين القسام ورجاله .. إنهم يتبرعون بحلي نسائهم ومدخرات عمرهم ليحصلوا على السلاح .. وما أظن أنهم سيجمعون في عام كامل ثمناً مجزياً لبندقية واحدة ..

أخرج من جيبه صرة مال وناولها للهنطيري .. ثم نظر في عيون الرجال الذي تحلقوا حوله .. عقدت الدهشة ألسنتهم .

قال خليل يهون الأمر عليهم :

– لقد تعادلنا الآن .. أشي بكم .. فتقضون حياتكم في السجن .. تشون بي .. فيشنقني الإنجليز على قارعة الطريق .

تناول البندقية ومضى قبل أن يفضحه الفجر الذي أوشك على الطلوع .

في الليلة التالية حزم اللصوص أمرهم .. سلموه ثلاث بنادق .. ووعدوه بالمزيد .

فتح خليل إحدى بالات الصوف وغيب في منتصفها بنادقه وأعاد حزم البالة كما كانت ليلحق بالقطار الصاعد إلى حيفا .. دس البالة بين بالات الصوف الأخرى ..

أشـــرف بنفسه على تحميلها في عربة الشحن .. ظل في العربة حتى وصل القطـــار حيفا .. نقلت البالات إلى مخزن رشيد الحاج .. تسلل رجال عز الدين إلى المخزن .. استلموا البنادق الأربعة .

في الأيام التي أعقبت ذلك لم يعد الأمـــر سهلاً .. اكتشف الإنجليـــز سرقة البنادق .. قلبوا الدنيا رأساً على عقب .. كان لابد من مرور ثلاثة أشهر قبل أن تهدأ الأمور ويعيد الهنطيري الكَّرة .. هذه المرة كمن رجال اليطق خلف مراحيض العسكر محتمين بنباتات البوص التي تتشابك خلف المراحيض وتفصلها عن البيارات المجاورة للمحطة ..

قرب منتصف الليل وصل قطار قادم من مصر محمل بالجنود .. وقف القطار على الرصيف .. نزل الجنود للتريض .. بعضهم اتجه إلى المراحيض .. ركنوا بنادقهم إلى جانب الجدار وجلسوا لقضاء حاجتهم .. امتدت الأيدي الخفيفة المدربة وسحبت ثلاث بنادق .. غيبت نباتات البوص آثارهم حتى دخلوا البيارات .

أتم الجنود قضـــاء حاجتهم .. اكتشفوا ضيـــاع البنادق .. أطلقت صفارات الإنذار .. أضيئت الكشافات .. انهمر الرصاص كالمطر .. بدأ التحقيق في الجوار مع كل من هب ودب .. لم يؤد ذلك إلى أية نتيجة .

قرر رجال اليطق الكف عن سرقة البنادق والاكتفاء بما حدث .. العبد هاشم لم يلتزم بالقرار .. كمن في البوص وحده .. ساق القدر إليه جندياً أسترالياً عاجله المغص وهو في نوبة الحراسة .. دلف الجندي إلى المرحاض .. تحسس العبد هاشم طريقه .. مد يده ليسحب البندقية كما فعل في السابق .. لسوء حظه كانت الأوامر قد صدرت لعساكر الإنجليز بأن يربطوا البنادق إلى وسطهم بسلسلة من الحديد .. خاف العبد هاشم إن ترك البندقية وهرب أن يصليه الجندي بالرصاص ويقضي عليه .. فتح باب المرحاض وسدد لكمة إلى فك الجندي .. غاب الجندي عن الوعي .. حمله العبد هاشم على كتفه وظل يعدو به حتى دخل البيارة المجاورة .. تحت ظلال الأشجار الكثيفة .. جرده من ثيابه ومن البندقية .. خبأها بين فروع شجرة برتقال ضخمة .. حمل الجندي عارياً وركض به عائداً .. وصل نصف الأرض المغطاة بالبوص .. طرحه هناك .. عاد أدراجه .. أخذ البندقية والثياب إلى بيته .. أحرق ثياب الجندي ومحفظته .. خبأ البندقية في مكان لا يدركه أحد ..

في الصباح كان الإنجليز قد حاصروا الحارة وفتشوها بيتاً بيتاً .. لم يعثروا للسارق على أثر .

أسر العبد هاشم لابن عمه رضوان بما حدث .. قال له رضوان :

– لماذا لم تقتله ؟

– لو فعلتها لضربوا الحارة بالمدافع .. وقتلوا كل من فيها .

كتبت جرائد اليوم التالي بعناوين عريضة (الثوار يجردون عساكر الإنجليز من أسلحتهم وثيابهم) .

(18)

اقتحم الديناري مدرسة سرور الأطفال .. شق طريقه بين التلاميذ .. وصل إلى الأريكة التي يتربع عليها ابن خاله .. أو الأستاذ كما كان يحلو للديناري أن ينـــــاديه .. عانق رفيق صباه .. جلس إلى جواره يتابع درس الأناشـــيد .. وقــف آخـــر التلاميــذ يستظهر القصيدة المقررة .. تمايل الديناري طرباً وهو يشنف آذانه بما يسمع :

لكـــل أمـــر حيـــن

خللي البكـــا حينا

هاتي صلاح الدين

ثانيـــــة فينـــــا

الشـــامخ العرنين

عـــزاً وتمكينـــا

وجـــددي حطين

أو شـــبه حطينا

سلي ليوث البر

عن سفن البحر

ربانها المغتر

يدري ولا يدري

مليكه هل فـــر

أم بات في الأسر

أنهى الصبي إنشاده .. أذن الشيخ لتلاميذه بالانصراف .. التفت لضيفه متهلل الوجه ..

– كيف تركت يافا ؟

– قايمة قاعدة .. مظاهرات ليل نهار .. واليهود بدهمش يصلوا على النبي ..

عاجله حسين بلهفة :

– ما هي أخبار شقيقي حسني ؟

كان الديناري يعرف أن حسين بعد وفاة والده .. قد تبنى أخويه حسني ومحمد إلا أن اهتمامه بحسني تضاعف بعد وفاة شقيقهم الأصغر محمد أثناء وجود حسين في المستشفى الفرنساوي بيافا .

– حسني أتم تعليم النجارة الإفرنجية على يد أمهر النجارين في يافا .. معلمه السابق أعطاه حصة في المنجرة وشاركه في المقاولات التي يتعاقد عليها .. أبواب وشبابيك أباجور وكبس .. ومش ملحقين شغل .. الله وكيلك بلعبوا بالمصاري لعب ..

ابتسم حسين فخوراً بشقيقه وتابع :

– أما زال يقيم عند أخي حسن .

– نعم .. وهو هناك على الرحب والسعة ..

هز حسين رأسه مغتبطاً وسأل :

– ماذا عن الباقين ؟

اعتدل الديناري في جلسته .. فاجأ حسين بما لم يكن في الحسبان :
– إجا خُطّاب لخديجة .. إمها شاورتني وشاورت خالها مشعل .. سيدها أبو التوفيق وافق على العريس .. الولد بنَاء .. وأهلو من مجاويزنا .. أكيد ابتعرفوا .. ابن الحاج سعيد زينو .

تلقى حسين النبأ واجماً ولم ينبس ببنت شفه .. رانت فترة صمت .. استطالها الديناري فتابع يستفزه :
– مش هادي أبوها أعطاك إياها يوم مـــا انولدت .. عطية أب لا ترد .. وقرا الفاتحة مع أبوك .. الظاهر بدنا نغنيلك (أخذوا بنت عمك يا قليل الدراهم) .

لم يستجب حسين لاستفزاز الديناري .. لاذ بالصمت .. تابع الديناري :
– أنا ما أعطيتش جواب نهائي .. مستني آخذ رأيك .. بدك إياها ولا لأ .

خرج حسين عن صمته لأول مرة :
– ليش مستعجلين .. هي الدنيا طارت .. البنت عمرها عشر سنين .
– البنت يتيمة .. وجوز أمها فقير .. مش قادر على حملو .. وكتير ناس بجوزوا البنات أصغر من هيك .. مش هادا مربط الفرس .. أنا جاي أطلع خطيتها من رقبتي وأحطها في رقبتك .. بدك إياها ولا لأ ؟

رانت فترة من الصمت .. قلب حسين الأمر على وجوهه .. أخيراً اتخذ قراره :
– بدي إياها .. إنت وكيلي .. روح سلمه وما ترجع إلا إبها .
– أنا خال العروسة .. ما بنفع أتوكل عنك .. خللي إمك تيجي معايا وتطلبها رسمي (من تمك يا نحلة أحلى) .

هز حسين رأسه علامة الموافقة ..

لم يعترض أحد على خطبته لخديجة إلا خالها مشعل .. وضع العقدة تحت المنشار كعادته .. أراد ابتزاز العريس .. طلب عشر ليرات (استفكاك) .. رفض حسين الإبتزاز .. ثارت شراهة مشعل .. اقسم أن لا يدعه يفرح بها .. وشـــى به إلى القاضي (يريدون تزويج طفلة قاصر لشخص معاق لأنها يتيمة مكسورة الجناح) ..

رفض القاضي التوقيع على المضبطة .. حول الأمر إلى الطبيب الشرعي لتسنينها .. خالتها راضية تحدت مشعل وقررت تضليل الطبيب الشرعي .. حشت صدرها بشرائط القماش لتعطيها مظهراً يفوق سنها .. نسيت أن تغسل وجه الطفلة

العروس .. أدخلت إلى الطبيب الشرعي لاحظ القذى في عينيها .. قام عن كرسيه وأدخل يده في صدرها وأخذ يسحب الشرائط الواحدة بعد الأخرى وهو يرغي ويزبد :

– بدكو تجوزوها وهي ما كملت العشر سنين .. بتخافوش من الله .

كتب على المضبطة سنها الحقيقي وأعادها للقاضي .

رجع خليل من حيفا في الوقت المناسب .. أخبرته راضية بمكيدة مشعل .. ذكرته كيف ساومه على الزواج بها .. وابتزه دون وجه حق .. ضرب خليل كفاً بكف وهو يتمتم :

– حسبي الله ونعم الوكيل .. حسبي الله ونعم الوكيل .

انطلق خليل إلى القاضي ليسأله أمام المتخاصمين أن يحكم في هذه المسألة بشرع الله :

– هذه الطفلة اليتيمة القاصر .. أي شئ أقرب إلى الشرع .. أن تشرد في الشوارع دون كافل .. أو تأوي إلى زوج ينفق عليها ويحميها ويصونها .

لم يجد القاضي مندوحة من الموافقة على العريضة المقدمة له .. وهكذا اجتمع شمل خديجة على من اختاره لها والدها .

المزيرة التي يشرب منها تلاميذ الكتاب .. نظفت وملئت بالماء .. ألقي فيها كيس من السكر .. شرب أهل الحارة كؤوس السكر احتفاءاً بالزفاف الميمون .

وصلت العروس قادمة من دار جدها أبو التوفيق قادتها أمها إلى المزيرة .. أمرتها أن تغسل وجهها بنقيع السكر حتى يصير بختها حلواً .. وكانت هذه هي الزينة الوحيدة التي حصلت عليها ليلة عرسها .

قضت ليلتها الأولى ضيفة على أمه .. بينما سهر هو وضيوفه تحت الجميزة .. في الليالي التي تلت ذلك ناموا ثلاثتهم في نفس الغرفة .. تحاشى حسين الحديث معها .. ترك لأمه أمر العناية بها .. استحالت عناية أمه يوماً بعد يوم إلى فنون من التنكيل والتعذيب .

عامان مرا قبل أن يكترث حسين بما تعانيه عروسه على يد أمه .. فقرر أن يسبغ عليها حمايته .. أوقف أمه عند حدها ودعا الصغيرة إلى المبيت معه في الغرفة المجاورة .. كان لهذه الغرفة شباك مرتفع يطل على الكُتاب مباشرة وتحت هذا الشباك اتخذت خديجة مجلسها .. كانت تستمع بشغف إلى الدروس التي كان يلقيها مولانا على تلاميذه خاصة قصص الأنبياء والصالحين .. تسنى لها أن تحفظ ما يردده الصغار من

قصار السور .. تعلمت كيف تتوضأ وتصلي مستقبلة القبلة .. امتلأ قلبها الصغير بالسكينة والغبطة .

شيئاً فشيئاً تعهدها مولانا بالتنشئة والرعاية .. جاهداً كي يصنع من هذه الخامة التي لم تتشكل بعد .. امرأة .. وزوجة .. وأماً .

أفلتت خديجة من المصير الذي آل إليه إخوتها .. قيادة الدوش لم تكن حكيمة ولا رفيقة بهم .. طلب منهم زوج أمهم الفظ أن يكدوا ويطعموا أنفسهم .. لم يوفر لهم مأكلاً أو ملبساً .. وحين كان قلب عزيزة يرق لهم .. كان يؤنبها بفظاظة :

– كتر خيري إللي حاويكي وحاويهم في داري .. صدق المثل (واحد بذر والثاني التزم) .

انطوت عزيزة على نفسها باكية حظها العاثر .. موقنةً أنه يدخر نقوده لكي يتزوج عليها .

هام الأولاد في شوراع يافا وتل أبيب .. يلتقطون رزقهم كفافهم .. الكبير تحول من طالب في مدرسة سلمه إلى فراش في نفس المدرسة .. الأوسط حمل صندوقاً مثلجاً على شاطئ تل أبيب يبيع (الاسكيمو) للمصطافين اليهود .. الأصغر باع تذاكر اليناصيب في مواقف الباصات بيافا .

أخيراً اهتدت عزيزة إلى عمل مستقل .. ينفق عليها وعلى أولادها .. يقيها شر الحاجة إلى صدقات الدوش وما يتبعها من المن والأذى .. اشتغلت عزيزة بعمل القاورما من اللحم الطريف وبيعها لجيرانها .. ثم توسعت أعمالها فصارت تنقل قدور القاورما وتبيعها لأهل القرى المجاورة .

(19)

في الليل يأوي أبو التوفيق إلى سطح المنزل .. بعيداً عن كنته وأحفاده والطامعين في ثروته من الأهل والأقارب .. تهجع الحارة مستسلمة لنسمات الليل الرقيقة .. يخيم صمت مبرقش بأصوات الزيزان والجنادب .. ونقيق الضفادع في بركة قمر .. يبدأ أبو التوفيق أنينه الموجع .. خافتاً في بادئ الأمر .. ثم يشتد شيئاً فشيئاً حتى يعلو على أصوات بنات آوى التي تطرز ليل الحارة بعوائها المجروح :

– آه يا راسي .. آه يا ركبي .. آه يا درعاني .. آه يا ظهري .. آه يا كل كليلي .

يظل على ذلك طوال الليل .. يقض مضاجعهم ويطرد النوم من عيونهم .. أخيراً اهتدت كنته لحيلة جازت عليه .. ولم يسمع له بعدها أنةً ولا ترجيعة شكوى .

– يا عمي خطبنالك بنت الهدار .. قالت (إيش آخذ وإيش أعطي .. الزلمة عيان .. طول الليل ما ببطل ينين ويكرب) .

صعق أبو التوفيق :

– لولو قالت هيك !!؟؟

تجرع بعدها أبو التوفيق الكأس وحده .. انطوى على مواجعه وكتم أنينه في صدره ..

وضع سمه في تجارته .. نهاره كله في البيع والشراء .. وعقد صفقات الضمان للغلال والمحاصيل .. ونقلها من الكروم البعيدة إلى المسطاح خلف البد .. حيث تحمل إلى أسواق المدينة .. أو يأخذها خليل إلى محطة القطار الصاعد إلى حيفا ..

زادت عصبيته وازدادت أطواره غرابة يوماً بعد يوم .. أما فظاظته مع جيرانه والعاملين لديه فقد فاقت كل حد .. شتائمه أصبحت منتقاة ومن الزنار ونازل .. يتحف بها القريب والبعيد ..

خليل لم يسلم من أذاه وطول لسانه .. خاصة بعد أن رفض السعي له في خطبة بنت الهدار ..وقال له : (يا عمي هادول ناس دون .. ومش من مجاويزنا .. أكيد عينهم عالمصاري .. ومش هاين عليَّ شيبتك تتبهدل .. وبعدين أولادك أولى يخطبوا لك) .

تنهد أبو التوفيق : (أولادي ما بدهم حداً يشاركهم في الورثة .. مشعل والديناري غاروا في ستين داهية .. بلعتهم يافا .. اللي زي القبر ما بترد حداً .. وعبد الحميد من يوم ما دخل الدكان وهوه نازل حش .. لما صار زي فار القرعة .. ساق الله على أيام ما كان الدوش في هالبلد ذراعي اليمين .. يمشي كلمتي على الكبير وعلى الصغير .. أخذ عزيزة وأولادها على سلمه .. وما عدنا نشوفهم إلا كل موتة يهودي ..)

كم مرة أمسك أبو التوفيق مرفق خليل وهزه :

– أنت يا خليل مهيوب في الحارة ومسموع الكلمة .. ولو هاودتني في هالموضوع .. بحط لولو في حضني وبغني في الهوى يا ليل .

ظل خليل على عناده وأبو التوفيق يلاحقه بالسؤال .. حتى جاءت اللحظة الفاصلة التي انتظرها أبو التوفيق طويلاً ..

راضية التي خافت على زوجها مغبة التحاقه بالشيخ عز الدين القسام .. لجأت إلى والدها لكبح جماحه وإعادته إلى الطريق السوي .. باحت لوالدها بسر زوجها وهي تجهش بالبكاء .

- بدو يودي حالو في داهية .. إذا قتلوه الإنجليز ولا ترسوه في الحبس .. مين بدو يربي قطاطيم اللحم اللي سايبهم في حجري .. أنا في عرضك يابا .. تنصحو وتحطللو عقلو في راسو .

فرك أبو التوفيق كفيه بفرح غامر (خليل وقع وما حدش سمى عليه .. والله وقرب بعيدك يا بنت الهدار) .

استمطر أبو التوفيق اللعنات على رأس خليل ووعد راضيه خيراً .. أوصاها أن لا تتفوه بالسر أمام أحد .. هز سبابته في وجهها :

- لو وصل الخبر لمشعل رح يبيعو للإنجليز بأبخس ثمن ..

شحب وجه راضية :

- الله لا يسمح ولا يقدر .

رجع خليل من حيفا .. استقبله أبو التوفيق هاشاً باشاً على غير عادته وأجلسه إلى جواره :

- إيش أخبار حيفا ؟

قال خليل :

- بخير .

- بقولوا فيها شيخ متصل وسرو باتع .. وبلقي الحيط عالحيط .. بخلي بالة الصوف تحبل وتولد .

حملق خليل في حماه غير مصدق .. إذا فقد طفح الكيل براضية وباحت بسره .

- ليش إِصْــفَــرْ وِشّكْ .. واخّتَشيت .. سرك في بير .. بس أنا خايف الخبر يبلغ مشعل .. وإنت عارف وشو مغسل بشخاخ .. لا عندو ذمة ولا ضمير ..

هز خليل رأسه :

- الستره على الله .

قال أبو التوفيق في سره : (رقبة خليل إجت في الخية .. ما عَلَيّ إلا اشد وأسحبو وين ما بدي) ..

ربت أبو التوفيق على ظهر خليل بحنو بالغ :

- وقتيش بدك تخطبلي بنت الهدار ؟ إنت عارف يا خليل إنو اللي بموت أعزب بموت ناقص دين .. الله لا يميتنا إلا على فراش الحلال .

كان خليل يعرف أن البضاعة التي يحضرها من حيفا لا تأخذ طريقها إلى السوق إلا بعد أن يقتطع منها نصيب آل الهدار .. راضية نقلت إليه ما يتهامس به أهل الحارة عن لولو و زياراتها المتكررة لدكان أبو التوفيق .. تحمل منها ما لذ وطاب .. دون أن تدفع شيئاً .. تقول له : (سجل يا عمي عالحساب) .. فيجيبها : (الحساب واصل يا غالية يا بنت الغاليين) .

لم يقف الأمر عند حدود الزيت والدخان والسكر .. وبضاعة الدكان .. بل إن أبو التوفيــق من أجــل أن ينضج الثمرة التي يتحلب لها لعابه .. صار يغدق عليها هداياه .. مناديل الأوية .. القمايش .. الحلي التي ليس لها في الحارة مثيل .

جاءته والدكان خال إلا منهما .. ذكرت له ما تريد ابتياعه .. كان ذاهلاً عن سماع شئ مما قالته .. حدق في صدرها وهي تنحني وتستند بمرفقيها على البسطة أمامه .. تفجرت قريحته بالغناء :

– سألت الاسم .. قالت لي لولو ..

رمــان الموســم أول نزولو ..

خدك هالقمــر من وين أطولو

يا أم الســوالف تتعــس للنوما

أطلقت ضحكتها المجلجلة وغنجت :

– وين بدك تنيمني ؟

تنهد أبو التوفيق :

– قولي آه يا بنت الهدار .. والله لأبنيلك عُلِّيه ما إلها مثيل .. عُلِّيه ما نامت فيها مرة في هالحارة ولا بنت بنوت .

أغنية أبو التوفيق ترددت على شفاه كل بنات الحارة حتى وصلت إلى راضيه . ها هو أبو التوفيق أخيراً يبتز خليل وصولاً إلى مبتغاه .. في هذه المرة لا يستطيع خليل التنصل أو المراوغة ..

رانت فترة صمت قبل أن يحزم خليل أمره :

– دار الهدار أكلوا مالك ونعوا حالك .. آن الأوان لنوقفهم عند حدهم .. الليلة بروح معاك ومع وجوه الحارة وبنخطبها لك رسمي .. ثم أكمل في سره : (والهدار الكلب .. يا بِحُطْ يا بِنُطْ ..)

جمع أبو التوفيق وجوه أهل الحارة وذهب في معية خليل .. طلبوا البنت .. لم يكن والدها في صدد الاستغناء عن مؤن أبو التوفيق .. ولا في وارد التضحية بها على فراش هذا العجوز الأحمق .. لجأ إلى المماطلة .. استأذن الحاضرين لمشاورة البنت حسب ما تقضي الشريعة .. معولاً على عدم موافقتها .. لولو عاجلته قبل أن يقوم من مجلسه .. مدت رأسها من خصاص الباب .. قالت بصوت سمعه الجميع :

– توكل على الله يابا ..

أسقط في يد الهدار .. اضطر للإستجابة .. قرأوا الفاتحة وحددوا الخميس القادم موعداً لكتب الكتاب .. اشترط الهدار أن تؤجل الدخلة لحين عودة جدها من الحجاز .. مؤملاً أن يدرك أبو التوفيق الأجل قبل أن يحظى بها .

انهالت التهاني على أبو التوفيق .. مبروك يا عريس .. تغلبها بالمال .. وتغلبك بالصبيان ..

انصرفوا وهو يتأبط ذراع خليل سعيداً منتشياً .. أقسم لخليل أنه أحب إليه من كل أهله .

– عليه الطلاق بالثلاثة من اللي لسه بدي أتجوزها .. إني بحبك أكثر من أولادي اللي من صلبي ..

مد يده في جيبه وتناول صرة من النقود .. وضعها في يد خليل :

– اكسي راضيه والأولاد كسوة عرس .. علشان نبين قدام دار الهدار وأهل الحارة .. وإذا كان على بالات الصوف اللي بتحشي فيها البلاوي .. أنا مسامحك .. في الفايدة ورأس المال .. فداك يا خليل .. هوه الوطن إلك لحالك .. هادا وطنا كلنا .. والجهاد فرض عين .

حين عاد خليل إلى البيت سمع راضية تنتحب .. ولم تتوقف عن البكاء طوال الليل .. وفي الصباح ملأت جرة ماء من الجماقية وذهبت إلى المقبرة .. سكبت الماء فوق قبر أمها وهي تهمس :

– حاسه يما بالنار إللي هبت في ديالك من عمايل أبويه .. إللي ما تمرت فيه العشرة .. وهانت عليه .. منو لله أبو التوفيق ختم لشيبتو بالشنا وقلة التنا .. بدل ما يقول يالله حسن الختام .

(20)

بعد ستة أشهر من انتقال خديجة الطفلة إلى فراش زوجها .. ظهرت عليها أعراض الحمل .. كان وحامها قاسياً .. خض جســدها النحيل الغض .. تلوت مثل دودة .. تقيأت على الفراش وعلى ثيابها وعلى كل شبر في الفناء .. توقفت عن تقديم المساعدة التي اعتادت تقديمها لحماتها .. لم يعد لديها قوة للكنس أو التحطيب أو جلب الماء من الساقية .. لم يخف الأمر على حماتها .. لكنها ادعت عدم فهمها لما يحدث .. انتهزتها فرصة لكي تضرب كنتها وتشد شعرها .. أجهضت الصغيرة في شـــهرها الرابع .. شعرت حماتها بتأنيب الضمير وهي تراها تذبل بين يديها يوماً بعد يوم .. أخيراً رقدت في المستشفى بين الحياة والموت .. أصابها نزيف حاد .. جاهد الأطباء طويلاً حتى أبلت من سقامها .. غادرت المستشفى إلى البيت .. مولانا لم يعد إلى فعلته التي كانت سبب بلائها ..

تجنبها عامين آخرين .. كبرت الفتاة .. امتلأ عودها .. توردت وجنتاها .. حتى الجيران لاحظوا ما طرأ عليها من التغير .. قالوا لحماتها :

– ما شاء الله عليها كنتك .. اتبنتت وصارت واتصورت .. صدق المثل (يا ماخد الصغار .. يا غالب التجار) .

علقت حماتها ساخرة :

– كبر البصل واتدور .. ونسي زمانو الأول .

مولانا غمرته السعادة حين اشتد عود فتاته .. عاود التقرب إليها .. غمرها بالهدايا .. قادها إلى غرفته ثانية واجتمع شملهما من جديد .

هذه المرة لم تكن أعراض الحمل قاسية ولم يكن الوحام صعباً .. بدأ الحمل يظهر عليها .. كانت تتحسس بطنها كل يوم .. تابعت بشغف طفولي دبيب الحياة الجديدة في أحشائها .. صارت تعد نفسها يوماً بعد يوم للأمومة المرتقبة .

كانت تمارس أعمالها اليومية المعتادة .. هذه المرة أمنت تنكيل حماتها .. لكنها لم تأمن سخطها وغضبها .. كان أقل خطأ ترتكبه كافياً لأن تصب على رأسها اللعنات . لم تكترث لذلك كله .. السعادة الغامرة التي كان يبثها ذلك الجنين في أحشائها .. كانت كافية لتجعلها دائمة التسامح والصفح .. لفحتها الأمومة القادمة .. ملك عليها جنينها كل

مشاعرها .. تتخيل ملامحه وتلهج بما تدخر له من الأسماء .. تناجيه أو تغني له وهي تؤدي أعمال المنزل .. حماتها ظنت أنها تفعل ذلك لإغاظتها ومضايقتها ..

زادت مظاهر الحمل بروزاً .. انتفخ بطنها أكثر فأكثر .. ضاعفت حماتها الأعمال التي تطلبها منها .. تفننت في إضافة المزيد من هذه الأعمال .. الطفلة الحامل ابنة الرابعة عشره قامت بكل ما طلب منها عن طيب خاطر .. إكراماً للضيف الذي أصبح على وشك الوصول .. ولدها .. وفلذة كبدها .

في الشهر السابع .. اضطرت للمشي مسافة شاسعة لتصل إلى الساقية التي تصادف دورانها في ذلك الوقت .

عادت بالجرة إلى البيت .. أحست بلزوجة ساخنة تسيل على ساقيها .. مدت يدها تتحسس ما يحدث .. نظرت إلى يدها .. كانت مخضبة بالدم .. صرخت مرتعبة .. ضربها ألم مبرح كما يضرب البرق ما بين السماء والأرض .. سقطت مغشياً عليها .. حين أفاقت كانت قد فقدت حملها الثاني .. أخبرتها حماتها أنها أجهضت بنتاً .. وأنهم ذهبوا لدفنها تحت شور الصبر .

في اليوم التالي اضطروا لنقلها إلى المستشفى لتقضي هناك شهراً بين الحياة والموت .. كما حدث لها في المرة السابقة .

تجاوزت خديجة المحنة .. عادت لممارسة حياتها في انتظار حدوث المعجزة مرة ثانية .. لم تعد تتصرف كطفلة .. إنها الآن أم .. وأم ثاكل أيضاً .. لن ينسيها ثكلها إلا حمل جديد مظفر ينتهي بولادة طبيعية .. يعطيها رفيقاً هي بأمس الحاجة إليه .. ينصرها على حماتها الظالمة .. يعيد إليها اهتمام زوجها الذي فقدته .

لم يطل انتظارها كثيراً .. بعد ستة اشهر على إجهاضها .. حملت مرة ثانية .. هذه المرة كانت أكثر حرصاً من المرة السابقة .. لم تجهد نفسها .. لم تخاطر بجلب الماء من الأماكن البعيدة .. لم تتسلق أشجار التين والجميز والمشمش .

وضعت حملها في موعده .. طفلاً جميلاً رائعاً .. ملأ البيت حياة وحبوراً .. سماه والده أحمد على اسم أبيه المرحوم الحاج أحمد وهبه .

الدوش وعزيزة حلا ضيفين على ابنتهما .. حضرا الاحتفال بالسبوع .. أقام مولانا مأدبة كبيرة للأهل والأصدقاء .

الدوش بهرهم جميعاً بحكاياته وشطحاته .. عبد الجواد الجرو لم تنطل عليه مغامرات الدوش .. علق ساخراً : (ما أكذب من شاب اتغرب .. إلا شايب راحت اجيالو) .

سمع الدوش تعليقه .. لم يفت ذلك في عضده .. حفزه على أن يفاجئهم بحكاية تكون الضربة القاضية :

– صاحبي فرج الله الحلو .. سواق دلجنس في مينة يافا .. إلا ونازل من المركب عبد أسود شُفّه وطا وشُفّه غطا وشفه بتلقمط الحصى .. قصير .. نحيف .. لا بتاخد فيه العين ولا بتعطي .. لابس بدله إفرنجي .. وحامل شنتطو على كتفو .. حط الشنطة في الدلجنس وركب .. طلب من الحلو يوديه عالوكاندة في تل أبيب .. وصلوا اللوكاندة .. العبد ما كان معو مصاري .. طلع من جيبتو قلم ذهب وأعطاه لسواق الدلجنس .. حمل شنتطو ودخل اللوكاندة .. مشي صاحبي .. إلا ويهودي لاحقو بحم المشوار :

– تبيع القلم اللي أعطاك إياه العبد بعشر ليرات ..

سكت صاحبي وعلامات الدهشة على وشو .

– اليهودي وصل السعر لمية ليـــرة .. الحلو باع القلم وقبض المصاري وحطها في عبو .. ثاني يوم شاف صورة العبد في كل الجرايد وفوقها بالبنط العريض .. (هيلا سلاسي إمبراطور الحبشة القادم يلجأ إلى تل أبيب ضيفاً على الوكالة اليهودية) .

هذه المرة لم يعلق عبد الجواد الجرو .. اكتفى بالنظر شذراً إلى الدوش ..

أبو التوفيق أعمل فكره في الحكاية الغريبة .. أدخل إصبعيه في طاقة أنفه .. اقتلع خصلة من الشعر .. فركها وألقاها جانباً وتمتم :

– امبراطون وأسود .. هادي أول سمعه .. أي أنا شفت الإمبراطون غليون تاع ألمانيا لما زار القدس .. أشقر وعينيه زرق .. ووشو زي طبق الورد .

ظلت خديجة تنعم برعاية زوجها وحماتها التي آثرت اللين .. ولكن بعد الأربعين رجعت الحياة إلى وتيرتها .. حاولت حماتها أن تعود سيرتها السابقة لكن خديجة التي أعاد إليها الطفل اعتبارها .. وضمن لها مساندة زوجها .. قاومت جبروت حماتها ببسالة .

– اطحني يا خديجة .

– اطحني إنتِ يا مرة عمي .. الولد بدو يرضع .

– اعجني يا خديجة .

– اعجني إنتِ يا مرة عمي .. بدي أغير للولد .

– اطبخي يا خديجة .

– اطبخي إنتِ يا مرة عمي .. صدقاً عنك .. الشيخ بحب طبيخك .

- مللي الجرة يا خديجة .
- لما ييجو أولاد الكُتاب .. بملوا الجرار على الحمار .. الشيخ محرِج عليه ما أطلع من عتبة البيت .

(21)

لم يشعر خليل بكل هذه السعادة .. وبكل هذا الرضا عن نفسه طوال حياته .. كان القطار يقترب به من حيفا .. أحصى في ذاكرته ما يحمله لشيخه .. عشرة بنادق .. مائة مشط فشك .. ثلاثة مسدسات .. سبع قنابل يدوية .. هذا هو الصيد الوفير الذي عاد به من غزة .. اليطق انضم لثورة القسام بقضه وقضيضه .. صاروا يتبارون في تقديم ما يسلبونه من سلاح الإنجليز .. أو ما يسرقونه .. أو ما يبادلون عليه من الذخائر بزجاجات الويسكي الفاخرة .. والساعات الثمينة التي هي بدورها مسروقة من مخازن الجمارك .. الحرامية ومقطوعي الإيد والرجل .. صهرتهم ثورة القسام كما تصهر النار الحديد وتنقيه من الخبث .. كانوا يتابعون بلهفة أخبار الشيخ عز الدين القســام في الشمال .. يجمعون له الأنصار والمؤيدين في غزة وقراها وباديتها ..

لابد أن شيخه سوف يتهلل طرباً بهذه الغزوات الموفقة .. سوف تشرح هذه الأنباء صدر الشيخ عز الدين وتشد أزره .. تذكر خليل ما قاله له عز الدين في المرة السابقة (عافاك يا خليل .. بلغهم عني أن من جهز غازياً فقد غزى .. وأن يوم الثورة على الإنجليز والصهاينة يقترب .. هذا أوان الشد فاشتدي زيم) .

تأمل من نافذة القطار الحقول الواسعة .. الفلاحين المنهمكين في زراعة أرضهم والحدب عليها .. سرقته إغفاءة .. رأى فيما يرى النائم شيخه عز الدين يحف به رجلان .. الثلاثة في ثياب خضراء زاهية .. وجوههم تطفح بالنضارة والبشر .. أحد الرجلين كان صاحبه سعد الدين الذي بادره بالتحية وعرفه على ثالثهما ..

– هادا سليمان الحلبي .. إللي غسل عار الأمة .. وقتل المجرم كليبر.. ساري عسكر الفرنسيس في مصر .

استغرب خليل حضورهم .. فسر له سعد الدين :

– إحنا الثلاثة بلديات .. إجينا من حلب .. وراجعين لحلب .. الشــيخ (أشار إلى القسام) بدو يودعك قبل الرحيل .

نظر خليل إلى القسام كأنه يستنجد به .. ابتسم له القسام ابتسامة عريضة .. ربت على ذراعه كأنه يوصيه :

– الرباط .. الرِباط .

هب من نومه على صرير عجلات القطار .. أحس أن قلبه يوشك أن يتوقف .. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم .. كان حلقه جافاً كالحطبة .. أطلق القطار صفاراته

الأخيرة .. تباطأ حتى توقف تماماً .. كان رصيف محطة حيفا مقفراً على غير عادته .. عبثاً فتش بعينيه عن رشيد الحاج .. لابد أنه انشغل هذه المرة بما يدب من الخلاف بين حريمه .

– إن شاء الله خير .. همس خليل لنفسه .

عمال المحطة خفوا لمساعدة خليل الذي طالما ألفوا وجوده في حلقة شيخهم وقائدهم القسام .. نقلوا البضاعة إلى عربتي نقل تصادف وجودهما في المحطة ..

انطلق بهما إلى مخزن رشيد الحاج .. كانت الشوارع في حيفا مقفرة أيضاً .. والدكاكين شبه مغلقة .. عبر بوابة عكا .. رأى العمال الذين يجتمعون هناك عادة في انتظار من يستأجرهم .. يجهشون بالبكاء .. الطريق المؤدية إلى مسجد الاستقلال .. كانت خالية .. اتخذ عساكر الإنجليز مواقع لهم في التقاطعات التي تسيطر على الشوارع ..

تذكر الحلم الذي رآه في القطار .. لعبت برأسه الوساوس ..

أوقفته دورية راجلة من دوريات الإنجليز سأله الضابط بفظاظة :

– إيش في جوه باله ؟ .

مد الضابط يديه وتحسس جوانب إحدى البالات .. رد خليل :

– صوف .. صوف غنم .

اشتدت هواجس خليل :

– ماذا لو شك الضابط في حمولته ؟؟ .. وفتح إحدى هذه البالات .. إنهم يشنقون كل عربي يجدون عنده طلقة فارغة .. كم مرة سوف يشنقونك يا خليل أفندي ..

استنجد برباطة جأشه .. وهمس لنفسه : (ما بقطع الراس إلا اللي ركبو) .

أفرجت عنه الدورية .. واصل طريقه إلى مخزن رشيد الحاج .. استقبله العتالون على باب المخزن .. لم يبادله العتالون كلمة واحدة وهم يفرغون البضاعة في مكانها المعتاد .. قرب باب المخزن الخلفي .. سارعوا بالانصراف .. كأنهم يتحاشونه .. جلس على كرسيه في انتظار صديقه رشيد الحاج .. شرب الشاي والقهوة والخروب والتمر هندي دون أن يظهر رشيد الحاج .

أخيراً جاء أمين المخزن .. وهمس في أذنه :

– كأنك لم تسمع ما جرى .. رشيد الحاج سافر إلى جنين لاستلام جثامين الشهداء ..

سأل خليل مذهولاً :

- أي شهداء ؟

- شهداء الثورة ..

- أي ثورة .. لقد وعدني عز الدين أن لا يعلن الثورة قبل أن نكمل الاستعداد لها وقبل أن تصبح قوتنا معادلة لقوة الخصم .. أو مقاربة لها .. لعلني أجد عند الشيخ جواباً شافياً ..

انطلق خليل كالزوبعة إلى مسجد الاستقلال .. في الطريق لاحظ أن عساكر الإنجليز قد انسحبوا من الشوارع .. وأن عمال المحاجر السبعمائة .. الذين ألحقهم عز الدين بالثورة .. انحدروا من الكبابير إلى المدينة .. معاولهم في أياديهم .. جماهير غفيرة تتدفق على المسجد .. كأن القيامة قد قامت .

شق طريقه بين الناس بصعوبة بالغة حتى وصل إلى قاعدة المنبر .. كان هناك واحد من أعوان الشيخ .. تعرف عليه خليل في المرات السابقة .. اسمه يوسف الشايب

جلس خليل إلى جانبه واستمع مذهولاً لما حدث :

قال الرجل كأنه يحدث نفسه :

- لم نكن نعرف أنها خطبة الوداع .. مشى عز الدين إلى المنبر مطرق الرأس .. خاشعاً .. أثقلت كاهله السنون .. وحين استقر على المنبر .. كانت كلماته كما تعودنا قويةً مدوية .. شرح للمصلين الآية الكريمة (ألاَّ تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم .. وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة .. أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) .

كان في صوته تهدج .. وفي نبراته رنين ألم ممض .. في عينيه بريق من البأس والقوة والحماس ..

تابع الشيخ خطبته : (أيها الناس .. لقد علمتكم أمور دينكم .. حتى صار كل واحد منكم عالماً بها .. علمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد .. ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

الجهاد .. الجهاد أيها المسلمون .. الجهاد .. الجهاد .

ما أن أنهى خطابه حتى كان الحاضرون قد أجهشوا بالبكاء .. أقبلوا على يديه يقبلونها وعاهدوه على القتال في سبيل الله .

بعد ساعة من إلقاء الخطبة .. حوصر المسجد .. جاءت قوات كبيرة من عساكر الإنجليز للقبض على الشيخ وتقديمه للمحاكمة .. أفلت الشيخ بأعجوبه .. ودع أهله وعشيرته .. حمل بندقيته وقاد رجاله إلى الجبال .

أرسل معي رسالة إلى صاحبك رشيد الحاج .. يقول فيها :

– إنني واثق من نفسي .. إن صوتي سيجد صداه في كل مكان عند أول صيحة .. نستودعك الله .. راجين من المولى تعالى أن يوفقنا في أعمالنا في سبيل الوطن .

أطرق يوسف الشايب ثم قال في حدة :

– لابد أن الإنجليز جدوا في أثره .. ولم يمهلوه حتى يوطد أقدامه في معقله الجديد .. سأل خليل بلهفة :

– هل خرج معه أحد من اللذين نعرفهم ؟

– نعم .. كان معه يوسف الزيباوي .. عطيفه المصري .. محمد خلف .. نمر السعدي وحسن الباير .. أحمد الحاج حسن .. محمد يوسف .. أسعد الحسين .. محمود سالم .. صالح أسعد .. داوود خطاب .. معروف الحاج جابر .. يوسف أبو درة .. عربي بدوي .. الحاج أحمد الخليل .. وقد استشهد معظمهم .

حين فتشوا جثمان الشيخ عز الدين بعد استشهاده .. وجدوا في جيبه مصحفاً .. وفي عمامته ورقة كتب فيها هذا الدعاء : (أعوذ بالله من كيد الشيطان الرجيم .. في كل ما أنا عازم عليه .. أعوذ بعزة الله وقدرته .. من قدرة الكافر وآلته .. أعوذ بعزة الله وقدرته .. من كل عزة وقدرة تعاديني في أمري .. سبحان ربك رب العزة عما يصفون .. وسلام على المرسلين .. والحمد لله رب العالمين .. سألت الله أن ينصر دينه) .

فاضت دموع خليل .. تلفت حوله فوجد كل من في المسجد يذرفون العبرات .. وهم بانتظار وصول جثمان شيخهم وقائدهم .. وجثامين عترته من الشهداء .

نهنه خليل دموعه .. تناول مصحفاً عن الرف الخشبي بجواره .. رتل بصوت شجي آيات القرآن الكريم .. أنصت له كل من في المسجد بخشوع .. حتى إذا وصل قوله تعالى (عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق .. وحلو أساور من فضة قدروها تقديرا) .. تذكر خليل رؤياه في القطار .. فغص صوته .. بكى وأبكى كل من في المسجد .

ظهر رشيد الحاج .. شق الصفوف حتى وصل المنبر .. صعد ثلاث درجات حتى رآه الجميع .. وهتف :

– الإنجليز يريدون دفن القسام خفية وفي الظلام كما يدفن اللصوص وقطاع الطرق .. فماذا تقولون .

رفع يوسف الشايب ذراعيه وصرخ بأعلى صوته :

– الإنتقام .

ردد الناس صرخته وانطلقوا خارج المسجد والكلمة تجلجل في سماء حيفا . الإنجليز الذين تصادف وجودهم في الشوارع .. انقض الناس عليهم صفعاً وركلاً .. ضابطا الشرطة جيمس ورنج كادا أن يلفظا أنفاسهما بين أيدي المتظاهرين .. أحد القطارات التي تحمل المستوطنين اليهود من حيفا إلى كوريات حييم .. استولى عليه المتظاهرون واشعلوا فيه النار .. امتد الغضب وتفشى في كل الإتجاهات .. اقتحم المتظاهرون مستعمرة الياجور رغم تعزيزات الإنجليز .

ضحى اليوم التالي نقلت الجثامين الثلاثة في موكب رهيب إلى الجامع الكبير .. صلى آلاف المسلمون عليهم صلاة الجنازة .. أبنهم الشيخ يونس الخطيب (1) قاضي مكة الأسبق .. رفعت الجثامين على الأكف وانطلقت من المسجد عبر شوارع حيفا وسط تكبيرات الجموع وزغاريد النساء اللواتي واكبن الجنازة من السطوح والشرفات والنوافذ ..

خلف النعوش الثلاثة سار الوجهاء والزعماء ورؤساء الأحزاب الموالون للحاج أمين والمعارضون له صفاً واحداً .

قال خليل :

– ها هو القسام يوحد فلسطين كلها في مسيرة الجهاد .

رد عليه يوسف الشايب بقوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) صدق الله العظيم .

حين عاد خليل إلى غزة .. كانت صلاة الغائب عن أرواح الشيخ عزالدين ورفاقه تقام في كل مساجد المدينة ..

1. عمل قاضياً لمكة قبل أن يتقاعد ويستقر في مسقط رأسه عكا .

سار خليل من محطة القطار إلى مدرسة سرور الأطفال .. أحس بشوق لكي يحتضن أطفاله الثلاثة .. لعل لقاءهم يحمل له بعض العزاء في مصابه الجلل .

استقبله ابن عمه الشيخ بلهفة وصبر نافذ .. هنأه على سلامته واستمع بشغف لتفاصيل رحلته وحين ودعه قال له :

– لقد حقق القسام باستشهاده ما لم يستطع تحقيقه في حياته .. هذه بداية ثورة حقيقية في فلسطين .. لن تنتهي إلا بنيل الشعب حريته واستقلاله واستعادة حقوقه المسلوبة .

رجع بأولاده الثلاثة إلى البيت .. وضعت راضية الطعام أمامه .. نحاه جانباً .. اتجه إلى فراشه .. سقط في نوم ثقيل كأنه الموت .. لم يستيقظ إلا بعد أن اقتحم رجال التحري البيت .. قيدوه بالسلاسل وحملوه إلى معتقل صرفند .

(22)

قاد الديناري إلى سوق الجمعة الفوج الجديد من العجول التي سمنت على مذاود مولانا .. العلفة التي اختارها مولانا لعجوله أعطت أكلها ضعفين .. التبن المخلوط بكسبة السمسم مع رشة من الشعير .. كان لها مفعول السحر في نمو العجول السريع واكتسابها أوزاناً قياسية .

غادرت العجول البايكة تحف بها كوكبة من شباب الحارة الذين تطوعوا لمشاركة الديناري في توصيل العجول إلى سوق الجمعة .

أحد العجول حاول الإفلات .. رفع رأسه في الفضاء الذي يراه لأول مرة منذ دخل البايكة .. دار بعينيه في العالم الفسيح الرحب .. حتى تعامدت أشعة الشمس على جبينه .. طوح بالحبل يمنة ويسرة .. أوقع الفتى الذي كان يقوده .. قفز في الهواء انطلق كالزوبعة .. تشبث الفتى بطرف الحبل .. سحبه العجل على تراب الزقاق .. صرخ يطلب النجدة .

هرع الديناري إليه قبل فوات الأوان .. أمسك بالعجل من رقبته .. لوى رأسه حتى هوى أرضاً .. جلس على صدره وأعاد إحكام وثاقه وسط تهليل الحاضرين .

واصلت المسيرة تقدمها بالعجول الثلاثة حتى دخلت السوق .. بهرت كل من فيه .. عاينها التجار .. اكتنزت لحماً وشحماً .. جلودها لامعة وأعناقها مرتفعة .. وأكتافها نافرة وعيونها صافية .. تهافت المشترون عليها .. ضربت أسعارها أرقاماً خيالية بالنسبة لأسعار العجول الأخرى .

عاد مولانا وفي جيبه ثلاثمائة وعشرون جنيهاً كاملة .. وصلوا إلى البيت .. جلسوا يتسامرون في انتظار الطعام .. منح مولانا ابن عمته الديناري عشرين جنيهاً حلالاً زلالاً مكافأة له على خدماته .. قال الديناري وهو يخفي النقود في عبه :

– لله درك .. ها أنت تجمع في بيتك بين أعلى الأشياء وأخس شئ .. ثم أضاف وأجمل الأشياء .

حدق فيه حسين مستوضحاً .. فتابع :

– أعلى الأشياء هو العلم الذي شرح الله به صدرك .. فشرحت به صدور تلاميذك .. تابع حسين إنصاته لابن عمته .. وتابع الديناري :

– أما أخس الأشياء فهو .. خدمة العجول في زريبتها .. وما يتطلبه ذلك من جرف فضلاتها وتنظيفها وتعهدها بالطعام والشراب ..

ضحك حسين .. وقال :

– خذوا الحكمة من أفواه المجانين ..

لم يكترث الديناري بتعليق صديقه .. اكتراثه بحلة المقلوبة التي وضعتها خديجة أمامه .. رفع الحلة عن الصينية فتوهج الأرز الأصفر تحت شرائح الباذنجان والبطاطا المقلية وقطع اللحم المحمرة .. ملأت رائحة الطعام خياشيمه .. تحلب لعابه .. سأله حسين :

– وأجمل الأشياء .

ضحك الديناري .. وهو يقرب إليه الطعام :

– وجه خديجة .. ابنة أختي التي سعيت لك فيها حتى حفيت أقدامي .

ضحكت خديجة مزهوة :

– صلي عالنبي يا خالي .. ما بحسد المال إلا اصحابو .

حين فرغوا من تناول الطعام .. تمددوا على الحصير الذي فردته لهم خديجة تحت الجميزة .. مستسلمين للنسائم التي هبت عليهم من البيارات البعيدة .. محملة بأريج زهور البرتقال والليمون ..

قال حسين :

– لم تحدثني عن يافا .. كيف تركت الناس هناك ؟

– الناس في يافا فوق الريح .. رزق تزوج ابنة جيرانه في سلمه .. واسمها جميلة .. سـمره وسمارها قادح .. بس دمها خفيف .. رزق صار معلم بناء من الدرجة الأولى .. يتهافت عليه المقاولون في يافا وتل أبيب .. عزيزة تواصل صناعة القاورما .. يحضر لها أولادها اللحم الطريف [(1)] من تل أبيب .. بأسعار بخسة .. تطبخه بالدهن وتسكبه في قدور الفخار .. اتخذت ركناً لها في سوق البلابسة في يافا .. صار لها زبائن كثيرون من أهل المدينة وفلاحي القرى المجاورة .

1. ذبائح اليهود التي لا يجيز الحاخام أكلها لعدم مطابقة الذبح للشريعة اليهودية .

فايز وفايق مازالا يعملان في ورشة الألماني وجنر .. برواتب محترمة .. فايز ينفق ماله على شلة من القبضايات ومساحي الجوخ .. فايق فصل سبع بدل إفرنجية ..

كل بدلة بلون .. يقسمها على ليالي الأسبوع السبعة .. يختص كل واحدة من عشيقاته ببدلة خاصة .. حين تفتشها وهو نائم لا تجد فيها أثراً يدل على غريماتها الأخريات .. تقر عينها ولا تشك في أمانته وإخلاصه .

مدحت وهبه رغم انشغاله بتجارة الحمضيات لا يعدم الوقت لمجالسة كبـــار القوم .. الزعماء والقادة الوطنيين .. الموالين للحاج أمين والمعارضين له من جماعة النشاشيبي يلتقي هؤلاء في مقهى الحلواني أول الليل .. أما في آخر الليل فإنه يقضي سهرته مع اليهود وكبار الضباط الإنجليز في بانسيون روزا أو بار عـــدن بشارع هرتسل .. لا يفوته من أولئك وهؤلاء شاردة ولا واردة ..

قاطعه حسين :

– لماذا لم تذكر شيئاً عن أخي حسن ؟

– أبوعلي أتم بناء عمارته بين يافا وتل أبيب .. العرب رفضوا السكن لديه .. ظلت العمارة خالية عاماً كاملاً واليهود يفاوضونه على شرائها بأضعاف ثمنها وهو يرفض ذلك بصلابة .. أخيراً اختار أهون الشرين .. أجـــرها لليهود .. صارت زي ســـفينة نوح .. روس على ألمان على بولش .. على طلاينه .. الوحيد فيهم الذي يتكلم العبراني بطلاقة هو حسن .. والباقين لسه يا دوب بحكو عبراني مكسر .. دبت الحروب بين الأسباط الإثني عشر .. فانشغل حسن بحل مشاكلهم .. نواره تسميه قاضي اليهوديات .

الحروب بين سكان عمارته من اليهود لا تنتهي إلا حينما يلعلع رصاص الثوار في المناطق المجاورة .. أو تصل مظاهرات العرب إلى أطراف تل أبيب .. لكي ترشق بالحجارة ما تيسر من المباني والدكاكين .. عندها ينسى الأسباط في عمارة حسن خلافاتهم ويوحدهم الخوف والهلع .. أيقظته إحدى الساكنات في منتصف الليل تشكو جارتها في الشقة المقابلة لأنها خطفت زوجها .. فلم يحر جواباً .. قالت له زوجته ساخرة :

– قاضي النسوان شنق حالو .

أدرك مولانا لماذا تهرب الديناري من ذكر أخبار حسن .. التي أصبحت تحرج متعصباً لوطنه مثله .

أراد مولانا أن يغير الموضوع فقال لضيفه :

– جريدة التيمس اللندنية تدعي في آخر مقال لها أن المفتي هو العقبة الوحيدة أمام حل القضية الفلسطينية والتفاهم مع اليهود .. تقول الجريدة (لولا الخوف من محمد أمين الحسيني لظهر كثير من المعتدلين على المسرح .. وعلى الحكومة البريطانية ألا تترك الساحة خالية لنشاطه .. بل عليها أن تقيله من مناصبه وخاصة من رئاســة المجلس الإسلامي الأعلى .. وأن تلجأ لاستخدام القوة ضده وضد القسم المتعصب المتطرف من المحيطين به الخ ....) .

جريدة الدفاع نشرت قصيدة ترد فيها على مزاعم التيمس اللندنية جاء فيها ..

مسرى النبي ومهد عيسى لن يزولا .. لن يزولا

وبرغم أنف صحيفة التيمس التي ضلت ســـــبيلا

ســـنظل أهــلا للبــلاد وخصمنا العبــد الذليــلا

ويظل أهل السبت يبكون الخيــال المســـــتحيلا

القصيدة الآن من الشعر المقرر على تلاميذ مدرستي وقد حفظها معظمهم .

جاءت خديجة بأطباق الفاكهة .. ألقت التحية ووضعت الأطباق أمامهم .. وسألت خالها عن زوجته وأولاده .

قال الديناري :

– من يوم ما أتجوزت وأنا بشروا أهلي .. عملي بأكلي .. سيدك أبو التوفيق مزاريبو بتشقع لبره .. يا دوبك على دار الهدار وألاطيشهم .. وإذا زاد إشي من وراهم كوش عليه عبد الحميد .. وخالك مشعل لا منو ولا كفاية شرو .. بدو يشغلني في إقامة المحفل البهائي في المجدل .. (واحد صُرمو مدللي والتاني بقول هاتوه لقطتنا) .. وزاد الطين بله .. انو جَــوّزْ بنتو لبهائي مصري مش عارفين أصلو من فصلو .. أنا رفضت أحضر العرس والعيلة كلها قاطعتو .

لما عرف أبو التوفيق .. قال : الله يسترنا فيه بالموت .

اهتز المشغل كله حين وصل مدحت وهبه لتفقد العمل .. كان بصحبته زوج إبنة لامبيدس الكبرى .. الخواجا ماركوس كابتن السفينة فينيس أكبر سفن النقل التي يمتكلها لامبيدس .. ومعه العقود التي أبرمها المعلم الكبير في العدوة الأخرى من البحر .. كان على مدحت وهبه أن يشحن على السفينة فينيس عشرين ألف صندوق برتقال شـــموطي من بيارات يافا وحيفا .

قال ماركوس :

– السوق يتنامى بسرعة والطلب يتزايد .. المستهلكون ينتظـــرون برتقـــالكم ليرطـــب حلوقهم ويبل ريقهم .. صار برتقال يافا معلماً من معالم الصيف فـــي أوروبـــا .. وإلا بماذا يتلذذ رواد الريفيرا حينما تحرق جلودهم الشموس .

سأل مدحت وهبه ضيفه :

– لاحظت أن سفينتك استبدلت العلم اليوناني بالعلم الأمريكي ..

قال ماركوس :

– هذه أوامر المعلم الكبير .. نذر الحرب تتجمع في أوروبا وسوف تكون حرباً ضروساً ومريرة وما حدث في الحرب العالمية الأولى سيكون بالنسبة لها لعب أطفال .. يقـــول لامبيدس أن أمريكا هي الدولة الوحيدة التي لن تكتوي بنار الحرب .. سجل كل بواخره في نيويورك ورفع عليها العلم الأمريكي .. نقل مكاتبه إليها وهو يعمل على الحصـــول له ولبناته وأنسبائه على الجنسية الأمريكية .

ران صمت عميق .. باغت ماركوس مدحت :

– لماذا لا تحصل أنت لنفسك أيضاً على الجنسية الأمريكية .. يستطيع المعلم أن يـــدبر الأمر لك بسهولة ..

قال مدحت بعد أن تأمل في حديث ضيفه :

– تريدني أن أهاجر إلى أمريكا .. وهل هناك مكان أجمل من هذا الذي تراه أمامك ..

أشار إلى الطريق الساحلي الذي تكتنفه بيارات البرتقال وتنهد :

– يهود أوروبا يتدفقون على هذه البلاد ويدعونها بلاد السمن والعسل .

– مغفل .. ألا تعلم أنه مقابل كل يهودي أوروبي يهاجر إلى فلسطين .. هناك عشـــرة يهود يهاجرون إلى أمريكا .. إن االيهود الذين يقصدون فلسطين هـــم المخـــدوعون أو الذين تقطعت بهم السبل .. إنهم حثالة يهود أوروبا وليسوا زبدة يهود أوروبا ..

لقد راهن يهود أوروبا فيما مضى على بريطانيا العظمى ولكنهم الآن علـــى مـــا يبـــدو يبدلون رهانهم القديم .
الإمبراطورية القادمة في هذا العالم ستكون أمريكية وهـــم يطمعـــون أن تكـــون هـــذه الإمبراطورية لهم .

استقبلهما على باب المشغل الوقيف واقتادهما إلى مراحل العمل المختلفة .. كان كل شئ يجري بانتظام ..العمال مثل خلية النحل يعملون بلا هوادة .. بدأت الجولة مـــن الأشجار المثقلة بالثمار .. يحيط بها القصيصة .. مقصاتهم في أيديهم لا تكل .. يقطفون الثمار ويعبئونها في السلال الفارغة على أكتاف الصبية .

أشار إليهم الوقيف وهمس في أذن مدحت وهبه :

– السنة القصيص بياخذ ثلاثين قرش يومياً .. بس الشـــهادة لله الشـــباب بســـتاهلوا .. بقصوا الحبة من غير ما يخدشوها ولا يجرحوها .. شغل معلمين .

تابع مدحت وهبه الأولاد والبنات الذين ينقلون بسلالهم المحصول إلى الكـــوم .. قال في ســـره : (البنات أكثر مـــن الأولاد في هالموسم .. رزقك تحت رجليـــك يـــا مدحت .. نقي واختار) .

تفقد حاملي الطوالات الذين يجذبون بعصيهم الطويلة المعكوفة الفـــروع العاليـــة لتصبح في متناول القصيصة .

تفقد السلالم وعمال السيبة الذين يضعونها تحت أقدام القصيص لمســـاعدته فـــي الوصول إلى الثمار العالية .

أخيراً وصل الموكب إلى المشغل وبدأ مدحت وهبه يشرح مراحل العمل لضيفه

– هؤلاء الجالسين متقابلين على جانبي الكوم هم (النقيضة) .. وظيفتهم فرز البرتقال السليم الصالح للتصدير ووضعه أمام (اللفيفة) الذين يجلسون أيضاً متقابلين كما تـــرى يلفون الحبات بالورق المعقم ويضعونها أمام الإستفادور .. الإســـتفادور يقـــوم بـــرص الحبات الملفوفة بالصناديق حسب أحجامها .. أنظر إليه .. حينما ينتهـــي مـــن تعـــبئة الصندوق يضرب عليه بيده .. فيأتي (العيين) الذي يحمل الصـــندوق إلـــى النجـــار لإغلاقة .

بعد النجار تنقل الصناديق إلى الدهان الذي يدهن عليها الماركة ..
تنقل الصناديق على ظهور الجمال إلى مدخل البيارة حيث تنتظرهـــا الشـــاحنات الـــتي تحملها إلى الميناء .

أنهى مدحت وهبه جولته .. ودع ضيفه وداعاً حاراً ..

انتحى بالوقيف جانباً .. أشار إلى إحدى الفتيات ..

كانت تحمل سلها المملوء بالثمار وتتمايل في طريقها إلى الكـــوم .. طويلـــة .. ممتلئة .. مكتنزة الأرداف .

لم يبدُ على الوقيف هذه المرة حماسه المعهود في تقديم الفتيات لمعلمه .. قـــــال بلهجة متبرمة :

– البنت خطيبها معها .. وناس بتقول إنو لسه ما خطبهاش .. بس حاطط عينو عليها .

ثم تابع محذراً :

– هادي من الكويكات .. أهل الكويكات صعبين ..

شخر مدحت وهبه :

– إنت بتشتغل معي ولا مع أهل الكويكات .

– أنا محسوب شواربك .

فح صوت مدحت في أذنه :

– إبعتها لي الليلة على الشدروان .. من غير ما خطيبها يحس ..

ثم أكمل في سره : (بلاش أرجع يافا على نقالة) .

فرك مدحت وهبه إحدى يديه بالأخرى وهو يغمغم :

– البنت مغوزلة .. والله معطيها الصحة .. وريحتها بتعبق عبـــق .. شـــموطي علـــى فرنساوي .. على كلمنتينا .

تحسس زجاجة الويسكي في جيب سترته :

– شفتين من هالقتولي بتصير البنت كوكتيل .

أطلق عقيرته بالغناء :

بير زمزم عليه   حارس لا ينـــام

والعطاشى عليه   زي رف الحمام

(24)

أعلنت يافا الإضراب .. أغلقت المحال التجارية أبوابها .. توقفت الحركة في الشوارع تماماً .. حذت باقي المدن حذو يافا واحدة بعد الأخرى .. تبنت اللجنة العربية العليا الإضراب في عموم فلسطين .. أغلقت الموانئ .. شلت حركة قطارات السكة الحديد .. أغلقت المدارس و المتاجر والدكاكين .. حتى في القرى النائية .. توقفت السيارات والشاحنات عن العمل .

لأول مرة وجد الشيخ حسين نفسه مخالفاً لإجماع الأمة .. حمل سؤاله إلى كل من له أذن للسمع :

– لماذا تغلق المدارس ؟؟ العلم هو سلاحنا .. الجهل والأمية والتخلف عن العالم المتحضر هي أسلحة في يد أعدائنا ينالون بها منا .. حمل إصبع الطباشير وكتب على السبورة التي خلفه بخط عريض :

– لا يبلغ العاقل من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

أخيراً حزم أمره وقرر التحدي .. فتح باب مدرسته على مصراعيه .. استقبل تلاميذه الذين ملوا من التسكع في الشوارع والأزقة .. ومعاركة بعضهم بعضاً ..

فاجأ قراره لجان غزة .. أوفدوا إليه قائد المنطقة مدحت الوحيدي لينذره ويحذره من عواقب فعلته ..

بدلاً من أن يقنعه الثوار بإغلاق مدرسته .. أقنعهم هو بالالتحاق بصف محو الأمية في مدرسته مساء كل يوم .

مدحت الوحيدي .. اختلى بقادة الفصائل الآخرى وقال لهم :

– مولانا عنده ترخيص من المندوب السامي بتعليم الكبار في مدرسته ليلاً .. هذا الترخيص هو ما نحتاج إليه .. نعقد إجتماعاتنا في مدرسته كل ليلة دون أن نخشى دوريات الإنجليز التي تداهم البيوت والبيارات بحثاً عنا .. ما أظن أن هذا الشيخ المتحمس لوطنه سيخذلنا أو يشي بنا .

سكت لحظة ثم تابع :

– سيكون على كل منكم أن يحمل كراسة وقلماً .. فإذا تعلمتم منه شيئاً قبل أن يلتئم اجتماعنا .. نكون قد صدنا عصفورين بحجر .

شخر عرفات العلي محتجاً :

– بعد ما شاب ودوه الكتاب .. فرضاً ساقها الشيخ ونزل فينا ضرب .

ضحك مدحت الوحيدي وقال :

– اللي ما بحفظ درسو بستاهل تنحط رجليه في الفلقة وياكل علقة مرتبة .

لم يشاركهم الشيخ في جلسات التخطيط للعمليات .. ولم يهتم بمعرفة ما يجري في كتابه بعد انصراف تلاميذه كل ليلة .. كان يقرأ في جرائد اليوم التالي ما تمخضت عنه هذه الاجتماعات .. القطارات التي نسفوها .. معسكرات الإنجليز التي أطلقوا عليها النار ..

لم تكن خسائر الإنجليز كبيرة .. وأحياناً لم تكن هناك خسائر على الإطلاق ولكن المناوشات اليومية كانت معيناً لا ينضب لصحف اليوم التالي .

سمعهم ذات ليلة يقررون مهاجمة مركز الشرطة البريطانية المتمركزة على سطح مبنى الحكومة المواجه لمقام أبو العزم .

نصب الثوار بنادقهم في مقبرة حارة التفاح وتمترسوا خلف شواهد القبور .. أطلقوا النار من بنادقهم القديمة باتجاه مبنى الحكومة .. الإنجليز بادلوهم إطلاق النار من سطح المبنى .. المسافة الشاسعة بين الطرفين لم تكن تسمح لأحدهما بأن يكون في مرمى نيران الآخر .. استمر إطلاق النار طوال الليل .. لم تسكت زخات الرصاص إلا بعد طلوع الفجر .. انتهى الاشتباك دون وقوع إصابات في الجانبين .. الجرائد ظهرت في اليوم التالي بعناوين رئيسية .. (الثوار يُصلون الإنجليز ناراً حامية .. غزة تشهد ليلة لم تشهد مثلها منذ الحرب العالمية الأولى) .. حين رأى مولانا الثوار في اليوم التالي يتصفحون ما كتب في الجرائد ويهنئون بعضهم بعضاً قال لهم مازحاً :

– أثخنتم الإنجليز .. ما أظنهم يصمدون أمامكم وقد لحقت بهم كل هذه الخسائر .

تفرس مدحت الوحيدي في وجه مولانا لكي يعرف إن كان ما يقوله على محمل التحريض واستثارة الهمة أم على محمل السخرية .. أخيراً رد على الشيخ :

– الطلق اللي ما بصيب بدوش .

ضحك مولانا وهو يسلم بوجهة نظر تلميذه الجديد وتابع مازحاً :

– إذا كان هيك يا مدحت معاك حق .. بس على شرط تعرّف الشباب النون أكم نقطة إلها ونقطتها من فوق ولا من تحت ..

مدحت الذي نال قسطاً وافراً من التعليم في مدارس الحكومة استجاب لدعابة الشيخ :

– النون نقطة من فوق .. والتا نقطتين من فوق .. والثا ثلاث نقط من فوق .. والجيم نقطة من تحت .. والحا ملهاش نقط .. والخا نقطة من فوق .

قال مولانا لعرفات العلي :

– إنت عليك تحط النون في جملة مفيدة :

رد عرفات :

– بس هيك .. خود عندك .. (نَوَر وإلتقوا بزُط) .. وأشار بيده إلى الحاضرين .

علق مدحت الوحيدي بامتعاض :

– نطقك سعدك يا بني آدم .

تدخل رضوان غزال ليظهر فصاحته على الملأ :

– ليش ما قلت (نون والقلم وما يسطرون) .

شخر عرفات العلي :

– عليه الطلاق هادي مش من عندو .. هادي جايبها من عمو الشيخ إبراهيم غزال إمام جامع الأيبكي .. اللي لفتو حِمِل جَمَل .

ضحك الآخرون .. فتحوا دفاترهم .. أخذوا يستذكرون مع مولانا دروس الأمس

راقبهم مدحت الوحيدي بسرور بالغ وهم يأخذون دروسهم على محمل الجد ..

وقال في سره : في حضرة مولانا لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

بمرور الأيام .. ازدادت هجمات الثوار .. أصبحت أكثر جرأة وأدق تخطيطاً وأثخنت الإنجليز حقاً .. انخرط الشعب كله في الثورة ..التف حول قيادته مسترخصاً كل التضحيات .

اقتحم أبو حامد شاويش الدريسة [1] صف محو الأمية .. لاحظ الجميع أنه استبدل الطربوش بالكوفية والعقال .. تنفيذاً لقرار الثورة التي طلبت ذلك حتى يستطيع الثوار الملثمون بأطراف كوفياتهم الإختفاء وسط الجمهور دون أن يلاحظهم رجال التحري .. تهامس الحاضرون (أبوحامد شلح الطربوش وانضم للثورة) .. اتخذ مقعده إلى جوار الشيخ وهمس في أذنه :

- أنا في عرضك يا مولانا .. صاحبك بدو يطخني ..

أشار إلى مدحت الوحيدي .

اضطرب الجالسون في مقاعدهم .. جماعة مدحت تحسسوا مسدساتهم .. أيقنوا أن تصفية الرجل واقعة لا محاله ..

طمأن الشيخ شاويش الدريسه :

- وصلت يا أبو حامد .. لن يمسك سوء بإذن الله .

ثم تابع :

- كل عقدة ولها حلال .

استغرق الشيخ في مراجعة دروس تلاميذه .... فوجئ الشاويش بعدد من عماله ينهمكون في تعلم القراءة والكتابة .. بعضهم أحرز تقدماً كبيراً .. شاقته نفسه للتعلم مثلهم .

قال في سره : على الأقل أتعلم كيف أوقع باسمي .. بدلاً من أن أبصم كما تبصم الحمير بحوافرها .

حين فرغ الشيخ من المراجعة سأل شاويش الدريسة :

- لماذا اتهمت مدحت ؟

- مدحت هددني بالقتل إذا لم أنزع قضبان السكة الحديد على طريق غزة اللد .. هل تعرف كم عائلة تتعيش من السكة الحديد .. لو فعلنا ذلك سنموت جوعاً .. وسوف يستبدلنا الإنجليز بعساكرهم أو بعمال مصريين .. سيعيدون تثبيت القضبان .. لن تتوقف القطارات .. ألا يكفي ما جره علينا الإضراب من مصائب ..

1. **الدريسة : ورشة تصليح قضبان السكة الحديد .**

أضرب عمال الميناء في يافا شهوراً طويلة .. سمح الإنجليز لليهود ببناء ميناء تل أبيب وفق أحدث طراز .. مات ميناء يافا وتضور العمال العرب جوعاً .. لم تعد

الشحنات التي تفرغ في الميناء لحساب اليهود مراقبة من أحد .. ميناء يافا كانت العين اللي بنشوف فيها .. وإحنا عورنا عينا بإيدنا .. لو فينا عقل بنعمل إضرابنا يوم .. وإلا يومين .. بالكثير أسبوع .. إحنا يا بنطخو يا بنكسر مخو .

تدخل مدحت :

– أنا مش مسئول عن يافا .. أنا مسئول عن غزة .. القيادة قررت تدمير خط السكة الحديد .. القرار لازم يتنفذ .

أشار الشيخ إلى مدحت بالسكوت .. قال لشاويش الدريسة :

– نحن لا نشك في وطنيتك يا أبو حامد .. دبر هالموضوع بحسن رأيك .

قاطعه مدحت :

– نسفنا القضبان في عدة أماكن .. أصلحها هذا الذي لا تشك في وطنيته يا مولانا .. أصلحها قبل الوقت المحدد لمرور القطـــار .. ذهبت جهودنـــا ومخاطرتنا بأرواحنا سدى .. القيادة قررت نزع القضبان كلها على طول الطريق وحرقها حتى تلتوي ولا يستطيع أحد تثبيتها في أماكنها بعد ذلك .

فكر الشاويش ملياً ثم قال كأنه يحدث نفسه :

– نزع القضبان أسهل من تثبيتها .. النزع لا يحتاج إلى ميزان ولا خيط .. لماذا لا تفعلون ذلك بأنفسكم ؟

تلقف الشيخ الفكرة وقال لمدحت :

– أرسل عشرة من رجالك ليندسوا بين العمال .. سيدربهم أبو حامـــد على نزع القضبان .. هؤلاء بدورهم يعلمون مائة من الثوار أو مائتين ..

شخر مدحت :

– والأدوات والمعدات اللازمة ؟

قال أبو حامد :

سنتعمد نسيان بعض العتلات والمعدات اللازمة لمثل هذا العمل على جانب الخط في مزلقان الجورة ..

أيد مولانا الفكرة :

– هيك لا بموت الديب ولا بتفنى الغنم .. العمال بقبضوا رواتبهم والثوار بنولوا مآربهم

هتف شاويش الدريسة وكأنه يريد الإطمئنان على حياته :

– استبينا يا أبو الحسن .

قال مدحت :

- استبينا .

لم يكد يكمل كلمته حتى دخل إبراهيم حماده مساعد المختار وهو يلهث .. قطع المسافة من بيارة الأطرش إلى الكتاب جرياً دون توقف :

- عساكر الإنجليز قادمون لتفتيش المدرسة .. بحثاً عن مدحت الوحيدي .. عرجوا على بيارة الأطـــرش ليصطحبوا المختار حسب ما يقتضي القانون البريطاني وهم في الطريق .. ربما وصلوا أول الزقاق .

قال مدحت :

- كم عددهم ؟

- عربتي جيب عليها رشاشات ثقيلة وثلاث شاحنات ممتلئة بالجند .

تدخل أبوحامد :

- لن تكون المعركة متكافئة .. سوف يقتلونكم وينسفون المدرسة الوحيدة التي حظيت بها حارتنا .. الرأي أن تهربوا وأن نعيقهم عن ملاحقتكم قدر الإمكان .

أمن الشيخ والحاضرون على رأي شاويش الدريسة ..

قال مدحت للشيخ :

- إذا استطعتم تأخيرهم عشرة دقائق .. سيكون هذا الوقت كافياً لكي يبلغ كل واحد من رجالي مأمنه .

أشار لرجاله بالإنصراف .. ركض هو باتجاه حصانه ا لذي كمن به أحد رجاله على سياج البيارة المجاورة .

ما هي إلا دقائق .. اقتحم عساكر الإنجليز المدرسة وأحكموا حولها الطوق .. قلبوا المكان رأساً على عقب بحثاً عن السلاح .. ولما فشلوا في العثور عليه .. اتجه الضابط وبرفقته مختار الحارة إلى أريكة الشيخ ..

هتف الضابط بعربية مكسرة :

- مدخت .. مدخت وخيدي ..

نظر الشيخ إلى تلاميذه وهتف :

- هل فيكم أحد بهذا الإسم ؟

- هزوا رؤوسهم علامة النفي .

قال الشيخ :

- الحمد لله .. الذي تبحثون عنه ليس معنا .. على كل تستطيعون التأكد من هويات الحاضرين كإجراء احتياطي .. ثم توجه إلى التلاميذ :

- ليخرج كل واحد منكم هويته .

أخرجوا هوياتهم .. أشار للضابط :

- تفضل يا سيادة الضابط .. تأكد بنفسك .

استغرقت عملية تفتيش الطلاب والتأكد من هوياتهم ربع الساعة ..

قال الضابط :

- لدينا معلومات مؤكدة أن الثوار يجتمعون عندك .. وأنهم يخفون سلاحهم في مكان ما من هــذه المدرسة .. أنصحك بالإعتراف .. نستطيع معاملتك كشاهد .. ولن يمسك سوء .. نحن نعرف أنهم يرغمونك على التستر عليهم .

تأفف الشيخ وقال بصبر نافذ :

- ثوار .. هنا في مدرستي .. لا أعتقد .. هنا تجد الطلاب فقط .. طلاب العلم .. الصغار في الصباح والكبار في المساء .

سمع الشيخ صهلة حصان مدحت وهو يبتعد .. تنفس الصعداء .. غمغم بشعر من التغريبة :

فوزان يا فوزان فوز بسيدك

واطوي البراري طي كيف الشواهين

قال الضابط وقد عيل صبره :

- لدي بلاغ مؤكد من مصدر موثوق .. أين الثوار ؟

أجاب الشيخ :

- الثوار المقيمين في مدرستي هم هؤلاء ..

التفت إلى رف الكتب خلفه وصار يتناول كتاباً كتاباً .. يقرأ اسم مؤلفه ويلقي به على الطاولة أمام الضابط ..

مهاتمـــا غانـــدي .. تجربتـــي مع الحقيقة

أبو العلاء المعري .. ســـــقط الــزنـــــد

جان جاك روســو .. العقـــــد الإجتماعي

عبد الرحمـــن الكواكبـــي .. طبائـــع الإســـتبداد

عبد الله ابن المقفع .. الأدب الكبير والأدب الصغير

أبو الطيــب المتنبــي .. نفـــح الطيــب

أستدرك وكأنه يشرح للضابط البريطاني ما يصعب عليه فهمه :

- المتنبي كان ثائراً بعض الوقت .. أما معظم وقته فقد كان مرتزقاً ..

صاح به الضابط :

- هل أنت أحمق ؟ .. أم أنك تسوق علينا الحماقة ؟ .. دلنا على مكان السلاح قبل أن نفجر هذا المكان بمن فيه .

قال الشيخ :

- سأفعل .. إذا منحتني الوقت وحسن الفهم ..

ثم تابع بأعصاب باردة :

- السلاح هنا .. في هذا الدرج ..

أشار الضابط إلى عساكره .. أزاحوا طاولة الشيخ وفتحوا الدرج .. كان مليئاً بأصابع الطباشير .. تناول الشيخ واحداً منها وهزه في وجه الضابط :

- هذا هو السلاح الوحيد .. سنتعلم به كيف نحارب أعداءنا وكيف ننتصر عليهم .

ثم اتجه إلى المختار :

- قل للضابط أن المدرسة مرخصة من وزارة المعارف .. وهذا كتاب المندوب السامي الذي يجيز لنا العمل في الليل لتعليم الكبار .. وأن عليه الإنصراف الآن قبل أن يتصرف تلاميذي بطريقة تؤدي إلى مذبحة .. أنا لا أستطيع السيطرة على تصرفاتهم وقد طال هذا الأمر أكثر مما يجب .

تدخل أبوحامد شاويش الدريسة موجهاً كلامه للمختار :

- لم تجدوا عنده سلاحاً ولم تجدوا ثواراً .. عليكم الإنصراف الآن .. وإلا سنقاضي هذا الضابط بتهمة الإعتداء على معلم حكومي أثناء تأدية وظيفته ..

كانت لهجته حازمـــة وقاطعة .. لم ينتظر الضابط ترجمة المختار لأقوال أبوحامد .. كان قد فهم كل كلمة منها .. لم عساكره وانصرف محنقاً ..

(26)

سارت رياح الإضراب بما لا تشتهيه سفن فايق وهبه وشقيقه فايز .. أغلقت محددة وجنر أبوابها .. بسبب إضراب العمال العرب .. المدخرات القليلة التي كانت لديهما نفذت في أول أيام الإضراب .. تنكر لهما الأصدقاء والمعارف .. فايز اختفى فجأة .. فايق لم يجد في أثره فهو بالنسبة له مصدر للمشاكل .. عشيقات فايق السبعة في تل أبيب طردنه الواحدة تلو الأخرى بعد توقفه عن الإنفاق عليهن كما كان يفعل أيام العز .

طال الإضراب .. اضطر فايق لبيع بدله السبعة في سوق الكانتو الواحدة بعد الأخرى .. أنفق ثمنها على طعامه وشرابه .. الثوار والوطنيون تحاشوه لمعرفتهم بعلاقاته مع اليهوديات وخشيتهم على أسرارهم من أن تتسرب إلى الجانب الآخر .. كثر تردده على بيت حسن حيث الطعام ممدود طوال الوقت والفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة .. كثيراً ما كان يلتقي هناك بمدحت وهبه الذي لجأ إلى مائدة حسن بعد أن قلبت له روزا ظهر المجن وطالبته بتسديد ما تراكم عليه من الديون .. إيجار غرفة الخواجا لامبيدس وفواتير طعامه وشرابه .. كان يتحجج أمام زوجة حسن بأن المطاعم والمقاهي أغلقت ابوابها في يافا بسبب الإضراب .. وأن النوادي والبارات التي يرتادها في تل أبيب وشارع اسكندر عوض لم تعد بمأمن من قنابل الثوار وغاراتهم المفاجئة ..

قبل نهاية الإضراب وضعت لهما زوجة حسن العقدة في المنشار ..

– أنا عندي بنتين على وش جيزة .. وروحاتكو وجيناتكو علينا كترت .. وجابتلي الحكي والكلام .. يا بتكتبو عالبنتين .. وبتسكنو معانا .. يا بتفارقونا وكل حي يعرف طريقو .

فايق الذي لوى أمعـــاءه الجوع أياماً بطولهـــا .. وسدت في وجهه أبواب عشيقاته .. أعجبته الفكرة .. تردد مدحت في القبول .. شجعه فايق :

– هادي بيعه ما حضرها صَـــرّار[1] .. بتغسل رجليك وبتخش .. لا في إيدك ولا في طرفك ..

1. صرار : رجل اشتهر بالحسد .

استسلم مدحت وهبه لمصيره المحتوم .. كتبا الكتاب في يافا .. حملهما حسن إلى غزة لكي يتم زفافهما مع أخيه حسني .. حسني خطبـــوا له فاطمة كبرى بنات

خليل .. حسن أخوه الأكبر توجه إلى معتقل صرفند على رأس جاهة ضمت الدوش ورزق والديناري ووجوه الحارة .

مدحت دبر لهم إذناً بمقابلة خليل في المعتقل .. قرأوا الفاتحة وأوصى خليل ابن عمه حسن بأن يكون وكيل العروس نيابة عنه .. قال حسن لخليل :

– إنت بطلنا وتاج راسنا وبنتك في عينينا حاضر وغايب .

في غزة المتزمتة .. الضيقة المذاهب .. افتقد مدحت وهبه الشراب .. لم تعد الخمــرة تلعب برأسه .. بدى عصبياً متوتراً .. لكنه حمل نفسه على مجاراة الذوق العام .. قال في نفسه وهو يتأمل المجتمعين في بيت مولانا :

(أهل يافا وأهل سلمة أيضاً يحلون ضيوفاً على حسين .. آكلين .. شاربين على الرحب والسعة .. حسين الذي ضرب الشلل ساقيه وذراعه اليمنى ورموا طوبته ذات يوم .. حسين الذي فر به الديناري على أكتافه مثل بقجة ثياب بالية ألقيت على حافة الطريق .. ها هو الآن يطعمهم ويسقيهم ويتكفل بنفقات تزويجهم في عرس لم تشهد له غزة مثيلاً)

تأمل قدور الطعام على النار قدراً بعد آخر .. وحلقات المهنئين الذين تقاطروا نساءً ورجالاً من كل فج عميق .. يتلذذون بالطعام الشهي أو يتفرجون على العرايس القادمات من يافا بجهــاز عز نظيره في غزة وقراها ..

سمع إحدى نساء الحارة وهي تشرح الأمر لكنتها : (ثلاث عرايس وكل عروسه .. مخيطه تسع بدل .. وكل بدله إلها شنطه واسكربينه على لونها .. غير الحومره والبودره والروايح أشكال وألوان .. قمصان النوم والبيجامات والشلحات والكلاسين المطرزة والبشاكير الكبيرة والصغيرة .. أي عليَّ النعمة كل عروسه جهازها بفتح دكان

ضربت المرأة على صدرها وتابعت :

– عرايس زي الملبن وغنجهم باليافاوي .. ما بتسمعي إلا (آلــ .. وأُلنــا .. آلــ .. وأُلنــا) .

أكدت الكنة ما ذهبت إليه الحماة .. قصعت ظهرها إلى الخلف .. وقالت بغنج مقلدة اليافاويات :

– وِلاَ .

أغرقتا في الضحك .

تأمل مدحت الرجال من حوله وهم يرتشفون القهوة .. استقر نظره على فائق .. كان منهمكاً في لف السجائر على آلة بديعة الصنع مستوردة من هونغ كونغ .. يضع الورقة في فتحة الآلة العجيبة ويضع التبغ المفروم في الفتحة أخرى .. يبرم الدولاب .. تخرج السيجارة من الجانب الآخر متقنة اللف والإبرام ..

ناول فايق السجائر لمدحت ورزق وفايز .. انشغلوا برصها في علبهم الفضية والذهبية .. بدأ فايق يرص ما تبقى في علبته .

قال مدحت :

– لم يغفل ابن عمكم حسين عن توفير كل ما يلزمكم .. حتى الدخان الشامي من أغلى صنف .

تمتم مولانا بتواضع جم :

– حضرتو وما حضر واجبكم .

كان مولانا يعيش أسعد لحظات عمره .. طفله الأول أحمد التصق به لانشغال أمه عنه بتلبية طلبات العرائس والضيوف الذين وفدوا على بيتها .

قال مدحت وهبه وهو يداعب الصغير :

– أنت شبه سميك عمي الحاج أحمد رحمه الله .. بياضـــه وشـــعره الأشقر وزرقة عينيه .. لقد كنت أحبه .. رغم أنه لم يكن راضياً عني .

همس مدحت وهبه في أذن فايق :

– صرت إنت الزيز وابن عمك حسين صار النملة .. إنت كنت في قصايد وهوه في حصايد .. بس إجا الشتا النملة بخلت على الزيز .. وسدت الباب في وشو .. أما حسين فلم يفعل كما فعلت النملة .. فتح لك قلبه وبيته وجيبه .

طفح الكيل بفايق فشخر :

– أنا زيز .. وإنت إيش !!؟؟ .

دخل الديناري معلناً وصول عمه الشيخ علي وشقيقيه عبد الحميد ومشعل ..

قال مدحت وهبه في سره وهو يتأمل شقيقي الديناري : (سقرديس وسقرديون النحيس)[1] .

1. كاهنين ساحرين شريرين في قصة الملك سيف بن ذي يزن .

احتفى بهم الحاضرون .. تأمل الشيخ علي العريسين القادمين من يافا .. أعجبته قاماتهم الطويلة الممشوقة .. ووجوههم البيضاء النضرة فصاح بجذل :

– هادولا الوهايبة إللي على أصولهم .. بيض وشقر وعنيهم زرق .. ومشرعين زي الرماح .. الله يرحم جدودكم كانوا نوارة الحاره .. الناس لليوم بحكوا عنهم الحواديت .. أي سيدكم وهبه فتن الخاتون وخلاها تقول (حاشا لله ما هذا بشر .. إن هذا إلا ملك كريم) .. ولا أولاد وهبه إللي كانوا زي الشامة وسط الناس .

علق حسن وهو أكثر الوهايبة بياضاً وشقرة :

– يا شايف الزول يا خايب الرجا .. بدنا أخلاقهم تكون مثل أخلاق الجدود .. مش أجسامهم .

لم يكترث مدحت بتعليق عمه حسن .. أشعل سيجارة بولاعته الذهبية .. نفث دخان سيجارته .. أعاد عليه فايق السؤال بصبر نافذ وقد حزم أمره على خوض معركة مع مدحت .. وتلقينه درساً حتى لا يعود إلى السخرية به من جديد :

– أنا زيز .. وإنت إيش !!؟؟ .

رد مدحت وقد نفذ صبره :

– أنت زيز وأنا زيز وحسين هو الأخ العزيز والذهب الإبريز .

ضحكوا جميعاً .. عادوا إلى هذرهم .. في انتظار أن تبدأ الزفة .

مولانا استدعى لهم فرقة الحاج جمعة (أبورجب) من يافا لكي تزفهم .. الكموني سائق تانكر البلدية الوحيد ظل يرش الماء طوال اليوم على الطريق الترابي الذي ستسير فيه الزفة من بيت خليل في كروم مقاط إلى مدرسة سرور الأطفال .. المدرسة أخليت من تلاميذها ومقاعدها منذ ظهر يوم الخميس .. رصت فيها صفوف الكراسي .. أعدت فيها منصة تتسع للعرسان الثلاثة وعرائسهم .

تخت الجناكي نصب في المكان المخصص له ووضع أمامه منقل الفحم لكي يشدوا على وهجه طبولهم ودفوفهم ..

ما أن غربت شمس ذلك اليوم حتى بدأت الزفة .. زفة العرسان .. سار الثلاثة جنباً إلى جنب .. خلفهم الموسيقيون يشنفون الآذان بألحانهم .. وصفوف المدعوين من الوجوه والأعيان وأهل الحارة بقضهم وقضيضهم .

عيد حمادة ومحمد الحايك لعبا بالسيف أمام الزفة طوال الطريق .. الزغاريد انهالت على الزفة من أسطح البيوت .. من الشرفات التي مرت الزفة تحتها .. أكواب

الشراب والليمونادة تدفقت على المشاركين في الزفة من كل حدب وصوب .. لم يتوانى أي بيت من البيوت التي مرت بها الزفة عن تقديم الواجب للعرسان الثلاثة وضيوفهم .. البهتيني الذي مازال متحمساً للأتراك ومتأملاً في نصرتهم .. أوقف الزفة عند مفترق الطرق وأطلق العنان لحماسه :

– صهيون لا تفتكر بالنصر هاي هاي

النصر لدولة الإسلامي

هـــــوي

بكره بجيكم مصطفى كمال هاي هاي

بسوقكم سوق الغنامي

هـــــوي

استرد الدوش الزفة من البهتيني :

عريسنا يا مقلة العين هاي هاي

هـــــوي

يحميك رب العبادِ

يا ريت أمك جابت إتنين هاي هاي

هـــــوي

يوم الحبل والميلادِ

درج يا غـــــزالي

عارزقِ الحـــلالي

درج يا حبيبـــــي

ريتك من نصيبي

أطلقت الصواريخ من جانبي الطريق تحية للعرسان .. أشعل مولانا الساحة وهو على ظهر حماره .. وضع يده في جيب الساكو .. اغترف البرايز والشلونة الفضية نثرها على رؤوس الموسيقيين والمنشدين واللاعبين بالسيوف أمام الموكب .

في منتصف الليل وصـــل العرســـان إلى الرواق .. جلسوا كل إلى جانب عروسه .. بدأت مراسم الجلوة رقصاً وغناءً .. بدلت كل عروس ثيابها تسع مرات .. حسب التقاليد .. حين اختتم الجناكي غناءهم .. صارت الشمس في رأدة الضحى والعرق يتصبب من الجباه ..

مولانا أتى على ثلث مدخراته .. عنفته أمه في صبيحة العرس على تهوره الذي لا معنى له .. ضحك وهو يجيبها بشعر حاتم الطائي :

- أماوي .. إن المال غاد ورائح

ويبقى من المال الأحاديث والذكر

(27)

الطريق بالقطار إلى عكا طويل وممل .. لكن رفيقاً مثل يوسف هيكل .. أفضل ما يمكن لمدحت وهبه الركون إليه .. لتبديد الملل وتخفيف العناء الذي يسببه طول الرحلة

يوسف نقيض مدحت في كل شئ .. لكن ذلك لم يحل دون قيام صداقة حميمة ربطت بينهما أمداً طويلاً .

يوسف لم يكن طارئاً على يافا مثل مدحت .. ولكنه سليل أسرة يافاوية عريقة .. وهو متدين بطبعه وليس أسيراً لأهوائه وغرائزه .. عفيف اللسان واليد .. تم إعداده بعناية ليخلف أباه في تجارته ووجاهته .

تعرف عليه مدحت في حفل عشاء خيري أقامه ابن الأكابر محمد بركه في قصره بتلة بيدس .. دعماً لجمعية الهلال الأحمر .. الوجهاء والأعيان وكبار التجار .. تباروا في التبرع .. ابراهيم طوقان ألقى في الحفل قصيدته الرائعة عن ملائكة الرحمة:

- بيض الحمائم حسبهنه

أني أُردد سجعهنه

رمز الطهارة والوداعة

منذ بدء الخلق هُنَّه

تصادف أن كان مقعده على المائدة بين مقعد يوسف هيكل ومقعد حسن عرفه أكبر تجار المدينة .. تبادل مدحت مع حسن عرفه عبارات المجاملة التقليدية ولكنه انشغل بعد ذلك بكليته في الحديث مع يوسف هيكل .. اكتشف كل منهما في الآخر ما يفتقده في نفسه وما يكمل له تجربته في الحياة .. أصبحا صديقين لا يكاد يستغني أحدهما عن الآخر .. ولا يكتم عنه سراً صغر أم كبر..

ها هو مدحت يصطحب صديقه يوسف إلى عكا ليتوسط له عند اصدقائه آل الشقيري .. كثيرون هم التجار الذين يتزاحمون على ضمان بيارة أسعد الشقيري كل عام .. مدحت غلبهم هذه المرة بواسطة قل نظيرها ..

يوسف المؤدب الدمث الذي يجيد الإستماع إلى محدثه .. يطرب للنكتة .. يتلذذ لطلاوة الحديث .. كان يغرى مدحت بالإسترسال دون تكلف أو حذر .. فيبدو حديثه وكأنه إعتراف مؤمن ساذج لكاهن رعيته ..

قال يوسف :

- كان والدي يظن أنك إبن لامبيدس ..

ضحك مدحت :

- كثيرون ظنوا مثل والدك .. والحقيقة أنني التقيت به على رصيف الميناء .. كنت حمالاً في بانسيون روزا .. أصطاد لها الزبائن مقابل عمولة مجزية .. هبط سلم السفينة كهل طويل عريض المنكبين أشيب الشعر ناهز الستين .. أيامها كنت صبياً يافعاً لم أتجاوز العشرين من العمر .. حسبته إيطالياً .. هتفت مرحباً به :

- شاو .. بوناسيرا سنيور .

رد علي بتجهم :

- لست إيطالياً .. أنا يوناني ..

تحدثت إليه باليونانية التي أجيد القليل منها : أهلاً بك أيها الحاج الطيب في البلاد المقدسة .. هل تريد الناصرة .. بيت لحم .. القدس .. ختمت حديثي بالدعاء الذي يختم به الأرثوذكس صلاتهم (كيريا لايزون) .

نظر إلي بصبر نافذ :

- لست حاجاً .. ولا تهمني صلوات الأرثوذكس .. أريد مكاناً دافئاً فيه امرأة عطوف والكثير من الطعام والشراب .

- ضالتك عندي يا سيدي .. روزا .. أكثر نساء تل أبيب عطفاً على الغرباء .

- أهي جميلة ؟

- تبدو عادية في الكأس الأولى يا سيدي .. لكن جمالها يزداد كلما أسرفت في الشراب

رد ساخراً :

- أيها الفتى .. حين يسرف لامبيدس في الشراب لا تبقى في العالم كله إمرأة دميمة على الإطلاق .

تقاضيت أجري من لامبيدس وعمولتي من المدام وهممت بالعودة إلى الميناء ثانية في انتظار زبون آخر .. الخواجا لامبيدس استوقفني ودعاني إلى مائدته لمشاركته الغذاء ..

في اليوم التالي عرض عليَّ لامبيدس أن أعمل له طوال إقامته في فلسطين مرافقاً ومترجماً وحارساً شخصياً .

فوجئت بالعرض السخي لكنني ترددت في القبول مخافة أن أفقد حظـوتي عنـد روزا .. شرحت للخواجا سبب ترددي .

قال لامبيدس وقد استخفه الشراب :

- اسمع نصيحة بحار عجـوز .. روزا كالسـفينة .. لا تأسف على فـراق أي مـن ركابها .. فهي تبدلهم عند كل ميناء .. وتفرح باستقبالهم ثانية طالما سـمحت صـحتهم وجيوبهم بتكاليف الرحلة .

توثقت علاقتي بالخواجا لامبيدس يوماً بعد يوم .. اكتشفت أنه ليس بحاراً عجوزاً كمـا يدعي .. لكنه صاحب اسطول من بواخر النقل تعمل بين شاطئي المتوسط .. يسـتورد من فلسطين الحمضيات والزيوت والحبوب .. ويصدر لها الأقمشة والخمـور والآلات وكل شئ يباع ويشترى على جانبي البحر .. انفتحت أبواب الكنز وتقدمت فـي العمـل صرت وكيلاً للخواجا وممثلاً له عند شريكه أبو شندي .

استأجر الخواجا غرفة دائمة عند روزا .. يحتلها حين يكون حاضراً ويتركها لي عنـد غيابه .

هكذا استغنيت عن غرفة السطوح .. أخذت مكاني على البار إلى جانب رجال الأعمال ورجال الدولة وكبار النزلاء من علية القوم .

سأل يوسف :

- لم نعد نرى لامبيدس في يافا .

- تقدمت السن بلامبيدس .. اسـتقر في أثينا وترك لي تصريف أمـور تجـارته فـي فلسطين .. احتفظت بغرفته لدى روزا كما هي .. إنها تشبه مغارة علـي بابـا .. مليئة بالطنافس والتحف والتذكارات .. آخر مرة شاهدتها روزا .. علقت ساخرة :

- أبقيت كل شئ كما كان أيام لامبيدس .. لعلك مازلت تترقب عودة معلمك ..

تنهد مدحت وهبه .. اشعل سيجارة ونفث دخانها في الهواء .. تابع كمن يحدث نفسه :

- في صالون روزا تعرفت على رجال الحكم فـي الإدارة البريطانيـة .. جنـرالات الجيش البريطاني .. التجار اليهود ..رجال الوكالة اليهودية الذين كانت تل أبيب تعج بهم منذ نشأتها ..

لم أكن ألقي بالاً لأحاديث السياسة والحرب التي تدور من حولي بقدر مـا ألقـي بـالاً للوافدات الجدد اللواتي تستأجرهن روزا للعمل في بانسيونها .

النساء هاجسي الأول والأخير . منذ كشفت لي بنات الحلواني عن مؤخراتهن في زقاق الشيخ نبك .. وعنها إلى يومنا هذا وربما لآخر يوم في حياتي ..
في صباي رافقت لامبيدس إلى نزل في بيروت .. حين استيقظت في الصباح الباكر .. سمعت منادياً ينادي في الشارع .. (منتوف وخالص .. لا تتعب مرتك في نتفو .. منتوف وخالص) .. نزلت بلهفة دون أن أستأذن معلمي .. ركضت حتى أدركت المنادي .. لشدما كانت خيبتي .. رأيته يدفع عربة أمامه محملة برؤوس الغنم ومقادمها .. تبددت هواجسي الجنسية .. اعتذرت لمعلمي عن تصرفي الأهوج ..
في صباح اليوم التالي كررت نفس الخطأ .. فتحت باب الغرفة وانطلقت أعدو إلى الشارع دون أن أستأذن معلمي لألحق بمنادٍ آخر .. يعلن بأعلى صوته :
(صلى الصبح وكبسو) .
خاب ظني مرة ثانية .. كان الرجل يبيع الخيار المكبوس .. عدت إلى الغرفة واعتذرت لمعلمي .

جلجلت ضحكة يوسف وطفر الدمع من عينيه ..

تابع مدحت .. قال لي لامبيدس :

– يا مدحت أنا لم أخلف ولداً .. كل خلفتي من البنات ولكنني أحببتك وأتخذتك بمنزلة الولد الذي حرمت منه .. إليك هذه النصيحة .. هناك وصفتان مضمونتان .. الوصفة الأولى إذا عملت بها تصعد بك إلى القمة والوصفة الثانية إذا عملت بها ستهبط بك إلى الحضيض الأسفل .
أصغيت له على مضض :
– نصائحك جواهر يا معلمي .. وكلي آذان صاغية .
تابع لامبيدس :
– الوصفة الأولى أن تضع شهواتك في خدمة عقلك .. إن فعلت ذلك تصعد من قمة إلى قمة .
سألته بصبر نافذ :
– الثانية يا معلمي ؟
تابع لامبيدس :
– أن تضع عقلك في خدمة شهواتك . عندها تنحدر من حضيض الى اخر .

علق يوسف :

– لقد أخلص الرجل لك النصيحة .

تنهد مدحت :

– لو كان لأحد الخيرة في أمره لاختار .. ما أراني إلا مواصلاً انحداري حتى يبرأ مني الشيطان نفسه .

قطع يوسف استغراق رفيقه في سرد ذكرياته وقال له :

– انظر من نافذة القطار .. كل هذه المستوطنات التي أقامها اليهود على طول الساحل من يافا إلى عكا منحها الإنجليز لليهود دون وجه حق .

نظر مدحت وهبه من النافذة وغمغم :

– إنها تتفشى مثل نبات شيطاني .. وتكاد تراها في كل مكان تقع عليه عينك .

تنهد يوسف وتابع كأنه يحدث نفسه :

– لقد منحت حكومة الإنتداب أراضي أملاك الدولة لليهود وهي عالمة أن هذه الأراضي رغم تسميتها بهذا الإسم ليست إلا ملك أبناء فلسطين الذين زرعوها قروناً طويلةً مقابل تأدية ما عليها من ضرائب للسلطان العثماني .

في بيسان وحدها أعطى الإنجليز لليهود مائة وخمسة وستين ألف دونم كانت مسجلة بإسم السلطان العثماني .. وأرض الحوارث طردوا منها القبيلة التي عاشت فيها آلاف السنين بدعوى أن السلطان منحها تيماراً لعائلة تيان البيروتية .. وأن العائلة باعتها للوكالة اليهودية .

إن جيش الإنجليز في فلسطين كان جاهزاً دائماً لتنفيذ هذه المهمات الموكولة إليه .. تجريد العرب من أراضيهم ومنحها لليهود .

استرخى يوسف هيكل في مقعده كأنه يحاول النوم لكنه ما لبث أن كف عن محاولته .. هز مدحت من مرفقه وتابع ما انقطع من حديث :

– منذ عين هربرت صموئيل مندوباً سامياً على فلسطين .. بعد أعوام من صدور وعد بلفور ونحن نخوض معركة غير متكافئة .. كان عدد اليهود في فلسطين خمسة بالمائة حين شُكلت حكومة الإنتداب وبالرغم من ذلك عين هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني مندوبا ساميا و أعطيت كل المراكز الحساسة ليهود أو لإنجليز يساعدهم يهود .

خود عندك : مدير دائرة الهجرة يهودي إسمه جايمسون .. مدير التجـــارة الخارجيـــة يهودي .. في المالية ثلاثة مديرين يهود من أصل خمسة .. في البوليس مقابل كل مفتش بوليس عربي ستة مفتشين من اليهود .

لقد كادت الثورة في عام 36 وما تلاه أن توقف كل هذه المظـــالم .. وأن تـــرد للشعب الفلسطيني حقوقه المسلوبه .. لكن ضعاف النفـــوس الـــذين تســـللوا لصـــفوف الثوارانحرفوا بالثورة عن أهدافها ..أجهزوا على المكتسبات القليلة التي حققتها عند إنطلاقتها الأولى .. قدموا مصالحهم الخاصة على مصلحة الوطن يا مدحت .. فـــذهب الطالح بالصالح .

علق مدحت وهبه :

– لا تنسى يا صديقي أن تحالف الإنجليز مع الفرنسيين في سوريا .. استعداداً للحـــرب الوشيكة في أوروبا ..جعل الفرنسيين يمنعون عنا السلاح والذخيرة والمدد .. فكـــانت قاصمة الظهر .

تنهد يوسف هيكل وتابع :

– الإنجليز استكملوا لعبتهم القذرة بإصدار الكتاب الأبيض وكفوا عن ملاحقة الثوار .. انطلت علينا حيل الإنجليز .. فألقينا السلاح .

قال مدحت مازحاً :

– احمد ربك أنهم كفوا عن ملاحقة الثوار وإلا لكنت الآن في أحـــد ســـجونهم .. ثـــم استدرك جاداً :

– ما رأيك في لجنة بيل .. هل سيقابلها الحاج أمين أم يواصل عناده ؟

– الإنجليز اتصلوا بالملوك والرؤساء العرب الـــذين نصـــحوا المفـــتي ســـابقاً بإنهـــاء الإضراب .. وكلفوهم بالضغط عليه لتليين موقفه تجاه لجنة بيل ..

سأل مدحت وهبه بعد فترة صمت :

– هل تظن الحاج أمين سيجتمع بلجنة المستر بيل ؟

– أظن أن الحاج أمين سيجتمع بها إبراءاً للعتب .. فهـــو يعـــرف أن اللجنـــة اتخـــذت قراراتها قبل مغادرة لندن .

استند مدحت في مجلسه وسأل :

– ما الذي قررته لجنة بيل سلفاً قبل حضورها إلى فلسطين ؟

تنهد يوسف هيكل :

- التقسيم .. يريدون تقسيم فلسطين بين العرب واليهود .. طويله على رقـــابهم .. والله لو صار الدم للركب ..

تشاغل مدحت بملاحظة المناظر المتتابعة من شباك القطار وهو يدندن بأغنيـــة عبدالوهاب الجديدة :

- عَمّال تجري

قبلي وبحـــري

تنــــزل وادي

تطلع كوبـــري

يا وابور قللي رايح على فين

قطع أغنيته فجأة وقفز كالملدوغ .. خيل إليه أنه رأى شريفة الحلواني في ممـــر العربة .. حدق أمامه غير مصدق .. شريفة بشحمها ولحمها .. داخله الفزع .. (مـــاذا لو تعرفت علي .. لاشك أنها ستلتصق بي كالقرادة) .

هتف بصديقه :

- خود طربوشي وهات برنيطتك .. أسرع ..

ناوله الطربوش واختطف القبعة عن رأسه .. لبسها وأنزل طرفها على عينيه ..

- الحمدلله مقاس راسنا واحد .

حملق فيه يوسف هيكل مندهشاً ..

شرح له مدحت وهبه :

- هذه المتسولة التي تتنقل بين مقاعد الركاب ..هي شريفة الحلواني التي حدثتك عنها

- شريفه التي تبعتها إلى يافا حاملاً بقجة ثيابها .

تأملها يوسف : امرأة هزيلة وخط شعرها الشيب .. تلف رأسها بمنديل أسود .. على جسدها النحيل أسمال بالية .

وضع يوسف الطربوش على رأسه .. ظل مدحت وهبه قلقاً متوجساً حتى عبرت دون أن تتعرف عليه .. تفرس مدحت في وجهها خلسة .. فلاحظ أنها تعشي .. قال في سره : لابد أن المرض الخبيث الذي أصابها وصل إلى عينيها .. تعدت مقعده إلى مقعد عائلة تجلس قبالته .. انحنت أمامهم بذلة ومسكنة .. مدوا أيديهم في جيوبهم منحوها ما جادت به أنفسهم .. واصلت طريقها .

تنفس مدحت الصعداء .. قال في سره : (لو لم أكن نذلاً لأخذت بيدها وقدمت لها العون) .

هزه يوسف هيكل من مرفقه :

– أراك شارد الذهن .. هل عنت على البال أيامك الخالية في بيت شريفة .

تنهد مدحت :

– الحمد لله أنني لم أطل الوقوف على أطلال ذلك البيت .. شمرت عن ساعدي وانطلقت أبحث عن عمل في سوق رائجة للعمالة .. تنقلت في مهن عديدة .. جبت الساحل الشمالي كله في مواسم البرتقال .. تدرجت في العمل من حمال حتى وصلت إلى رتبة الإستفادور .. مواسم البرتقال قصيرة .. كان عليَّ أن أتدبر أمري باقي السنة إلى أن استقر بي الحال في غرفة على سطح بانسيون روزا ..

ظل مدحت وهبه ساهماً حتى لاح رصيف القطار في محطة عكا .. أطلق القطار صفارته استعداداً للوقوف .. جمع مدحت وهبه وصديقه أشياءهما وغادرا العربة

على رصيف المحطة تعرفت عليه شريفة الحلواني ..

– مين .. مدحت ؟؟!!.. عاش مين شافك .. الله ساقك .

نظر إليها متعالياً .. ورطن بالإنجليزية :

– هو إز مدخت؟! .. كريزي وومن .

أخلت سبيله وهي بين الشك واليقين .. وغمغمت :

– بخلق من الشبه أربعين .. والله يا خواجه كإنك مدحت الخالق الناطق .

حين استقرا في سيارة التاكسي الوحيدة في المحطة .. أدار السائق السيارة وسأل

– أكيد جايين تتفرجوا على ثلجه وعبد الرحيم .

ساله يوسف هيكل :

– مين هادولا ؟؟!!

– ثلجة وجوزها عبد الرحيم بهلوانات بمشو على الحبال .. بحطوا الكراسي والطاولة على الحبل .. وبشربوا عليها شاي .. وبلعبوا زهر .. الناس بيجوا على عكا علشان يتفرجوا عليهم .

همس يوسف هيكل في أذن مدحت :

– هوَّه في بهلوانات غيرك في هالبلد ؟؟!!..

ثم أشار إلى السائق :

- بيارة أسعد الشقيري .

(28)

مرض أحمد طفل خديجة بعد انقضـــاء العرس .. ظنت خديجة أن عيناً قد أصابته .. ضيوفها اليافاوية لا يصلون على النبي .. لامت نفسها طويلاً على انشغالها عنه بالعرائس والضيوف .. الضيوف غادروا غزة إلى يافا وسلمة دون أن يوجهوا لها كلمة شكر واحدة .. بل إنهم غالباً ما سلقوها بألسنة حداد .. منتقدين طريقة لبسها ومشيها وكلامها .. أمها سمعتهم مرة يقلدونها ساخرين منها .. قالت لهم :

- بنتي زي خبز الشعير .. موكولة مذمومة .

احتملت خديجة ما احتملت من صنوف أذاهم .. لكي تسعد زوجها وتساعده في تبوء المنزلة التي اختارها لنفسه .. أن يكون سيد القوم .. وسيد القوم خادمهم .. كما في عرف مولانا وشريعته .. وها هي الآن تدفع ثمناً باهظاً لما سلف .

ساءت حالة الطفل أكثر فأكثر .. رأته يذوي بين ذراعيها كما يذوي الغصن الأخضر الذي فصل عن أمه .. احتار الأطباء في علاجه .. كل طبيب يناقض تشخيص من ســبقه ويصف لهم دواءً جديداً .. أخيراً لفظ الطفل أنفاسه .. انطفأ كما تنطفئ الشمعة .. أحست أن قلبها يكف عن الخفقان .. أخذوه من بين ذراعيها وسقطت في الإغماء ..

غابوا به بعيداً وتركوها وحدها تتخبط في الحزن والفجيعة .

في الأسبوع التالي لوفاته كفت عن تناول الطعام إلا ما يطعمونه لها غصباً .. بدأ شعر رأسها يتساقط .. أشرفت على الهلاك .

تعهدها مولانا بالحدب والرعاية والحب حتى التأمت جراحها وعادت من جديد لتأخذ دورها كشريكة لمولانا في رحلة عمره .. وكسيدة لبيته وقلبه .

بعد عام من وفاة طفلها شعرت بالحمل .. هذه المرة كانت عاقلة أكثر من المرات السابقة .. طلبت رضى حماتها وبركتها .. لم تخالفها أو تتشاوف عليها .. كما فعلت في المرة السابقة .. أتمت شهور حملها .. وضعت صبياً آخر .. لكن الصبي لم

يعش إلا يوماً واحداً .. لطمت حتى اسود وجهها .. ضربت على ركبتيها وهي نفساء .. اضطروا إلى تقييدها حتى لا تؤذي نفسها .. هذه المرة أيضاً رق لها الشيخ كثيراً وحنى عليها .. كانت وهي نائمة تسمعه ينشج خفية .. تحس دموعه الساخنة تتساقط على وجهها .. كان لها من ذلك ترياق .. أعاد لها تمسكها بالحياة ورغبتها في أن تنجب له من جديد .. هذا الرجل الذي أفقده الشلل ساقيه وذراعه اليمنى .. كم هو بحاجة إلى الولد .. يسند ظهره .. يشد أزره في معترك الحياة الصعب الذي يحطم أصلب الرجال .

أبلت من سقامها .. خرجت إلى الحياة من جديد .. أجهضت بعد ذلك مرتين .. ظللت صابرة محتسبة .. أخيراً قدر لها أن تتم شهور حملها التسعة .. وضعت طفلة كالقمر ليلة تمامه .. فرحت بها .

– بنت بنت يالله .. إللى بتجيب البنت بتجيب الصبي ..

هكذا قال لها زوجها معزياً .

كانت البنت تمص ثدييها بنهم بالغ .. تكبر بسرعة .. يمتلئ جسمها وتشتد أطرافها .. مشت في شهرها العاشر .. تكلمت قبل أن تكمل الحول .. حفظت قصار السور والأناشيد التي يرددها أولاد الكتاب قبل أن تتم عامها الثاني .. حرصت على مساعدة أمها في أعمال البيت .. قلدت جدتها في مشيتها وكلامها حتى أصبحت تسلية الدار الوحيدة .

أوقـــدت خديجة النار في الفناء .. وضعت عليها الدست الكبير لتغلي مياه الغسيل .. صرف الشيخ تلاميذه مبكراً لكي يحظى برفقة الصغيرة ومداعبتها .. حين فتح الباب المؤدي إلى الفناء .. ركضت الطفلة لاستقباله .. رفعت سبابتها كما يفعل تلاميذ الكتاب :

– أستاذ .. أنا حفظت النشيدة .. أقرأ لك .

بدأت الطفلة تغريدها مستبدلة الراء باللام في لثغة محببة :

أنا المحبوبـــة الســـــمرا

وأجلـــى بالفنـــاجيـــــنِ

وعـــود الهند لي عطـــر

وذكري شاع في الصينِ

كانت أشبه بدمية جميلة تتكلم .. لاطفها والدها كعادته :

– عافية عليكي يا شاطرة .. بتعرفي تنادي أمك ؟.

لم تستدر .. تراجعت إلى الوراء وأنظارها معلقة بمولانا .. تراجعت بسرعة أكثر .. كأن رياحاً خبيثة تحملها وتطوح بها .. سقطت في الوعاء الذي يغلي .. أراد مولانا أن يركض إليها لينقذها من السقوط .. نسي أن ساقيه مشلولتان .. وقع على الأرض يتخبط في مكانه أسيراً للعجز والإعاقة .. مد ذراعه السليمة في الهواء محاولاً أن يطير إليها بعد أن أعجزه الركض .. صرخ .. لكن الصرخة احتبست في حلقه .... ظل يحاول الصراخ .. أخيراً انطلقت صرخته .. كانت أشبه بصرخة حيوان جريح .. رجت الحارة كلها .. جاء الجيران .. أخرجوها من الوعاء قطعة قطعة .. كان أول ما أخرجوه شعرها الأشقر الأثيث .. عقدوه عقدة كبيرة ووضعوه إلى جانبها .

سمعت خديجة صرخته .. ركضت حتى أشرفت على الفناء .. رأت أشلاء طفلتها المكومة على البساط .. غابت عن الوعي .. حين فتحت عينيها في المستشفى .. ساءها أنها مازالت حية في عالم توهمت أن سماءه خلت من الرحمة وارضه أقفرت من الحب

بعد شهرين في المستشفى أعادوها إلى البيت .. لكنها لم تعد إلى فراشها أبداً .. أصابها لطف .. اختلط عقلها .. صارت تدب على أربع بين أشجار الكرم وعلى طول شور الصبر .. تموء كما تموء القطط ولا تتكلم .

جاءت أمها من سلمة لتأخذها إلى الأطباء في يافا .. نادتها وهي مستلقية على فرع الجميزة :

– انزلي يا بنيتي .. يا حبيبتي .

نظرت إليها خديجة .. تكلمت لأول مرة منذ أصابها اللطف :

– أنا مش بنتك .. أنا القطة اللي أكلت أولادها .

عادت إلى المواء من جديد .. رحلت أمها وحيدة وقلبها يتقطع .. حين وصلت سلمه استنجدت بجارتهـا الفتاحة بدريه .. لبسـت بدريه ثيابها البيضاء .. أطلقت البخور .. استعانت بالأسياد .. خفوا جميعاً للمساعدة ما عدا قطب الغوث .. توسلت له بدريه ونادته بأحب الأسماء إلى قلبه .. حين حضر .. تحدث بلسان بدريه .. كان صوته أجشاً جهورياً :

– إيش إللي صار ؟؟!! .. قامت القيامة ؟؟ !!

تخاذل صوت بدريه وهي تجيب :

– الموضوع وما فيه يا مبارك .. إنو خديجة بنت هالمسكينة عزيزة ..

أرعد قطب الغوث :

– بتخافيش من الله يا بدريه ؟ .. قطعت طوافي على الكعبة .. طفت ست أشواط .. وقبل الشوط السابع جبتيني على ملأ وشي .. وينها عزيزة ؟؟ ..

انخلع قلب عزيزة .. أغمي عليها .. حين أفاقت أخبرتها بدريـــه بطلبـــات الأسياد .. لبت عزيزة الطلبات عن طيب خاطر وزادت على ذلك بأن غمرت جارتها الفتاحة بكشاكيل القاورما .. ولكن ذلك كله لم يخفف عن خديجة ولم يرفع اللطف عنها .

كيف عاشت خديجة بعد ذلك .. هل كانت تتبلغ من ثمار الحديقة ما يحفــظ أودها .. أم أنها تتسلل إلى المطبخ في الليل كما تفعل القطط .. تأكل الخبز الناشف والفضلات .. لا أحد يعرف .. لا أحد يهتم .. تعودوا بمرور الوقت على التعايش مع جنونها .. لم ينقص جنونها ولم يزد .. لم تؤذ نفسها ولم تؤذ أحداً .. تجنبتهم مثل قطة برية .. تجنبوها مثل خاطر مزعج .. حتى مولانا لم يعد يقوى على النظر إليها بعد أن ظهر عجزه .. ألم يكن عجزه سبباً في هلاك طفلتها .

يقال أنهم سمعوها تناجي ربها في جوف الليل :

– لماذا لم تجعلني عقيمــاً لا أحمــل ولا ألد .. لماذا لم تخلقني دودة ؟ .. أو ضلع صبر ؟ .. أو حجراً لا يحس ولا يسمع ولا يرى ؟ .. ما الذي فعلته لكي تنزل بي كل هذا العذاب ؟ .. أين رحمتك التي وسعت كل شئ وضاقت عني ؟ .. لمــاذا تفعل بي كل هذا ؟ ..

لم يعرف أحد كيف وقعت المعجزة .. تناقلوا قصصاً كثيرة عن تلك الليلة .. لكن حقيقة ما جرى لم تعرف إلا بعد سنين طويلة حين اعترفت خديجة بما حدث .

زعمت أن الضباب كان يلف أشجار الكرم ويحجب ما خلفها .. انسل الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .. رأته واقفاً أمامها .. طويلاً يكاد طوله يصل إلى قبة الفلك .. عريضاً حجبت أكتافه شور الصبر كله .. ثيابه بيضاء ناصعة يختلط بياضها ببياض لحيته وشعر رأسه وحاجبيه .. صرخت .

– أنت عزرائيل .. إللي أخذ أولادي كلهم .. إيش ضل عندي أعطيك إياه ..

رفع ذراعيه حتى رأت بياض إبطيه .. اقشعر جسدها :

– لست ملاك الموت يا خديجة .. أنا ملاك البشارة .

وقف ما تبقى من شعر رأسها قبل أن يتابع حديثه :

– ستلدين ذكوراً .. لن تفجعي بأي منهم .. سيملأ نسلهم الأرض التي حولك .. لن تموتي قبل أن تسعدي بأحفادك ..

لا موت .. ولا فقد .. ولا فجيعة .. ولا حزن بعد اليوم .

اقترب منها حتى غمرها تماماً :

– سلام قولاً من رب رحيم .. سلام قولاً من رب رحيم .

قالها وغاب في الضباب الذي يلف كل ما حولها .

أحست بالنار المتقدة في صدرها تخبو .. وبالغمامة تزول عن عينيها .. ملأت قلبها السكينة والغبطة .. نزلت عن كعب الجميزة .. اغتسلت وتكحلت وتطيبت ولبست أحسن ثيابها .. في تلك الليلة انتظرت زوجها حتى آوى إلى فراشه .. اندست إلى جواره وسحبت عليهما الغطاء .

لم يكترث مولانا بنزولها عن كعب الجميزة .. لم يأبه بزينتها وبعودتها إلى فراشه .. ظن ذلك طوراً من أطوار مرضها .. اكتفى بمراقبتها .. كان ما يزال كسير النفس بعد فجيعته في ابنته .. لم تفلح في استرضائه .. كلما زادت اقتراباً منه يزداد انطواء على نفسه .. كان يتعذب في داخله .. محملاً نفسه مسئولية ما حدث .. حتى كانت الليلة الفاصلة .

انصرف الكلاف مبكراً بعد أن قبض أجرته .. نسي أن يحكم وثاق أحد العجول في البايكة .. في منتصف الليل تحرر العجل من وثاقه .. بدأ في العراك مع العجول الأخرى .. قطعت العجول حبالها لتخوض قتالاً حتى الموت بعضها ضد بعض .. أخلد الجيران للنوم ولا جدوى من محاولة الإستعانة بهم .

نهض مولانا .. سار نحو البايكة مستنداً على عصاه .. تبعته خديجة دون أن تتفوه بكلمة .. حين وصل باب البايكة .. التفت نحوها .. خاطبها لأول مرة منذ نزلت عن كعب الجميزة :

– سأدخل وأغلق الباب ورائي .. انتظري هنا ..

دخل وأغلـق الباب .. كان الصراع ما يزال على أشده .. لم ينتبه العجول لدخوله .. واصلوا الاقتتال .. سمعت خديجة أصوات ارتطامهم واشتباك قرونهم .. استند مولانا إلى الجدار .. طوح عصاه في الهواء وضرب بها أقرب الثيران إليه مطلقاً صرخة وحشية زلزلت المكان .. سمعتها خديجة .. اقشعر بدنها .

ران صمت عميق .. تمالكت خديجة روعها .. تسللت إلى الداخل على أطراف أصابعها .. أشعلت المصباح المعلق في الجدار .. استرقت نظرة عجلى خائفة .. اســتوعبت ما حدث .. رأت الثيران وقد لاذ كل منهم إلى جانب جدار من جدران البايكة .. تلهث مرتعدة فزعة .. بطونها تعلو وتهبط .. رؤوسها مطرقة إلى الأرض في ذلة ومسكنة .

قال مولانا :

– قيديهم كل إلى مذوده ..

استمدت القوة من رباطة جأشه .. وصوته الممتلئ بالثقة .. سحبتهم الواحد بعد الآخر إلى أماكنهم .. ثبتت الحبال في التواريس .. وضعت لهم علفة جديدة .. أطفأت المصباح .. تبعت رجلها إلى غرفتهما سعيدة مستبشرة كما لو أنها عروس ليلة زفافها .

في تلك الليلة ضحكا ولعبا كطفلين إلفين .. انحلت عقدة مولانا .. استعاد الثقة بنفسه وبزوجته .. ظلا يتعابثان حتى أوشك الفجر .. أخيراً أغمضا أجفانهما وناما متعانقين .

(29)

لم يكن بشير الريس (مفتش المعارف الشاب) يتوقع أن تكون مدرسة سرور الأطفال على هذا المستوى من النظافة والتنظيم .. تخيلها كُتاباً من تلك الكتاتيب التي تقام حول أضرحة الأولياء في بوايك من الطين أو الخشابيات .. كما تخيل شيخ الكُتاب بشخصيته التقليدية .. وتحصيله الضحل من العلم .. المستند أساساً على حفظه لبعض سور القرآن والمدائح النبوية ..

فوجئ بالمبني المشاد بالأسمنت المسلح .. الشبابيك الواسعة .. دورات المياة الصحية .. العريشة التي يقضي فيها الطلاب أوقات الفسحة .. الحديقة المحيطة بها .. رفوف المكتبة على الجدار الحافلة بأحدث ما أنتجته المطابع في مصر والشام من كتب الثقافة والصحف السيارة .

تأمل الشيخ في لباسه الذي يشبه لباس وجهاء المدينة .. القنباز الروزة .. الساكو النظيف .. الطربوش المكوي .. خلفه سبورة سوداء كُتب عليها بخط جميل حكمة اليوم لم يكن التلاميذ يقتعدون الأرض أو الحصر البالية .. كانوا يجلسون على مقاعد لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها في مدارس الحكومة ..

قال لمولانا :

– مدرستك أبهى وأجمل من معظم مدارسنا .. بقي أن نفحص مستوى التعليم الذي وصل إليه الطلاب .

تناول المفتش دفتراً أنيقاً عن طاولة الشيخ :

– هل هذا سجل الحضور والغياب ؟..

قلب الدفتر بين يديه .. كانت صفحاته حافلة بمختارات من الشعر العربي مكتوبة بخط جميل .. قرأ بصوت عال بيتاً من قصيدة إبن سناء الملك :

– ولو مد نحوي حادث الدهر كفه

لحدثت نفسي أن أمد له يدا

ثم وجه حديثه إلى الشيخ :

– هل تعرف ما يقصده الشاعر بهذا البيت ؟

ابتسم مولانا :

– لعلني أحد القلائل في هذا العالم الذي يعرف تماماً ما يعنيه الشاعر ..

فوجئ المفتش الشاب بإجابته .. رانت لحظة صمت قبل أن يتدارك الزائر ما بدر منه :

– لم أقصد الإشارة .... .

فهم الشيخ الحرج الذي يعانيه ضيفه فقاطعه مبتسماً :

– على قدر ما تكون النفوس عظيمة على قدر ما يجئ امتحانها صعباً وأليماً ..

أعجب المفتش بسرعة البديهة التي عالج فيها مولانا الموقف فأحب التنويه بشجاعة الشيخ وتحديه لإعاقته :

– لكن البعض يستسلم للمصيبة ولا يكف عن التذمر والشكوى .

هز مولانا رأسه :

– قَـــدَرُ الإنسان أن يقاوم .. والذي يستسلم إنما يخون إنسانيته .

استوعب المفتش كلمات مولانا .. بدت عليه علامات الإعجاب والتأثر .. خفض بصره .. تشاغل بتقليب باقي الصفحات .. قرأ للمتنبي :

– وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مرادها الأجسام

في صفحة أخرى فاجأه الحلاج :

– إلهي ليس منسوباً

إلى شئ من الحيفِ

سقاني مثلما يشرب

فعل الضيف بالضيفِ

استمر في تقليب الصفحات حتى وصل إلى لامية الشنفرى التي كتبها الشيخ كاملة ووضع خطوطاً تحت بعض أبياتها :

– ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب

يعاش به إلا لدي ومأكل

واستف ترب الأرض كي لا يرى له

عليّ من الطول امرؤ متطول

آخر ما وقعت عليه عيناه قصيدة إبن زيدون :

– ما على ظني باسُ

يجرح الدهر ويأسو

ولقد يشرف بالمرء

على الآمال يأسُ

ولقد ينجيك إغفال

ويرديك احتراسُ

أغلق الدفتر ونظر إلى الشيخ ملياً وقال في سره :

(لابد أن هذه الأشعار هي الرافعة العظيمة التي تنتشل رجلاً فقد ساقيه وذراعه اليمنى من وهدة الإعاقة السحيقة .. وترفعه إلى أوج إنسانيته .. شاحذة قدرته على العطاء والتفرد .. بحيث لا يكتفي بأن يتساوى بالأصحاء .. بل ويتفوق عليهم أيضاً) .

وضع الدفتر جانباً وسأل الشيخ :

– هل أستطيع تفقد جداول الحضور والغياب ؟

قدمها له الشيخ .. وجدها نظيفة .. مرتبة .. فتح آخر جدول منها :

– سنبدأ بالصف الثالث .. سأختار ستة طلاب اختيارا عشوائياً لأجري عليهم الفحص ..

كان ينادي على الطالب ويأمره بالوقوف إلى جانب الجدار :

– رجب العوام .. روبين انطيز .. سيد بكر .. سليم مراد .. صلاح خلف .. عبد الجواد الجرو .

اصطف التلاميذ حيث أمرهم .. أخرج من حقيبته كتاب كامل السكاكيني .. المقرر على الصف الثالث في مدارس الحكومة .. فتح إحدى الصفحات .. أمر أولهم بالقراءة .. قرأ الصبي دون أن يتلعثم قراءةً سليمة :

مر كسرى برجل عجوز يغرس زيتوناً .. فقال له :

– أتؤمل أن تأكل من ثمر هذا الزيتون وأنت شيخ كبير .

قال الرجل :

– يا مولاي .. غرسوا فأكلنا .. ونغرس فيأكلون .

قال المفتش في نفسه : (حتى مخارج الحروف كانت مطابقة لقواعد النحو والصرف).

حين انتهى من فحص القراءة .. سألهم في جــدول الضرب .. وجدهم قد حفظوه .. انتقل ليسألهم عن القرآن الكريم .. كانوا قد حفظوا جزء عم كله غيباً .. سأل كل طالب منهم عن معنى آية مما تلاه .. أتم الأولاد الستة اختبارهم بنجاح .. أمرهم بالانصراف وقال للشيخ :

– الصف الثاني .. سأكتفي منه بسماع الأناشيد ..

دعا مولانا طلاب الصف الثاني وهم عشرون طالباً .. اصطفوا أمام المفتش في صفين مستقيمين .. أشار لهم الشيخ و بدأوا إنشادهم :

– نحن الشــباب .. لنا الغــد
ومجـــــده المخلـــــــد ..
نحـــــــن الشـــــــباب
شــــعارنا على الزمـــــن ..
عاش الوطن .. عاش الوطن
بعنـــا لـــه يـــوم المحـــــن ..
أرواحنـــــا بـــلا ثمـــــن
يـــا وطنـــي عـــــــداك ذم
مثلك مـــــن يرعــــى الذمم

أتم الأولاد نشيدهم .. أطرق المفتش منتشياً بما سمع ..

انتقلوا إلى النشيد الثاني :

– يا علم العرب أشرقي واخفقي
في الأفــــــق الأزرق
يا علمـــي يا علـــــــم
يا نسيج الأمهـــــــات
في الليالي الحالكـــــات
لبنيهـــــن الأبـــــــاة
كيــف لا نفــديـــك
كل خيـــــط فيــــك

بسمة من ثغرهـــــن

خفقة مـــن قلبهـــــن

دمعة مـــن جفنهـــن

يا علمـــي يا علـــم

أقفل المفتش سجله .. مد يده لمصافحة الشيخ :

- هؤلاء أولاد الفلاحين .. الذين كانوا عادة يحرمون من التعليم .. ها أنت تطوع لهم الزمان والمكان .. أي معجزة هذه .. لو كان لدينا عشرة رجال مثلك لصار الريف الفلسطيني أكثر علماً وتحضراً من مثيله في أية دولة من دول الجوار .. سوف أكتب عن تجربتك هذه لمدير المعارف في القدس .. سيعترفون بك رسمياً و بالشهادات التي تصدرها مدرستك .. سيقبل طلابك الراغبون في إكمال تعليمهم في مدارس الحكومة .. سيصرف لك راتب شهري كما لمدرسي الحكومة .. عليك مواصلة إرسال التقارير الشهرية إلينا في موعدها .. سوف يقوم الدكتور خليل أبو غزالة طبيب الصحة في غزة بزيارات دورية لمدرستك حسب ما تقتضي أنظمة إدارة المعارف .

استأذن المفتش بالانصراف .. ودعه الشيخ على باب المدرسة وعاد منتصراً كأنه فتح عكا .

لم يكد يستقر على أريكته حتى سمع صرخات خديجة .. دقت حماته على النافذة طالبة أن يرسل في طلب الداية .. كانت خديجة قد أتمت شهور حملها دون مشاكل هذه المرة .. رغم إصرارها على القيام بكامل أعباء المنزل ..

لاحظ حسين منذ نزولها عن كعب الجميزة .. أنها تغيرت تماماً .. مستها يد ساحر .. هادئة .. متزنةً .. منشرحة الصدر .. واثقة من نفســـها .. لا تتبـــرم ولا تحتج .. لا تكترث لمضايقات حماتها .. لا تستجيب لاستفزازها .. تقابل السيئة بالحسنة حتى استلت من صدرها كل سخيمة وموجدة .. استحقت بعد كل هذا العناء أن تبادلها حماتها حباً بحب .

في الأسبوع الماضي طلبت إحضار أمها من سلمة لتشهد ميلادها .. لم تتوانى عزيزة في الحضور .. بل إنها أتحفتهم بقدرة كبيرة من القاورما .. تلذذوا بالإجهاز عليها قبل أن ينصرم الأسبوع ..

هرعوا لإحضار الداية .. الطفل ما كان لينتظر أحداً .. فاجأ الجميع بصرخاته حالما استلقت أمه على ظهرها وباعدت بين ساقيها .. تلقته عزيزة في حجرها .. ..

اكتشفت أنه صبي .. لهجت بالدعاء : (محوط بالله ومحمد رسول الله) .. لفته بخرقة ومسحت الدم عن وجهه وهي تصلي على النبي وترقاه : (رقيتك واسترقيتك من كل عين ريتك .. يد الله قبل يدي .. واتكلت على ربي .. النبي رقى ناقتو من عين رفاقتو .. حطلها العليق ما داقتو .. بقت كسير .. صبحت تسير .. بفضل من له الفضل والتيسير) .. نفخت عزيزة جبينه ثلاث مرات حتى تسري الرقية .

حضرت الداية وأكملت المهمة .. انتهوا من تغسيل الطفل وإحكام اللفائف حوله .. حملته عزيزة بين يديها .. ذهبت إلى مولانا .. لتريه عطية الله .

تذكر مولانا وصية ابن عمه خليل .. الذي ترسه الإنجليز في معتقل صرفند : (إذا رزقتَ غلاماً في المرة القادمة .. أطلق عليه اسم عبد الكريم .. وليحمل إخوته الذين سيأتون بعده ما عُبِد من الأسماء) ..

قال مولانا والدموع في عينيه :

- سميته عبد الكريم .

عادت به عزيزة إلى حضن أمه .. ألقمته خديجة ثديها وعلى وجهها ابتسامة مضيئة .. احتضنته بحنو بالغ وهي تتذكر البشارة التي لم تبح بسرها لأحد (ستلدين ذكوراً .. ولن تفجعي بأي منهم .. سيملأ نسلهم هذه الأرض التي حولك .. لن تموتي قبل أن تسعدي بأحفادك .. لا موت ولا فقد .. ولا فجيعة .. ولا حزن بعد اليوم) .

ضمت الصبي إلى صدرها وقد خنقتها دموع الفرحة : (سلام قولاً من رب رحيم .. سلام قولاً من رب رحيم) .

(30)

وصل مدحت وهبه إلى باره المفضل في شارع هرتسل .. أدى له الجندي الذي يحرس مدخل البار التحية .. مازحه مدحت بإنجليزية سليمة :

– أما زلت هنا يا جورج .. حسبتهم نقلوك إلى حيفا .. حيث تقيم صديقتك .

ابتسم الجندي :

– سيفعلون ذلك يوماً ما .

دخل بهو البـــار .. لاحظ عدداً من الضباط الإنجليز يتحلقون حول إحدى الموائد .. برفقتهم بعض الفتيات اليهوديات .. تعرف مدحت إلى أحدهم وبادله التحية :

– هاي جوني .

– هاي مدحت .

اتخذ مائدة مشرفة على الشارع .. انهمك النادل في تسجيل طلبات أكثر زبائنه كرماً وأريحيه .. وصل إلياهو صديق مدحت .. الرجل النافذ في الهستدروت في معية مفوض الشرطة العام في فلسطين الكولونيل سبايسر .. اتجهوا إلى المائدة المجاورة لمدحت وهبه مباشرة .. اتخذوا مقاعدهم حول المائدة وقال إلياهو للنادل :

– ليكن الطعام لثلاثة أيها الجرسون .. وعلى حسابي هذه المرة .

قال مفوض الشرطة :

– عزيزي إلياهو .. لا بأس عليك هذه المرة أيضاً .. كما في كل مرة أنت تتحدث عن دفع الحساب علانية وأنا أدفعه سراً .. ثم سأل باهتمام :

– أين كنت مختفياً طوال هذا الوقت ؟

– مهاجرون .. مهاجرون جدد كل يوم .. الوكالة اليهودية سدت منافذ الهجرة إلى أمريكا وكندا وأستراليا .. لم يعد أمام يهود ألمانيا خاصة ويهود أوروبا عامة .. مناص من الهجرة إلى فلسطين .. نحن في الهستدروت نتحمل تبعات ذلك .. استقبال المهاجرين .. إسكانهم .. توظيفهم .. تدريبهم على السلاح .

تذكر أنه يحدث مفوض الشرطة فاستدرك وهو يضع إصبعه على شفتيه :

– كولونيل سبايسر .. إنس الجملة الأخيرة فهي ضد القانون البريطاني .

تناول سبايسر الكأس التي وضعها النادل أمامه وجرعها حتى الثمالة ثم أعادها إلى المائدة :

– لم أسمع شيئاً .. نشرب كثيراً .. ولسنا في مهمة رسمية لسماع الأقوال وتسجيلها ..

تنهد مدحت وهبه وهو يشهد التواطؤ المكشوف بين الرجلين .. وتابع بشغف الحديث الدائر بين الرجلين :

– هل هناك أمل في تنفيذ ما جاء في الكتاب الأبيض ؟

قهقه إلياهو :

– حبر على ورق .. كل ذلك حبر على ورق .. جعجه لإلهاء العرب .. وحشد تأييدهم للإنجليز في حربهم مع ألمانيا .

قال سبايسر :

– اليهود والعرب رفضوا هذا الكتاب المبني أساساً على خطة المستر بيل .

تابع إلياهو ما غاب عنه :

– مقترحات اللجنة الملكية المسماة لجنة بيل .. هي من إعداد لجنة شكلتها الوكالة اليهودية ومركز الهاغاناة .. في الوقت الذي يضيعه العرب بدراسة أحاجي وألغاز هذه الخطة نقوم نحن على قدم وساق بإقامة جيش مدرب مجهز ليقول الكلمة الفصل في هذا الصراع .

قاطعه سبايسر :

– ولكن ذلك قد يجركم إلى الاصطدام معنا .

ضحك الياهو واعتدل في مقعده :

– هناك رأيان يسودان الياشوف .. الأول يدعو إلى مقاومة السلطات البريطانية وتكثيف الهجرة والاستيطان بدون أية رخصة ولو أدى ذلك إلى حرب مكشوفة مع جيش الانتداب .. والثاني يدعو إلى عدم المواجهة العسكرية مع الإنجليز والتركيز على شراء الأراضي والهجرة السرية .. والاستيطان كلما سمحت الظروف ..
المتطرفون يريدون إعلان عصيان مدني كامل .. بما في ذلك التوقف عن دفع الضرائب للحكومة .. المعتدلون يريدون مقاطعة المفاوضات والضغط على الحكومة البريطانية سياسياً حتى تغير موقفها .. الوكالة اليهودية كلفت بن غوريون .. بإعداد الهاغاناة لتصبح نواة للجيش اليهودي .. وهو ما يجري الآن على الأرض .

قال سبايسر وهو يشعل غليونه :

– نعرف كل ذلك .. ونعرف أن بن غوريون أرسل مبعوثيه إلى كل مكان لشراء الأسلحة وتهريبها إلى فلسطين .. وأن بن غوريون يقول لخلصائه :

– إذا كانت الحرب العالمية الأولى قد جاءت بوعد بلفور .. فإن الحرب العالمية الثانية ستأتي بالدولة اليهودية ..

قال إلياهو مفسراً موقف بن غوريون :

– بن غوريون يراهن على أن كسب الحلفاء في الحرب سيجعل بريطانيا تهبط بوصفها دولة كبرى إلى الدرجة الثانية .. أما الولايات المتحدة فسوف تصعد إلى الدرجة الأولى بانتهاء الحرب .. ستتبوأ قيادة العالم .. بن غوريون يرى أن الطائفة اليهودية الأمريكية ستصبح أضخم وأغنى طائفة في الحركة الصهيونية .. بفعل تدهور الطوائف اليهودية في أوروبا .. وبالتالي سيكون لها قيادة الحركة الصهيونية دون منازع .

اقترب منهم الصحفي المشهور السير ويلسون مراسل التيمس وغليونه في يده .. أتسمحون لي :

وقفوا مرحبين به .. اتخذ مقعده وقال لإلياهو :

– الحرب على وشك أن تبدأ وسف تلبدون في صدرنا كما فعلتم في الحرب العالمية الأولى .. سيكون شهر عسل طويل .. لكنني أتمنى معرفة موقفكم بعد انتهاء الحرب .. هل ستواصلون مهاجمة عساكرنا وشنقهم .. يا لكم من عصابة ناكرة للجميل تعاملوننا كأعداء محتلين لبلادكم .. تهاجموننا في الصحف التي تمولونها في أوروبا .. تتهموننا بممالأة العرب والانحياز لهم .. ألم ننفذ بنود وعد بلفور كاملة .. ألم نقدم لكم مساعداتنا في السر والعلن .. كان عددكم في فلسطين حين فتحها جيشنا لا يزيد عن أربعين ألفاً .. وأنتم الآن تناهزون النصف مليون .. ما الذي قصرنا في تقديمه ؟؟!!

كرر ويلسون سؤاله بصبر نافذ :

– ها .. ما الذي قصرنا في تقديمه ؟

رد إلياهو متحدياً :

– الأرض .. حينما دخل اللنبي فلسطين كنا نمتلك اثنين بالمائة من الأراضي .. طوال عهد الانتداب الزاهر لم ترتفع هذه النسبة كثيراً .. اليهود لا يمتلكون الآن وبعد كل هذه السنين أكثر من ستة بالمائة من أرض أجدادهم .. رغم كل ما بذلوه من المال .

قاطعه الكولونيل سبايسر مفوض الشرطة :

- منحناكم معظم الأراضي المملوكة للحكومة في فلسطين .. سهلنا شراءكم لأراضي الإقطاعيين السوريين واللبنانيين في الشمال .. لكننا لا نستطيع إرغام الفلسطينين على بيع الأراضي لكم .. أو طردهم بالقوة .

رد عليه إلياهو :

- لذلك فإننا سنعمل على إخراجكم من فلسطين .. سوف نحصل على الأرض .. إن لم يكن بقوة المال .. فبقوة السلاح .

ضاق مدحت وهبه ذرعاً بعراك اللصين على الضحية .. لكنه ذهل حينما أكد إلياهو لضيفه :

- جيوش الدول العربية السبع غير قادرة على الصمود أمام الجيش الذي نعده .. سيكون عدد جنودنا ثلاثة أضعاف عدد الجيوش العربية مجتمعة .. سوف يكون ما لدينا من السلاح والعتاد أكثر حداثة وقدرة على التدمير وحسم الموقف على الأرض .. سنذهل هؤلاء العرب الأوغاد .. الذين لا يجيدون إلا الجعجعة وقصفنا بالخطب النارية التي لا تقدم ولا تؤخر .

فكر مدحت وهبه في سره :

- يبدو أن إلياهو قد ثمل في إحدى حانات تل أبيب قبل أن يصل إلينا .. وهكذا لم يعد يتخير ألفاظه .

سمعوا صفارات الشرطة وعجلات سيارتهم وهي تصر على الأسفلت .. دوت طلقات الرصاص .. تذكر مدحت أن اليوم هو ذكرى وعد بلفور .. قال في نفسه : (لابد أن المظاهرة قد اجتاحت شارع هرتسل وهي على وشك الوصول إلى البار) .. هرعوا إلى الشبابيك لاستطلاع ما يجري .. لكن الحجارة انهالت على شبابيك البار .. ابتعدوا واحتموا بالموائد .. ظلوا جالسين تحت موائدهم حتى استطاع البوليس أن يرد المظاهرة على أعقابها .

هدأت الجلبة في الخارج .. انصرف الرواد واحداً بعد الآخر .. أحكم مدحت وهبه وضع طربوشه على رأسه .. ناول النادل حساب طاولته .. لمحه الصحفي ويلسون وكان قد تعرف عليه عند يوسف هيكل .. فتبعه إلى موقف العربات في الشارع وقال له :

- أنا أعرف أنك على اتصال بيوسف هيكل وجماعة الحاج أمين الحسيني .. أنقل للمفتي هذه النصيحة على لساني .. (إياك أن تتورط في التحالف مع هتلر .. سوف

يستغل اليهود ذلك لوصمك ووصم شعبك كله بالنازية .. سوف يدفع شعبكم ثمناً باهظاً بعد أن تنتهي الحرب .. قضيتكم العادلة لن تجد من يدافع عنها أو يتوقف عندها طويلاً ستكونون الخاسر الأكبر إذا أخطأ الحاج أمين ولم يترسم خطى غاندي) .

تمتم مدحت وهبه في سره .. الحاج أمين ركب رأسه وما أظنه يستمع لنصيحة أحد .

حين تأخر وصول العربات سارا صامتين حتى وصلا مفرق الطرق .. ودع ويلسون صديقه .. لم يجد مدحت رغبة في العودة إلى البيت أو الذهاب إلى بانسيون روزا بعد كل ما سمعه .. استقبل بوجهه البحر ومضى باتجاه الكورنيش .. هبت النسمات وادعة تحمل إليه الرائحة التي يحبها .. عب بمنخاريه عبق البحر .. رائحة الملح الممزوجة بالطحالب الطازجة التي سحقتها الأمواج .. أخيراً وصل الكورنيش .. اتخذ مقعـــداً مواجهاً للشاطئ .. استيقظ في نفسه حنين عارم لاحتضان امرأة .. بحث في أعماقه عن ملامح امرأة معينة فلم يتبين أياً من نسائه .. فكر في نفسه : (يبدو أنني لم أحب أياً منهن .. أنا أسافد النساء كما تفعل خيول البرامكة .. وبعد انقضاء الشهوة أنسى كل شئ ..)

سرح ناظريه فيما حوله .. كانت الشمس توشك على الغياب .. والشفق الأحمر يلون العباب أمامه ويبرقش رؤوس الأمواج التي تتهادى في اتجاه الشاطئ .. خلف ظهره كانت يافا تعج بالحياة .. أبواق السيارات .. نداء الباعة .. صهيل الخيول التي تجر العربات الفارهة .

نظر خلفه كانت بعض الأضواء قد اشتعلت وبدت المدينة تشع مثل ماسة كبيرة :

– لعل يافا هي امرأتي وهي حبي الوحيد .. منحتني نفسها ومنحتها نفسي عاشقاً أبدياً .

لم يكن من طبيعته أن يفلسف الأمور .. عاش شهوانياً منقاداً لغرائزه دون تفكير .. لكنه هذه المرة استرسل في هواجسه : (يافا هبة البحر مثلما غزة هبة الصحراء .. استقبلت يافا البحر بوجهها ومثل كل الموانئ جرت فيها الحياة هنيه لينه .. يافا مفتوحة باتساع أحداقها وانبساط ذراعيها .. ضمت كل وافد .. استقبلت السفن التي أتعبها التطواف .. أغوت الربابنه .. راودت البحارة الغرباء .. مسها من العدوة الأخرى للبحر ما مسها .. أخذت وأعطت .. كل شئ فيها متاح ومباح .. لا حرام ولا عيب ولا حرج ..

غزة أدرات ظهرها للبحر ووجهها إلى جزيرة العرب .. استقبلت القوافل القادمة من أعماق الجزيرة محملة بالنفائس والتوابل والحناء وأخلاق الصحراء .. كل ما في الصحراء من شظف وقساوة ومنع وردع ..

تذكر مدحت ما جاء في التغريبة .. (غزة غزاها البين والنيا ..)

قام من مقعده .. سار الهوينى باتجاه المدينة .. هبت رياح الخريف تداعب أوراق الأشجار وتسقطها فوق رأسه .. أشار لعربة حنطور .. استقل المقعد الخلفي وهتف بالحوذي :

– بانسيون روزا .

دندن بأحد أغانيه المفضلة :

– جابلي وجابلي

يا ماما وجابلـــي

حلق الفضة

ريتو يلبقلي

اشترك معه الحوذي في الغناء .. رفعا صوتيهما عالياً بباقي الأغنية .

كلمتو شــــي .. لا والله

حاكيتو شي .. لا والله

وأنا لعنـــــدو رايحـــــه

عالصالحيه .. يا صالحه

(31)

دخل أبو التوفيق البد وهو يرتعد .. قال لصبيه جلهوم :

– نِزِلْ الكوحي .. هات هالكانون .

وضع جلهوم كانون النار بين يديه .. شذب أبو التوفيق الأغصان الجافة .. رصها بعناية فائقة أسفل الموقد .. وضع فوقها عروق الحطب الأكثر غلظة .. أشعل النار .. ارتفعت ألسنة صغيرة من اللهب تحت كومة الحطب .. دبت النار في الكومة ناشرة الدفء في أركان المكان .. تناول أبو التوفيق رغيفين من صرة الطعام بجانبه .. تأملهما وتمتم :

– قمح صافي .. لا بِلُم ولا بِرُم .

مدهما لصبيه بنزق :

– بدلهم من دار الريفي برغيفين معبوكة .

انطلق القطروس إلى الخارج .. حمل أبو التوفيق زبديـــة فخار وذهب إلى الخابية .. رفع غطاءها .. كان الزيت قد تجمد من البرد .. اغترف كتلة من الزيت في الوعاء .. وضعها إلى جانب النار .. تأملها وهي تذوب .

عاد صبيه برغيفي المعبوكة[1] .. قربهما أبو التوفيق من النار حتى توردا .. فتح أحدهما وشم الرائحة .

– هادا الخبز الحقيقي .. قمح وشعير وذرة .. خلطة بتدوِّر الطواحين .. وبتمشي بوابير البحر .

وضع صبيه مصحاناً من الفخار أمامه .. انهمك أبو التوفيق في تفتيت الخبز .. فرك على وجه المصحان حصوتين من الملح .. كان الزيت في الزبدية قد ذاب تماماً .. حمل أبو التوفيق الزبدية وقربها من أنفه .. تنشق بشراهة رائحة الزيت وتمتم ..

– بسم الله ما شاء الله .. زيت زيتون حر من راس البد .

1. المعبوكة : خليط من دقيق القمح والشعير والذرة دون نزع النخالة .

دلق الزيت الدافئ على الخبز حتى غمره .. قلب الخبز بإصبعيه ثم بدأ في تناول إفطاره اليومي .. حين فرغ الوعاء مسحه بسبابته ولعقها .. ظل يفعل ذلك حتى لم يعد على جدران الوعاء ما يستحق أن يلعق .. شرع إبريق الماء على فمه .. شرب حتى ارتوى نحاه جانباً .. تجشأ .. نظر إلى الطريق .. كان المطر يصفــع باب البد الموارب .. قال في سره : (ما أظن لولو تغامر بالخروج من بيتها تحت هذا المطر)

قرب كفيه من النار .. فركهما ببعضهما مجلبة للدفء .. غنى لنفسه كما اعتاد أن يفعل كلما شعر بالحنين لرؤيتها :

- يا بنتِ يا مولدنة .... يا للي العسل بوزك

مريت عطشــان أنا .... وشربت من كوزك

يا رب تحق المنى .... وأصيــر أنا جوزك

وكل ما قتلنا الهوى .... الوصــل يحيينا

عالروزنه .. عالروزنه .. كل الهنا فيهـا

وإيش عملت الروزنه .. الله يجازيها .

انقضى النهار كله ولم ير لها وجهاً .. لم يقدر له أن يراها في الأيام التي تلت ذلك ..

انتظر أبو التوفيق يوم العرس كما ينتظر الصائمون هلال العيد .. كل مراوغات الهدار ومماطلته شهوراً طويلة .. لم تفت في عضد أبو التوفيق .. ولم توهن عزمه .. ظل موقناً بنيل غايته .. مثابراً على إرضاء الهــدار .. حتى آن الأوان وتحدد موعد العرس .. وها هو صبره على بعدها ينفد .. زادت عصبيته وزاد تنكيله بالمحيطين به .. أخيراً أزفت الآزفة .. زفت العروس إلى العريس .. انصرف المدعوون .. اقتادها أبو التوفيق إلى العُلّية .. تأمل أبو التوفيق جرمها الضخم وقال في سره :

- لو أنني أحدث سناً لحملتها كما يحمل العرسان عرائسهم .. طوق خصرها بذراعه .. وهو يعزي نفسه : (قلل من الندر وأوفيه) .

أغلق أبو التوفيق باب العُلّية وراءه .. أطفأ المصباح .. تمدد إلى جوارها .. كانت في فضلة من ثيابها .. مد أبو التوفيق كفه ومسح على شعرها .. تلمس بأطراف أصابعه وجهها ورقبتها .. انحدر إلى صدرها العارم .. طاف به في حنو بالغ .. أخيراً استقرت كفه على كشحها الضخم الذي سلب لبه يوم الجماقيه .. تحسسه بشراهة .. بدأ في تقبيلها .. لفحته أنفاسها الدافئة .. شدت بذراعيها على كتفيه .. ازدادت وتيرة تنفسها حدة .. كانت تتجاوب معه بعفوية افتقدها في أم التوفيق .. بنت وهبه كانت تستسلم له مرغمة فيحار إن كان الحياء هو الذي يمنعها أم زهدها فيه .. لولو بدت متعطشة ً لكل حركة من حركاته .. أحس أنه يفتح أقاليمها واحداً بعد الآخر .. يرود عالماً مسحوراً طال شوقه إليه .. اشتدت عزيمته .. اندفع ملبياً طيشها الذي تفجر تحت أصابعه .. بذلت له ما أراد منها أن تبذل .. أمكنته من نفسها .. سهلت له ما كان يحسبه صعباً وبعيد المنال على رجل جاوز الثمانين مثله .

هل أحبته حقاً ؟؟!! .. أم أن يأسها وعنوستها التي طالت دفعاها إلى ذلك ؟؟!! .. أم رغبتها في أن تحمل وتلد مثل كل أنثى في الحارة !! .. لم يجد أبو التوفيق جواباً وهو في غمرة مداعباته وفتوحاته ..

أخيراً افترعها أبو التوفيق .. أطفأ في حضنها مرارة أيام طويلة عاشها دون أنيس ولا جليس .. أيام أحس فيها بأنه آلة سعى إليها العطب .. وأنه عجوز مهمل ملقى على قارعة الطريق .. ها هو الشيخ يعود إلى صباه .. الحياة تبدو أمامه رخية هنية .. حافلة بالفرح والحبور والسعادة .

ارتشف أبو التوفيق رشفة طويلة من شفاهها المكتنزة قبل أن يستلقي إلى جوارها وهو يقول في سره : (إجتك والراعي نايم يا أبو التوفيق) .. احتضنها بكلتا ذراعيه وأخلدا للنوم .

في اليوم التالي لم يجد أبو التوفيق رغبة في الخروج من غرفته .. تحامل على نفسه وخرج ليتلقى تهاني الأهل والأقارب ..

شد الرفاتي على يده مهنئاً وممنياً نفسه بالحلوان :

- دخول الظافرين يا أبو التوفيق .. إنت وهتلر دخلتو سوى .. هتلر دخل باريس .. وإنت يا نمس دخلت دنيا .. حلال عليك يا عم .

وقف الرفاتي يرقص بين يدي أبو التوفيق ويغني له :

– حط البلبل عالرمان

اسمعتو في الليل يغني

ويصحي زين ا لعرسان

إللـــي بايت متهنـــــي

تريلي لي لم .. هيهات يا ابن العم ..

استعاذ أبو التوفيق من عين الرفاتي وناوله الحلاوة .. استقر في مجلسه على باب البد يصرف أعماله بفتور لم يعهده في نفسه من قبل .. كسل لذيذ كان ينغمش جسده .. يغريه بالعودة إلى فراشه والنوم بقية النهار .. وهذا ما فعله ..

حسب العادة التي تعارف عليها أهل الحارة لم يعد إلى مراودتها إلا بعد أسبوع كامل .. في تلك الليلة أراد أن يتفوق على نفســـه .. مر بدكان صديقه الحاج نوح العطار .. خصه نوح بتحويجة مجربة .. دسها في كفه وهو يبتسم بتواطؤ :

– هادي اللي وصى عليها داوود الأنطاكي في التذكرة .. اغليها .. واشرب ميتها وادعي لي .

صعد أبو التوفيق إلى فراشه .. واثقاً من نفسه .. عاقداً العزم على إحياء ليلة لم يمر بمثلها في عز شبابه .. (الأرض عطشانة واقبل عليها الوسِم .. وانت يا أبو التوفيق أول مطرها .. والليلة ليلتك .. وبركي الله أطعمك وطرحت الشجرة العجوز .. جابت منك ولد يوحد الله .. بتجدد اسم توفيق اللي كان أحن أولادك عليك .. وضاع منك في حرب اليمن) .

أحس أبو التوفيق أنه يتصالح مع زمانه .. أنصفته الدنيا أخيراً .. ترجم معاه دهره وخدم .. فرك أبو التوفيق راحتيه :

– شدة ورخا يا محلى .

في الصباح سمعت لولو دقاً على الباب .. دعتها زوجة عبد الحميد لصلاة الصبح .. كان ما يزال يطوقها بذراعه .. تذكرت أفاعيله في ليلته العجائبية .. فكت ذراعه التي تطوقها بصعوبة .. دنت منه .. أطلقت صرختها التي تجاوب صداها في الحارة كلها .. ماكانش يومك يا أبو التوفيق ..

(32)

أخطر ما يتحاشاه مولانا .. هجوم المتطفلين على مدرسته الليلية .. أولئك الذين لا يجدون مكاناً آخر للسهر والتسلية .. ويريدون تحويلها إلى مقهى أو شِق عرب .. فتنحرف عن رسالتها الأساسية في تعليم الكبار القراءة والكتابة ومبادئ الحساب .

استنبط مولانا الكثير من الوسائل الناجعة لكي ينشهم كما ينش الذباب .. الأضواء الساطعة التي تشع كل ليلة .. كانت دائماً تحمل له متطفلين جدداً .. في البداية يدعون الرغبة في التعلم .. ثم تنكشف ذواتهم عن كسالى أو مهرجيــن لا يصلحون لشئ .. عندها يتذكر مولانا قول الإمام الشافعي : (أهون علي أن أضرب الصخر بأصابعي .. حتى أشقه أو تدمى أصابعي .. من أن أعلم من لا يتعلم) .

الوجيه الأمثل عبد الرءوف خيال جاره من جهة الغرب .. اعتبر المدرسة ومديرها وتلاميذها متسكعين تافهين على سياج بيارته ..

إن فكرة إقامة مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين لم ترق له على الإطلاق .. قالها لمولانا دون مواربة :

– إذا أولاد الفلاحين اتعلموا وصاروا قضاه وأطباء ومهندسين .. ماذا يعمل أولادنا نحن الأفندية .. يكنسون الشوارع ؟

حين علم الوجيه الأمثل أن جاره زاد في غيه ولم يكتف بتعليم أولاد الفلاحين .. بل إنه يريد أن يعلم الفلاحين أنفسهم .. اعتبر ذلك الطامة الكبرى ..

أقل من الوجيه الأمثل خطورة .. الجار الملاصق لكروم مولانا من جهة الشمال .. عيد حمادة .. الذي يلجأ للمدرسة ليس رغبة في تعلم أي شئ ولكن للفكاك من زوجاته الأربعة .. وطلباتهن ومعاركهن التي لا تنتهي .. كان عيد بارعاً في اختراع الحكايات وتصديقها ونشرها بين الناس .. ودعم صدقيتها بأيمان الطلاق الموثقة من كل حريمه ..

جاره من جهة الشرق .. فلاح طاعن في الفلاحة .. يحفظ أرض الحارة مارساً مارساً .. وشبراً شبراً .. يكاد أن يكون مرجع الحارة في تاريخ بداية كل موسم وتاريخ نهايته .. وما يصلح لكل موسم .. كان (شملخ) رجلاً من الماضي لا يكترث للحاضر وتفاصيله اليومية .. ولا يلم بالسياسة وأخبارها .. لذلك فهو دائماً فريسة سائغة لعيد حمادة وأخباره التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ذات مرة عاد من الفلحة آخر النهار حافياً كعادته .. نظرت زوجته إلى كعب رجله وصرخت .. رات ثعبانا غرز أنيابه في كعبه .. سحبه شملخ من البيدر إلى البيت دون أن يحس به .. الثعبان المسكين لم يستطع طوال الطريق نزع أنيابه من لحم الكعب الميت .. الذي تحول بفعل الحفاء الطويل إلى ما يشبه خف الجمل .

هرعت زوجته لتخلص الثعبان من ورطته فوجدته ميتا بعد أن داس زوجها على رأسه طوال الطريق ..

رابع هؤلاء المتطفلين على مائدة العلم في كُتاب مولانا .. هو أحد الشطار المشهورين في الحارة .. مسبع الكارات .. محمد أبو سعادة .. فهو بَنـــَّاء .. قَصّير .. نجار باطون .. ضريب طوب .. بائع متجول وخلاف ذلك ..

في تلك الليلة من ليالي مكافحة الأمية .. اجتمع المتطفلون الأربعة في بلاط مولانا .. حار مولانا كيف يواجه ظرفاً قسرياً كهذا .. كان ينتصر عليهم فرادى ويقصيهم عن مدرسته بسهولة .. هذه الليلة أخذ على حين غرة .. لكنه لم يتوانى في ردهم على أعقابهم جاهداً أن لا يفقد صداقة أي منهم .. هم في النهاية جيرانه والنبي وصى على سابع جار .

تناقل الجالسون أخبار الحرب .. وتعليقات يونس البحري في إذاعة حي العرب من برلين .. قال البهتيني وهو ينحي كتابه جانباً ويشارك في الحديث :

– يونس البحري علق على دخول إمارة شرق الأردن الحرب ضد ألمانيا .. فقال على لسان هتلر : (أنا مش هاممني أساطيل الحلفاء وطياراتهم ودباباتهم .. أنا اللي هاممني أسطول الأمير عبد الله اللي مرابط في البحر الميت) .

ضحكوا على التعليق .

شجع ذلك عيد حمادة على نشر إحدى مساهماته الهامة في الحرب :

– الحاج محمد هتررغاضب على رشاد الشوا .

نظروا إليه غير مصدقين .. لكنه لم يتراجع بل أتحفهم بتفاصيل الخبر :

– الحاج محمد هترر قال بس قوات البانزر تصل غزة .. بدي أعلق رشاد الشوا من رجليه .. غزة البلد العاقلة اللي عمرو ما تقلب وراها صرارة .. يبني فيها رشاد الشوا سينما .. هادى مسخرة وقلة حياء وقلة دين .

علق شملخ باهتمام :

– هيه الحكاية وصلت لهترر ؟

رد عليه عيد حمادة بثقة :

– الحاج محمد هترر من يوم ما أسلم بالخفيه .. اتصل بآلة اسم الله .. وما بتفوتو شاردة ولا واردة .

هتف شملخ بخضوع بالغ :

– دستور يا أصحاب هالمكان .. يا ملايكة الله لا تآذونا ولا نآذيكم .

تنطع لهم محمد أبو سعادة :

– هتلر اخترع خلوندات حديد .. بدو يطلقها تحت الجزر البريطانية .. تظل تفحر لما بريطانيا تغوص في البحر ونخلص من شرها .

قاطعه الوجيه الأمثل عبد الرءوف خيال وقد فاض به الكيل :

– هذه تخرصات الجهلة من أمثالك .

ابتلع محمد أبو سعادة لسانه ولم يجرؤ على مجابهة أفندي الحارة .. زاد ذلك من غلواء الأفندي .. ضاعف هجومه على الحاضرين .

– حزبنا (الكتلة الوطنية) لا يمنح عضويته للجهلة أمثالكم .

محمد أبو سعادة وجدها فرصة ليعجم عود أفندي الحارة ..

– يا أفندي قديش عدد الأعضاء في حزب الكتلة ؟

(كان الجميع يعرفون أن الحزب لا يضم أحداً سوى عبدالرؤوف خيال نفسه .. هو الرئيس والعضو والفراش الذي يفتح مقر الحزب ويغلقه) .

نهره الأفندي بقسوة :

– عوام بجم .

ثم خاطب مولانا :

– أنا مندهش .. كيف واحد متعلم مثلك بضيع وقتو مع الفلاحين البهايم .

وضع طربوشه على رأسه بعصبية وغادر المجلس مستنداً على عصاه ..

ما أن ابتعد حتى أغرق الحاضرون في الضحك .. قام محمد أبو سعادة خلفه يقلد مشيته .. عادو إلى الضحك حتى دمعت عيونهم ..

أراد مولانا أن يعيد الأمور إلى نصابها .. قال لمحمد أبو سعادة :

– افتح كتابك على الدرس الذي وصلت إليه ..

فتح أبو سعادة كتابه مكرهاً وحين تلعثم في القراءة .. قال له الشيخ :

– هل نسخته كما طلبت منك ؟

هز رأسه نفياً .. فقال له الشيخ :

– علشان تفلح في السياسة .. لازم تفلح في الدراسة .. اجلس هناك وابدأ النسخ ..

ثم انصرف إلى تلميذ آخر .

شخر عيد حمادة وقال لشملخ :

– الشيخ حبس شيطاني .. قوم أنا وياك نسهر في ديوان الحكوك ..

سحب صديقه وجاره وانطلقا إلى الشارع .

(33)

انبهار الشملول[1] بالسينما صار هاجساً مقلقاً لأهله ومعارفه .. فهو لا ينفق كل نقوده وجل وقته على ارتياد الصالات ومتابعة الأفلام فقط .. ولكنه يحفظ أسماء الممثلين .. ويتباهى برواية نوادرهم وأخبارهم .. لا يمل الحديث عنهم مع كل من يعطيه أذناً للسمع .. كان قصير القامة .. ممتلئاً.. قصير الذراعين بشكل ملفت .. ضيق الجبين .. له عينان صغيرتان .. شعره وحاجباه وشاربه باللون الأشقر الفاتح يعطيان وجهه ملامح باهتة .. ورغم ذلك ظل يزعم أنه لولا اللثغة التي يعاني منها لأصبح من نجوم السينما المشاهير مثل عبد الوهاب وأنور وجدي .. وبدر لاما .. عمه رزق الذي لا تنطلي عليه مثل هذه المزاعم .. كان يفند ادعاءه :

- عرج الجمل من شُــفْتُو .

تمادى الشملول في حالته السينمائية فصار يسقط مشاهد الأفلام الدرامية والكوميدية على حياته الخاصة في خلط جلب له المتاعب .

ماتت أخته حليمه .. جلس عند قبرها بعد الإنتهاء من دفنها .. وبدلاً من أن يتلو عن روحها آيات الذكر الحكيم .. أطلق عقيرته بأغنية عبد الوهاب :

- أيها الياقدون (الراقدون) تحت التياب (التراب) .

رفع زوج أمه الدوش عصاه وانهال بها عليه :

- ولك يا ابن الديوسين .. إحنا في إيش وإنت في إيش .

لو لم يفر بجلده لدفنه الدوش إلى جوارها واحتسب أجره عند الله .

ظل الشملول يمني نفسه بحضور حفلة المطرب الصاعد محمد عبد المطلب في سينما الحمراء بيافا .. اشترى تذكرتين له ولصديقته سالي .. وهي مهاجرة يهودية قدمت من مصر حديثاً .. أقسم لها الشملول بموسى وهارون والوصايا العشرة أن عبد

المطلب سيغني في الحفلة كل الأغاني التي غناها عبد الوهاب في فيلم الوردة البيضاء الذي عرض بنفس السينما وحضراه معاً .. ثم أكد لها أن (طِلِب) ليس أي مطرب .. لقد عمل خمس سنين من عمره لبّيساً للموسيقار عبد الوهاب .. التصق به كظله وشرب على يديه الصنعة ..

1. أوسط أولاد عزيزة من زوجها الأول اسماعيل .

لثغة الشملول في حرفي الراء واللام .. لم تمنعه يوماً من ممارسة هوايته في الغناء وتقليد كبار المطربين .. احتضن الشملول خصر سالي بذراعه القصيرة ودندن في أذنها مقلداً عبد الوهاب في فيلم الوردة البيضاء :

– يا ويدة ايحب (وردة الحب) الصافي

تسيم (تسلم) إيدين إيي (إللي) سقاكِ

قطع الشملول غناءه .. أطلق شتيمة من كعب الدست .. ختمها بأشهر كفرياته :

– يبّك (ربك) .

كان قد رأى عمه مدحت وهبه يتأبط ذراع عمه فايق في طريقهم إلى الحفل .. اختفى الشملول قبل أن يبصرا به تاركاً صديقته دون أن يعطيها التذكرة التي اشتراها لها ..

لمحه فايق بطرف عينه فقال في نفسه :

– بتبقى في تُمَكْ بتقسم لغيرك .

ترك ذراع مدحت .. اتجه صوب الفتاة وهو يشير لمدحت بالانصراف .. قال لها بعبرانية أكثر طلاقة من عبرانية الشملول :

– المشي مع الأولاد الصغار مجلبة للمتاعب .. الرجل الناضج .. الأدون .. (وأشار إلى صدره) الذي يقدر جمال الفتيات ولا يتخلى عن صحبتهن مهما حدث ..

مد ذراعه إلى الفتاة وهمس :

– معي تذكرتين للحفل وفي الصف الأول .. أنا وحيد كما ترين .. يشرفني أن تكوني رفيقتي .

شبك ذراعه في ذراعها .. اقتادها إلى داخل السينما .

حملق فيه مدحت غير مصدق ما حدث .. هو الذي دفع ثمن التذكرتين .. ها هو اللعين فايق يسبقه على الغنيمة .. بل ويقصيه عنها .

ضرب كفاً بكف وهو يكيل الشتائم لفايق :

- كبرت يا زُ .... واطلعت من عُبي .

ثم عزى نفسه : (وإيش يعني عبد المطلب .. ما أنا حضرت عبد الوهاب شخصياً في زحلة .. وسمعت منو شخصياً .. يا جارة الوادي .. ليلتها عبد الوهاب عمل عمايلو .. والعرق الزحلاوي سطلني سطل .. ما إلك يا مدحت في هالذكرى التاريخية إلا تاخدلك كاسين عرق أبو سعدى في بار عدن .. بلا عبد المطلب بلا زط عوينه .

أغـذ الخطى إلى بار عــدن .. كان صديقه الصحفي ويلسون يجلس على المسقى .. حياه وجلس إلى جواره .

طلب له ويلسون كأساً من الويسكي :

هتف مدحت معترضاً :

- عرق أبو سعدى .. الليلة بدي أشرب بطحة من حليب السباع .. ثم همس في أذن ويلسون :

- سيبك من هالسكوتش وجرب عرق أبو سعدى .. وبدل ما انت صحفي بتصير مستشرق .

لم يحفل ويلسون بترهاته .. قال له جاداً :

- أرسلت لصحيفتي تقريراً عن أثر الحرب بين الحلفاء والمحور على الاقتصاد في فلسطين .. اسمع ما كتبته .

أخرج ورقة من جيبه وقرأ :

- غواصات ألمانيا ضايقت سفن الحلفاء في البحر الأبيض المتوسط .. كما في أعالي البحار .. انقطعت خطوط الملاحة المنتظمة .. الواردات الأجنبية التي كانت تغرق فلسطين توقفت .. مما أدى إلى ازدهار الصناعات الوطنية .. كالمنسوجات .. والمصنوعات الجلدية .. وصناعة الأثاث .. وقطع الغيار ..

تضاعف الإنفاق العسكري أدى إلى رواج المحاصيل الغذائية والسلع .. وارتفاع دخل العمال والفلاحين .. الذين انخرطوا في تلبية احتياجات الجيوش .

جرع مدحت كأسه الثاني .. انطلق لسانه .. قاطع صديقه مدلياً بدلوه في الموضوع :

– محددة واجنر أكبر ورش الحدادة في فلسطين .. التي يقتصر عملها عادة على خدمة الموتورات ومضخات المياه والجرارات الزراعية .. عمالها واصلوا العمل على مدار الساعة .. اضطر واجنر لمضاعفة الرواتب والأجور للفنيين المهرة .. الذين يقومون بإنجاز أعمالهم في وقت قياسي ..

و أكمل في سره : (فايق الوسخ .. شاف حالو عليَّ .. أنا ولي نعمتو .. إن ما خليت واجنر يطردوا زي الكلب) .

قام مدحت وهبه مستأذناً صديقه ويلسون في الانصراف :

– عليَّ أن أسافر غداً إلى غزة في رحلة عمل .. سأضطر للنوم باكراً هذه الليلة .. دفع الحساب للنادل .. قام يترنح في مشيته وهو يكيل الشتائم لفايق اللي قلب ليلتو غم.

قال في نفسه :

– ما إلها إلا روزا .. سددت أجرة الغرفة المتأخرة وجميع الفواتير التي تراكمت عليَّ أيام الإضراب .. ورجعت علاقتي معاها صافي يا لبن .. أكيد رح تشملني برضاها وتعطيني كوموريرة من الروسيات إللي وصلوا إمبارح .

أخذ يصفر لنفسه لحناً من ألحان عبد الوهاب إلى أن وصل البانسيون .

في الصباح استقل القطار إلى غزة .. قرر المبيت عند مولانا .. خديجة ابنة أخيه اسماعيل احتفت به .. مولانا سأله باهتمام بالغ عن أخبار الوهايبة في يافا .. تذكر مدحت فعلة فايق الدنئية معه وكيف احتاز الغنيمة وحده .. فانطلق ينفث عن صدره :

– فايق بعد ما كان أيام جوعو يلحلح ديلو لمرتو وأبوها .. جرى القرش في إيدو .. رجعت ريما لعادتها القديمة .. عديم الأصل .. فصل دزينة بدل إفرنجي .. كل بدله إلها صديري وكرفته ومحرمة وكندرة وجرابين على لونها .. وابن بيرو .. اللي ما فش في الدنيا غيرو .. بطلع من محددة واجنر كل يوم على تل أبيب عدل .. طول الليل بتلطم بين الكازينوهات والكباريهات .. الله وكيلك بنت أخوك حسن ما بتشوف إلو صورة وجه .. إلا لما بفيض كيل أبوها ويسحبو من رقبتو .. لفراش الحلال .

نظرت خديجة إلى عمها الذي نسي في غمرة سخطه على فايق أنه يفعل الشئ نفسه وقالت ببلاهتها المعهودة :

– ما إنت يا عمي الصلاة والرحمة عليك .. ما بتقطع لك فرض ..

فوجئ مدحت وهبه بتدخلها في الحديث ..

أخرج علبة سجائره .. وضع سيجارة في مبسمه الذهبي .. أشعل السيجارة ونفث دخانها في الهواء :

– بشوف بتحكي في السياسة يا بنت أخويه .. بدك تحددي موقفك .. إنت مع المحور .. ولا مع الحلفاء .. ولا طابور خامس .

حدجها مولانا بنظرة قاسية .. ابتلعت خديجة لسانها .. لم تنبس بعد ذلك ببنت شفه .

ألقى مولانا حبل النجاة لخديجة .. وغير موضوع الحديث :

– ما هي أخبار الباقين ؟

تابع مدحت :

– شقيقك حسني التحق بوظيفة ثابتة في منجرة كبيرة بأجر باهظ .. ابن عمتك هاشم تزوج سيدة بارعة الجمال من عائلة كبيرة العدد .. لاحظ هاشم أن أقرباءها يأتون لزيارتها دون أن يصطحبوا نساءهم .

قلة العمل في الميناء .. دفعته مراراً إلى العودة إلى البيت مبكراً على غير عادته .. عرفته على بعضهم .. (هادا ابن خالي .. هادا ابن عمتي .. هـــادا جوز أختي) .. أخيـــراً اكتشف الزوج المخدوع .. حقيقة العلاقة بينها وبين أقاربها المزعومين .. انكسر قلبه .. طلقها بالثلاثة .. عاد إلى أمه مكسور الجناح بعد أن أودت العروس بكل ما ادخره من عرق جبينه .

ضحك مولانا وقال بأسى :

– إجا يكحلها عماها ..

تابع مدحت وهبه :

– الديناري عرفت النقود طريقها إلى يديه .. ادخر ما يكفي لامتلاك بيت في سلمه إلى جوار بيت أخته عزيزة .. استقر فيه مع زوجته اليافاوية الجميلة وأطفاله منها .

ابن عمك رِزق إجاه مولود سماه كامل .. فرح به كثيراً وأولم عن سعة للأهل والأصدقاء في بيته الجديد بسلمه .

عمي حسن ازدهرت أعماله .. جنى أرباحاً مضاعفة من بيع الزفزف .. ولولا ندالة صهره فايق لطاب له العيش ..

ثم استدرك وهو ينظر إلى خديجه .. كأنه يستفزها :

– فايق سكرجي .. نسوانجي .. فلاتي .. وابن حرام صرف .. إيش جابو الِي .. هوه بتوصل .. أي أنا ماشي سربست وما بقطع لي فرض .. مش هيك يا خديجة .

أطرقت خديجة إلى الأرض دون أن تجرؤ على إجابته .

– هادي أخبارنا في يافا وسلمه .. إيش أخباركم في غزة ؟

اعتدل مولانا في جلسته وقال لابن عمه باعتزاز :

– حكومة الانتداب اعترفت بي كمدير لمدرسة أهلية جيدة السمعة .. نفحتني راتباً شهرياً لا بأس به .. إلا أن ذلك لم يمنعني من المشاركة في المناسبات الوطنية .. اشتريت علماً فلسطينياً مثبتاً فوق سارية عالية .. يحمله عريف الكُتاب .. ويقود التلاميذ في المظاهرات والاعتصامات التي تدعو إليها لجنة العمل الوطني .

وضعت خديجة أمامهم أطباق الطعام .. قال الضيف مازحاً :

– تربية العقول لم تحل بينك وبين تربية العجول .. مررت بالزريبة وتفقدت القطيع .. ما شاء الله على عجولك منفوخين نفخ .. لم أدرِ قبل الآن أن كسبة السمسم المخلوطة بالتبن تفعل كل ذلك .. لا شك أن عجولك ستكون أحسن ما في السوق .. سيتهافت عليها الجزارون .. وستجني من وراء ذلك ربحاً جزيلاً .. حلال عليك يا عم .

انتهيا من العشاء .. اصطحبه مولانا للسهر مع أهل الحارة وسماع آخر أخبار الحرب عند محمد أبو سعاده .. أبو السعدي كما يلقبه أهل الحارة اشترى راديو ضخماً يعمل على بطارية السيارة .. نصبه أمام بيته .. أصبح ديوانه قبلة المنطقة كلها .. صار الناس يتقاطرون نحوه كل ليلة .. قال مدحت وهبه في نفسه وهو يرى مداهنة أهل الحارة لأبو السعدي .. (إللي ما شاف إشي وانتشى) .. ثم همس في أذنه بسخرية مبطنة :

– يا أبو السعدي صار إلك ديوان .. ولا ديوان الحاج سعيد الشوا في زمناتو .

ثم التفت إلى الحاضرين ونفحهم بوجهة نظره :

– الإنجليز أثناء الحرب مارسوا أقصى حالات المداهنة مع العرب .. لم يتصدوا للمظاهرات بالقمع أو الاستفزاز .. موفرين على أنفسهم خوض حربين في وقت واحد .. مكتفين بالدعاية النشطة داخل فلسطين والترويج لنواياهم بحل عادل يحفظ حقوق العرب .

ثبت أبو سعادة مؤشر الراديو على إذاعة الشرق الأدنى .. سمع أهل الحارة إحدى أغنيات الحرب التي تروجها الإذاعة البريطانية :

(ياالله يا أهل فلسطين الحرة ..

تتســـــاعــد انجلتـــــرّه

ونهــدم رومـــا وبرلـــينِ)

شخر عيد حماده وأقسم بالطلاق من زوجاته الأربعة أن الإنجليز عرضوا على هتـــرر أن يستسلموا له .. ولكن هترر رفض إلا أن يحتلهم بقــوة الســـلاح .. بعتولوا (تشمبرلن) يفاوضو بالسر .. طلع تشمبرلن من مكتب هترر شفايفو حمر .

استغرب المستمعون ذلك .. تلهفوا على معرفة ما حدث .. لم يبخل عليهم عيد حمادة بالتفسير :

– أصلو هترر كان عندو بواصير .. ومدهنهم يود .. طلع اليود على شفايف تشمبرلن .

شخر شملخ وقد فهم الفوله :

– تشمبرلن .. باس طيز هترر عشان يصالحو .

بسط عيد حمادة كفيه مستنكراً فعلة تشمبرلن :

– على مين .. يا عمي هترر صاحي للإنجليز وملاعيبهم .

أقفل أبو سعادة الراديو ليوفر البطارية .. مال شملخ على جاره سلامة شحته ليكمل ما بدآه من حديث :

– اتأخرتوا يا أبو حسين .. أتأخرتوا كثير .. البدار في الغطاس كاس بكاس .. كل عمرنا بنحرت الأرض على الصليب .. يعني في التشارين مش في الكوانين .. قال المثل : في باب الدارون .. ضب بدارك يا مجنون .

تنهد سلامة شحته بأسى :

– إيش نعمل .. ماكينة الحرات اتأخرت علينا .. حجزنا عند ابن فرح النصراني من أول آب .. الحرّاته ما فضيت إلا الجمعة اللي فاتت .. ساق الله لما كنا نحرث على الدواب .. بلا ماكينات بلا هم .. جدودنا راحو وراحت إيامهم معهم .. ما عادش الله يطرح البركة في إشي .. الله وكيلك القمح والشعير .. برتفع سعرهم لما بدنا نشتري البدار .. وعند الصليبية بِرَطرط .. بطلع علينا القمح والشعير الأسترالي .. وما إشي بجيب همو.

رد عليه شملخ :

– من يوم ما اتولونا هالكفرة الإنجليز ما شفنا خير .. الفلاح في كرب .. على الله ينشغلوا في الحروب ويسيبونا نلقط رزق عيالنا ..

قال سلامه شحده مؤمناً على كلامه :

– الله يحط حيلهم بينهم بجاه النبي ومن صلى عليه .

قاطعهم أبو سعادة :

– الأخبار يا شباب (رفع صوت الراديو) .

حي العرب من برلين .. وهذه نشرة الأخبار .

أفاض يونس البحري في تفاصيل اقتحام جيش رومل للعلمين .. ثم انتقل إلى الحديث عن اجتماع الحاج أمين الحسيني مع الدوتشي موسليني في روما .

علق عيد حمادة بغضب :

– إيش يطلع موسليني .. الحاج أمين ما برد راسو إلا هترر بذات نفسو ..

قال شملخ :

– ما بقضي حاجة الشيخ إلا الشيخ .

علق مدحت وهبه وهو يهم بالانصراف :

– الألمان صاروا في العلمين .. يعني بينهم وبين فلسطين خطوتين .. وإذا وصلوا هالبلاد .. بكون الله بعت للظالم باللي أظلم منو .

كان الليل قد أوغل .. قام الساهرون يتحسسون طريقهم ..

في اليوم التالي حقق مدحت وهبه أكبر نجاحاته .. ضمن ثلاث بيارات في يوم واحد .. بيارة الباشا [1] وبيارة الوزير [2] وبيارة البقارة[3] .. لم يعد مضطراً للبقاء في غــزة بعد ذلك والاستماع إلى ترهات أهل حارته .. لقد غاب عنهم ثلاثة عقود من الزمن .. وعاد إليهم فوجدهم حيث تركهم .

1.أحمد حلمي عبد الباقي
2.الوزير الإيراني الطابطبائي .. نفاه شاه إيران .. فاختار غزة منفى له وأسس فيها البيارة المنسوبة له .
3.البقاره بيارة الحاج سعيد الشوا

(34)

قال حسن لعماله :

– الحديده حميت على الآخر .. بكره بدها تصير مدبحه .. مش حيالله مظاهرة وكل واحد يروح على دارو ويحط راسو وينام .. موسى كاظم الحسيني جاي من القدس مخصوص علشان يقود المظاهرة .

سأل الديناري :

– مين هذا موسى كاظم ؟

زجره حسن بنظرة مؤنبة ..

تدخل سليمان بهار ابن زوجة حسن من زوجها السابق :

– ولك هادا أكبر طربوش في فلسطين .

تابع حسن :

– الزلمة صار فوق الثمانين .. ولسه شايل همنا وهم الوطن على اكتافو .. الجمعة إللي فاتت قاد مظاهــرة القدس .. ولما عساكر الإنجليز شتتوا المظاهرة .. كان بدو يروح فيها .. والجمعة هادي بدو يقود مظاهرة يافا .. الله يستر .

تحمس الديناري :

– بدي أشارك في المظاهرة .. ولو فيها قطع راس .

قال حسن بحزم :

– كلنا بدنا نشارك .. بكره ما في شغل .. بيتوا الجمال في الياخور .. وعلقوا لهم عليقة يومين .. ما حد عارف إيش بصير .. العالم رح تتجنن .. الإنجليز عدلوا عن الكتاب الأبيض .. انحازوا لليهود عيني عينك .. مخلوش للصلح مطرح .

دخل الدوش الياخور .. ألقى التحية وأتحفهم بالأخبار :

– الباصات مش ملاحقة تنقل الناس وتكبهم في الموقف .. إشي من القدس .. وإشي من الخليل وإشي من حيفا .. غير البدو إللي إجو من السبع زرافات ووحدانا .. رجالا وعلى كل ضامر ..

قال حسن :

– شيخ المشايخ فريح أبو مدين[1] .. غادر إجتماع رؤساء العشائر الذي دعا إليه المندوب السامي غاضباً .. لحق به موسى العلمي محاولاً تهدئته وإعادتــه إلى الإجتماع .. رفض العودة وقال له :

– الإنجليز خدعونا وبدهم يواصلوا الخداع لما يسلموا البلاد كلها لليهود .. إيش بتترجى إنت وجماعة النشاشيبي منهم ومن مندوبهم السامي .. إنتو يا موسى[2] بتنفخوا على سراج الغوله [3] .

قطب الدوش حاجبيه :

– والعمل ؟؟

هتف الديناري :

– بدنا نشارك في المظاهرة وإللي يصير يصير ..

علق حسن وهو شارد الذهن :

– هيه موته ولا أكثر ..

❁❁❁

أمام الجامع الكبير في يافا وقع الصدام .. المتظاهرون كسروا أطواق الشرطة والجيش .. وانطلقوا إلى مبنى الحكومة .. حاول الجنود ردهم .. اندفعوا بالخناجر والعصي وقبضات الأيدي .. اجتاحوا صفوف الجند .. وانقضوا على الخيالة الإنجليز يطرحونهم أرضاً ويدوسون عليهم بالأقدام .. حراس المبنى أطلقوا النار من الأسطح على المتظاهرين .. ليجبروهم على التراجع ..

موسى كاظم الحسيني ظل يهز عصاه في وحه الشرطة رغم أعوامه الثلاثة والثمانين .. انهالوا عليه ضرباً بالهراوات .. مد الناس أذرعتهم لإحتضانه .. رصاص الإنجليز سبقهم .. سقط الشيخ مضرجاً بدمه ودماء الذين استشهدوا حوله دفاعاً عنه .

1. ظل فريح أبو مدين على تعاونه مع الإنجليز منذ التحاقه بثورة الشريف حتى سحبت بريطانيا الكتاب الأبيض فكان ذلك نقطة التحول له ولكثيرين من الذين تعاونوا معهم .

موسى العلمي مدير مكتب المندوب السامي وأعلى موظف عربي في حكومة الإنتداب .. كان يراهن هو وجماعة النشاشيبي على عدالة الإنجليز ..

3. سراج الغولة فراشة مضيئة يحسبها القرود شرارة فيضعون عليها الحطب وينفخون عليها لكي تشعل لهم النار .. كما في الحكاية الشعبية .

أصيب الديناري برصاصة في ذراعه وهو يحمي بجسده الشيخ الممدد على الأرض .. حملوه بعد انتهاء المظاهرة إلى اسبيطار الفرنساوي .. الدوش حين رأى دماء ابن عمته الديناري تشخب على صدور أولاد عزيزة وهم يحملونه إلى المستشفى فقد صوابه .. فتح موسه الكباس أبو السبع طقات وأمسك برقبة جندي بريطاني وانهال عليه طعناً .. لم يتركه إلا بعد أن أسقطته هرواتهم على الأرض فاقد الوعي .. حمله صديقه وجاره الغضب على كتفه وظل يعدو به إلى أن مدده إلى جوار ابن عمته الديناري في بهو المستشفى وهو بين الحياة والموت .. في الليل تسلل حسن إلى المستشفى للإطمئنان على الدوش .. فتح الدوش عينيه وسأل:

– الديناري بخير ؟؟

قال له حسن :

– الديناري روح على رجليه .. ساغ سليم .. المهم إنت تكون بخير ..

تنهد الدوش :

– ما تخافش عليه .. عمر الشقي بقي ..

ضحكا سعيدين .

سأل الدوش :

– على علمك يا أبو علي باقي الوهايبة اشتركوا في المظاهرة .

رد حسن بعصبية :

– أخوك رزق وأخويا حسني شاركوا .. إخوتك فايق وفايز وإبن عمك مدحت ما شفناش إلهم صورة وجه ..

قال الدوش بمرارة :

– هادولا إقرا عليهم ألهاكم التكاثر .

(35)

لم يكد مدحت وهبه يستقر إلى جوار صديقه إلياهو في بار شالوميت حتى انفجر فيه صديقه الذي بدا متأثراً إلى درجة الاحتقان :

– هذه آخر سهرة لنا معاً .. ما أظن أن واحداً منا سيرى الآخر بعد ذلك .

اتسعت عينا مدحت من الدهشة .

تابع إلياهو :

– الوكالة اليهودية أعلنت التعبئة العامة منذ دقائق .. غداً عليَّ الالتحاق بوحدتي في ترشيحا .. ستكون فرصة مواتيةً لضباط الوحدة كي ينكلوا بي .

– كيف ينكلون بك وأنت من كبار النقابيين في الهيستدروت ؟!

– الوكالة اليهودية لم تعد راضية عني .. في الفترة الأخيرة عارضت علانية الوسائل الدنيئة التي لجأت إليها الوكالة مؤخراً لإجبار اليهود على الهجرة إلى فلسطين .. كنت أحلم بأن تظل الهجرة طواعية .. أن تستقبل فلسطين المؤمنين المتحمسين لقيام دولة اليهود .. لا مشردين تعساء .. مجبرين رغماً عن إرادتهم على الهجرة إلى وطن لا يريدونه ..

تنهد إلياهو .. عب الكأس التي أمامه حتى أفرغها تماماً :

– مسكينة أنت أيتها الصهيونية .. كم من الجرائم ارتكبت وسترتكب باسمك .. بدلاً من أن نبني وطناً يكون منارة للحرية وكرامة الإنسان .. سوف نبني مسخاً مشوهاً .. غارقاً في الدماء .

بدأت الخمرة تلعب برأسه .. دق بقبضته على المائدة .. وصر على أسنانه .

– هل تذكر الباخرة باتريا .. فجرتها الوكالة اليهودية في حيفا .. ركابها من المهاجرين اليهود رفضوا النزول في فلسطين .. أصروا على الإبحار إلى موريتوس في طريقهم إلى أمريكا .. مئتين وأربعين مهاجراً يهودياً أغرقوا في بحر حيفا .. أعلنت الوكالة اليهودية أنهم انتحروا لأن السلطات البريطانية رفضت نزولهم .

ملأ إلياهو كأساً جديدة وأفرغها في جوفه :

– لم تكن هذه أول مرة تدبر فيها الوكالة جريمة من هذا النوع .. عملاء الوكالة اليهودية أغرقوا السفينة ستروما في البحر الأسود .. سبعمائة وتسعة وستين مهاجراً يهودياً لم ينج منهم أحد .. هذا مصير كل من يرفض النزوح إلى فلسطين .

اقترب إلياهو أكثر من مدحت وهمس في أذنه :

– التفجيرات التي طالت اليهود في بغداد .. وصنعاء .. وباقي عواصم العالم .. دبرتها الوكالة اليهودية في هذا السياق لإرغام اليهود على التوجه إلى فلسطين .. وتحقيق حلم الصهيونية بالوطن القومي ..

تابع إلياهو وعيناه مغرورقتان بالدموع :

– هل سمعت عن تصفية ربع مليون يهودي هنغاري لاقوا حتفهم في معسكرات الإبادة النازية .. جرى ذلك بتفاهم (بين الصهيوني كاستنر .. رئيس لجنة إنقاذ اليهود في هنغاريا .. وبين آيخمن) .. بأوامر من الوكالة اليهودية .

دخل عدد من الضباط البريطانيين واحتلوا أماكنهم على مسقى البار وبدأوا في احتساء شرابهم .. ظهر فايق يترنح في مشيته .. اعتذر مدحت لجليسه وعجل بدفع الحساب ..

عانقه إلياهو مودعاً .. انصرف ليلتقط ابن عمه ويخرجه من البار قبل أن يسئ فايق التصرف فيتعرضان لعلقة ساخنة على أيدي السكارى من عساكر الإنجليز : اقتاده إلى الخارج وقد صدق حدسه .. ما أن صارا في الشارع حتى لعلع صوت فايق وهو يطوح بذراعه في الهواء وقد نشر سبابته كأنه يهدد صهاينة العالم :

– مؤتمر أنشاص حسم الموقف .. ملوك العرب ورؤساؤهم قرروا اعتبار قضية فلسطين قضية العرب جميعاً .. إذا الإنجليز واليهود استضعفونا .. جاييهم اللي أقوى منهم .. ما بجيب الرطل إلا الرطل ونصف .. ومطرح ما تحصل توصل .

سأله مدحت :

– حسبت أنك الليلة عند أوليغا .. ما الذي حدث ؟

– طردتني أمها العجوز الحيزبون .. قالت لي : (أوليغا التحقت بجيش الهاغانا .. ما الذي يمنعك من الالتحاق بالهاغانا أو اشتيرن أو البالماخ كما فعل كل الشباب في تل أبيب .. ألا تعلم بأن الحرب ستقوم بيننا وبين هؤلاء العرب .. لقد خدعنا بطولك وعرضك .. لعلك يهودي جبان وعديم الاهتمام بما يجري لأبناء جلدتك .. لعل أرض الميعاد لا تعني لك شيئاً) .

بدأ فايق يستمطر اللعنات على الحرب وعلى أوليغا وأمها .. لم يكف عن سبابه المقذع إلا بعد أن أسلمه مدحت لزوجته تسليم اليد .. كان آخر ما رآه قبل أن يغط في نومه .. وجه زوجته المتربصة .. تحكم عليه الغطاء .. وتغلق عليهما الباب

قال مدحت في سره (إجاك الموت يا تارك الصلاة) .

التفت إلى زوجته التي رافقت خطواته منذ دخوله البيت :

– أما زالوا يحيطون بسرير الشملول .. اللي جاب الديب من ديلو ؟!.

هزت رأسها بالإيجاب .. سمعا صوت حميه ينادي من الغرفة المجاورة :

– ما بدك اتطل على ابن أخوك ..

أجاب مدحت وهو يبطن السخرية :

– ابن أخويه بطل .. رفع راسنا في معركة هاتكفا .. لازم كلنا نفتخر فيه .. وندعي بسلامتو .

تهالك في الكرسي الفارغ إلى جوار حميه .. تأمل الجالسين .. كان رزق يلبس بدلة كاكي ويتوشح بالسلحلك .. حزامه معبأ بالرصاص وعلى ركبتيه بندقية ألمانية .. إلى جواره جلس الدوش .. كوفيته على أكتافه .. بعض الرقع كانت واضحة في سرواله اليافاوي الأسود .. غير بعيد عنهما كان يجلس شيبوب أكبر أبناء عزيزة (الألقاب التي أطلقها الدوش على أبناء زوجته عزيزة غلبت على أسمائهم الحقيقية) ..

انتقل مدحت ببصره إلى الشملول .. كان ممدداً على السرير .. مصاباً في ذراعه ورأسه .. بدت الضمادات حول إصابته مبقعة باليود .. ذراعه اليمنى التي وضعها على صدره بدى أنها تتعافى بسرعة .. مد يده باتجاه عمه .. احتضن عمه الكف الممدودة بكلتا يديه .. ربت عليها مشجعاً :

– ها أنت تحرك ذراعك .. كيف حال الجرح في رأسك .

ردت نواره زوجة حسن :

– بخير .. بإمكانه العودة إلى سلمه غداً أو بعد غد .

قال الدوش :

– بل يعود معنا الآن .. أمه لا تستطيع الصبر على فراقه أكثر مما فعلت .

فكر مدحت في نفسه (الشملول الذي ترعرع على شواطئ يافا وتل أبيب يبيع الإسكيمو والمثلجات .. لم تكن أمه لتجده بعد عناء البحث الطويل إلا خارجاً من سينما أبوللو أو داخلاً إلى سينما عدن .. أو متسكعاً أمام سينما فاروق .. برفقة يهودية من سنه يشتري لها التذكرة .. أو يهودية من سن أمه تشتري له تذكرته .. ها هي الحرب تنضجه قبل الأوان .. تصنع منه مقاتلاً صلباً يخوض معركة هاتكفا إلى جوار القائد

البطل حسن سلامة) .. أما أنا فمازلت غارقاً في الغواية ولا أمل في نجاتي على الإطلاق .

دارت حماته بفناجين القهوة على ضيوفها .. ناولت مدحت فنجانه .. كانت القهوة آخر ما يرغب فيه حتى لا تطير بقايا الشراب من رأسه .. كما كانت هذه الرفقة آخر ما يتمناه في ليلته

اضطر لمجاملتها :

– القهوة معاكم ما بتتفوت .

تابع الدوش حديثه الذي قطعه دخول مدحت المفاجئ :

– معركة هتكفا أكبر من كل المعارك اللي خاضها الشباب .. صحيح معارك اللد والرملة .. وراس العين وبيت دجن ويازور كانت مهمة .. لكن معركة هتكفا كانت المعركة الفاصلة .. لو انتصر اليهود فيها كان راحت يافا وسلمه في ليلة واحدة الشباب في أبو كبير .. والمنشية .. والعجمي .. وتل الريش صمدوا وردوا اليهود على أعقابهم

تدخل الشيبوب أكبر أبناء عزيزة العائد لتوه من حيفا :

– في الشمال خضنا معارك باسلة وحافظنا على مواقعنا .. اليهود اتحاصروا في مستعمراتهم .. وخسائرهم لا تعد ولا تحصى .

علق حسن :

– ابن أبو جبارة اشترك في معركة القسطل .. يا جماعة إشي برفع الراس .. خمسة وعشرين مصفحة لليهود حرقها عبد القادر الحسيني في باب الواد .. (كانوا جايين يفكوا الطوق عن حارة اليهود في القدس .. السفير السويسري الآن بفاوض على استسلام حارة اليهود .. حقناً لدمائهم .. والإنجليز طلبوا من عبد القادر السماح بدخول المؤن والأدوية للحارة) .

زوجـــة مدحت التي لجأت لقـــراءة الصحف سداً للفراغ الذي يتركه غياب زوجها .. صارت أكثر وعياً من رجال العائلة .. تدخلت محذرة :

– ما تفرحوش كتير .. السلاح والذخيرة عندنا بنقصو كل يوم .. العرب بتهربوا من تلبية طلبات عبد القادر الحسيني .. عبد الرحمن عزام لم ينصفه .. رجع عبد القادر من دمشق محبطاً .. قال لهم قبل أن يغادر الاجتماع الأخير : (إذا سقطت شهيداً بسبب نفاذ الذخائر .. فإن دمي في رقابكم إلى يوم القيامة) ..

علق الدوش محتجاً :

– من وين بتجيبي هالحلكي .. أي جيش الإنقاذ بدرب المتطوعين في سوريا ولبنان .. وفوزي القاوقجي رح يحررها بجيشو في جمعة زمن .

لعبت الوساوس برأس حسن .. كان قد رفض في اليوم السابق عرضاً مجزياً من جيرانه اليهود لشراء عمارته .. صدهم بأنفة .. علماء فلسطين أفتوا بأن من يبيع ملكه لليهود كافر .. خارج عن الدين والملة .. لأول مرة يشعر بالقلق العميق .. ماذا لو تقاعس العرب عن إمداد المجاهدين بالسلاح .. ماذا لو فشل القاوقجي في تحرير فلسطين في جمعة زمن كما يدعي الدوش !! ..

سمعوا زخات من الرصاص .. نهض رزق حاملاً بندقيته وهرول إلى الشارع .. قال شيبوب :

– ليت معي المال لأشتري بندقية كما فعل عمي رزق .. في سلمة سلحت الهيئة العربية كل أربعة رجال ببندقية واحدة لقلة السلاح .. الليلة دور جارنا الغضب في حمل البندقية والمرابطه على حدود سلمه .. تحسس الدوش موسه الكباس أبو السبع طقات .. قال لشيبوب :

– يا للا نلحق رزق .

حين صارا في الشارع صاح الدوش بصوت عال :

– هبت ريحة الجنة .

سمعه رزق من مكمنه في منعطف الطريق .. هتف ساخراً :

– هبت ريحة الحندقوق [1] .

كان الدوش يعاني من رمد مزمن .. لكنه يكابر ويدعي أن نظره ستة على ستة .. هذه المرة لم يكابر الدوش .. وضع يده اليمنى على كتف شيبوب وانطلقا خلف رزق .. هتف الشملول بأبيات من أغنية عبد الوهاب والدموع تترقرق في عينيه :

– أنتيكهم يغصبون ايعيوبة

مجد ايأبوة والسؤددا

أجهزت لثغته في الراء واللام على الأغنية الذائعة الصيت .. قاطعه مدحت مقلداً لثغته :

– فشيوا .

1. مطلع أغنية شائعة في ذلك الوقت .

هبت ريحة الحندقوق .. جننتينا ياللي فوق

ثم أشار لزوجته :

– بدكيش تنامي .

تلكأت زوجة مدحت في النهوض .. أبت عليها عزة النفس أن تسامح زوجها بعد غيبته الطويلة .. قطبت حاجبيها .. أشاحت عنه بوجهها .. أدرك مدحت وهبه أن ليلته لن تمر على خير .. اتجه إلى غرفة نومه وهـو يغني :

صهيوني دبر حالك هجموا الثوار

قايدهم القاوقجي البطل المغـوار

(36)

كثر أذى مستعمرة نحال عوز على سكان غزة وباتت طريق غزة بئر السبع شبه مقطوعة .. قرر مدحت الوحيدي اقتحام المستوطنة وتخليص غزة وبئر السبع من شرورها ..

كانت نحال عوز أكثر مستوطنات العدو تحصيناً وكان اقتحامها بالمتطوعين المشاة ضرباً من الجنون .. أبو الوليد يوسف داوود صاحب أكبر محددة في غزة استمهل مدحت الوحيدي أياماً معدودة لكي لا يكون اقتحامه للمستوطنة انتحاراً متعمداً .. اختلى به في ركن منزو وقال له :

– يا أبو الحسن بدي أخترع لك مصفحة تجتاز بالثوار مواقع الرشاشات المحصنة وتصل بهم إلى مداخل المستوطنة .. فيطبقون على العدو وجهاً لوجه .. وهم متكافئين معه في السلاح .

أطرق الوحيدي وقد أخذته المفاجأة :

– مصفحة ؟؟!!..

هز أبو الوليد رأسه :

– رأيت حراثة عند فرح .. تسير على جنازير قوية من الفولاذ .. لا أعتقد أن رشاشات نحال عوز تستطيع النيل منها .. إذا صفحنا جوانبها بألواح الفولاذ .. استطعنا تفادي رشاشات المستوطنة .. وفي الليل لن تستطيع مدافع الهاون إصابة هدف يتحرك إصابة مباشرة ..

تهلل وجه مدحت لهذه الفكرة العبقرية .. احتضن أبو الوليد وانهال على وجهه بالقبلات:

– متى تبدأ ؟

– إذا أحضرت الحراثة إلى المحددة الليلة .. ستكون جاهزة بعد يومين ..

حمل مدحت المال الذي ظن أنه كاف لشراء الحراثة من فرح .. وانطلق لعقد الصفقة قبيل الفجر بدأ أبو الوليد في العمل .. مساء اليوم الثالث تهادت الحراثة الضخمة في طريقها إلى نحال عوز .. قبل طلوع الفجر سمع سكان المستوطنة صوت الحراثة وهي ترج الأرض تحتهم .. ظنوا أن التعزيزات التي وعدوا بها بدأت في الوصول .. عانقوا بعضهم بعضاً ..

اجتاحت الحراثة أسلاك السياج حول المستوطنة وراجع اليهود حساباتهم .. فالنجدات لا تقتحم الأسيجة .. ولا تدمر الأسلاك المقامة للحماية .

انهال رصاص الرشاشات على الهدف المتحرك في باحة المستوطنة .. وقبل أن يطلق العدو مدافع الهاون .. كان الثوار قد وصلوا إلى الخنادق المحيطة بالمبنى الرئيسي .. قفز الثوار ببنادقهم السريعة والتحموا بحراس المداخل .. أخلى جنود الرشاشات مواقعهم .. ولاذوا بالفرار .. استمر القتال من خندق إلى خندق حتى الضحى

حين أكمل الثوار عملهم واستولوا نهائياً على وكر القتلة وأمنوا طريق غزة بئر السبع وصلت أنباء انتصارهم إلى غزة .. خرج الناس لاستقبال البطل فاتح نحال عوز مدحت الوحيدي ورفيقه رجب عطا الله .. و أبو الوليد .. صانع أول مصفحة في فلسطين .

هدرت المصفحة عائدة بالمنتصر ورفاقه وغير بعيد عن سياج المستوطنة الذي حطمته الحراثة تماماً .. دوى تحتها انفجار مروع .

لغم أرضي كان اليهود قد دفنوه على تخوم مستوطنتهم .. شطر الحراثة إلى نصفين وقتل من كان فيها ..

سار الخبر بين الناس سريان النعي في يوم العرس .. دخلت المدينة كلها في ليل من الحزن والفجيعة .

تهادت نعوش الشهداء على الأكتاف .. بكت المدينة فتاها وبطلها ..

مولانا أرسل طلاب مدرسته يقودهم العريف وهو يحمل علم فلسطين للمشاركة في الجنازة .. أسوة بباقي المدارس في المدينة .. بكى مولانا طويلاً تلميذه وصديقه .. لم يخرجه من حزنه إلا دخول محمد أبو سعادة وهو يهتف بحماس :

– الجيوش العربية دخلت فلسطين .. الجيش الأردني وصل إلى صمخ .. وطلائع الجيش العراقي بدأت تأخذ مواقع لها حول بيسان .. أما الجيش المصري فحدث ولا حرج .. هادول مش متطوعين بقيادة أحمد عبد العزيز .. هادولا جيش حقيقي دبابات وطيارات ومدافع .. إيش ترتيب .. إيش نظام .. إيش إقدام ونخوة .. والله ما يقف جيش الملك فاروق إلا في قلب تل أبيب ..

في الصباح كان أولاد الكُتاب يتعلمون النشيد الجديد :

– سائل العلياء عنا والزمانا

هل خفرنا ذمـــة مذ عرفانا

المروءات التي عاشـــت بنا

لم تزل تجري سعيراً في دمانـــا

ضجت الصحراء تشكو عريهـــا
فكســـوناها زئيـــراً ودخانــــــاً
شـــرف للمـــوت أن نطعمـــــه
أنفســـاً جبـــارة تأبى الهوانــــــا
عرس الأحرار أن يســـقوا العدى
أكؤساً حمراً وأنغامـــاً حزانـــى

(37)

صرف الشيخ حسين تلاميذه بعجلة .. وضع رجله في الركاب وهرع للسلام على ابن عمه خليل وتهنئته بالسلامة .. الثوار اقتحموا معتقل صرفند وأطلقوا كل سجنائه .. بريطانيا العظمى بدأت في سحب قواتها من فلسطين إلى قاعدتها في قبرص

بعد أن اثخنوا بالجراح .. الإنجليز وقعوا بين نارين .. نار الثوار العرب ونار المستوطنين اليهود الذين تحولت قطعانهم إلى عصابات منظمة عالية التسليح .. عاثت فساداً في كل أرجاء فلسطين .

لم يكن بيت خليل في كروم مقاط بعيداً عن مدرسة سرور الأطفال .. دار خليل غصت على سعتها بالمهنئين .. الأهل والجيران والأصدقاء .. اليطق .. الثوار .. متطوعو جيش الجهاد المقدس الذين سلموا مواقعهم للجيوش العربية الزاحفة من كل حدب وصوب .. شق حسين طريقه بصعوبة حتى وصل إلى صدر المجلس .. عانق خليل وهنأه بالسلامة .. أجلسه خليل إلى جواره واستأذن الحاضرين في مد ساقه التي كسرها السجانون أثناء تعذيبه .. قال خليل :

– الإنجليز تعمدوا تحطيم أطراف المعتقلين .. اللي سلمت إيدوا ما سلمت رجلو .. واللي استشهدوا تحت التعذيب .. الله رحمهم .

رد جاره العبد هاشم غزال :

– رجال القسام لم يسكتوا حينها .. قتلوا آندروس حاكم الجليل البريطاني .. قتلوا حليم البسطة مساعد مدير الأمن العام البريطاني .. ونائبه الخائن أحمد نايف الذي دعس على رأس القسام بعد استشهاده .. أشعلوا فلسطين كلها تحت أقدام الإنجليز والصهاينة .

تبسم خليل وقال :

– رحمة الله على الشهداء .. الإنجليز شنقوا فرحان السعدي وهو في الثمانين .. سألوه في المحكمة .. هل أنت مذنب .. أجاب (معاذ الله أن أكون مذنباً) .. نفذوا فيه الحكم وهو صائم .. حسبي الله ونعم الوكيل .. ضرب خليل كفاً بكف ..

تدخل مولانا ليضع النقاط على الحروف :

– يكفي ثورة القسام شرفاً أنها أشعلت فلسطين كلها بالثوره ..عبأت الشعب ضد المؤامرة الصهيونية البريطانية الآثمة .. أيقظت العرب كلهم من غفلتهم قبل فوات الأوان .

شرد خليل بفكره إلى أيام الثورة وذكرياته مع القسام ورفاقه الأبطال .. لم يخرجه من هواجسه إلا دخول ولده محمد الذي أصبح شاباً في غيابه ..

كان محمد قد فتح مقهى على زاوية الكرم المواجهة للمحطة .. استقطب الكثير من عمال السكة الحديد وركاب القطار .. في ذلك اليوم أغلق المقهى وعاد إلى الدار وعلى كتفه جهاز الراديو .. الذي أصبح شرطاً ضرورياً لنجاح أي مقهى بالمدينة .

نصب الراديو على الطاولة المخصصة له وشبك الإيريال .. وجه مؤشره على المحطة .. انطلق صوت المذيع :

– القوات المصرية التي عبرت حدود فلسطين تدخل مدينة بيت لحم لتصبح على بعد عشرة كيلو مترات من تل أبيب .. القوات الأردنية تستلم مدن اللد والرملة والقدس من جيش الجهاد المقدس وتستحكم في مواقعهم التي تطوق حارة اليهود .. سكان المستوطنات يفرون إلى تل أبيب بعد اجتياحها من قبل الجيوش العربية .. أمريكا وبريطانيا تضغطان على العرب في مجلس الأمن لقبول الهدنة ..

شخر العبد هاشم :

– هدنة .. وجيوشنا على أبواب تل أبيب .. المسألة بتنحسم في يوم واحد .. عليَّ الطلاق هادي مؤامرة ..

قال ابن عمه رضوان :

– إذا العرب قبلو الهدنة بكونو خونة وبفتحو الباب لليهود يتسلحو من جديد ويقضو علينا .

قال الدوش :

– الموانى لسه في إيد الإنجليز واليهود .. وفي شهر واحد الموازين بتنقلب وبكنسونا من فلسطين كلها .. يا ريتنا ما سلمنا رقبتنا للعرب .. اللي بفرط بصبح يضرط .

وضع عبد الرؤوف خيال طربوشه على رأسه وغادر المجلس محتجاً على الإسفاف الذي وصل إليه الحوار والعبارات البذيئة التي خدشت أذنه .. ولم ينس أن يبكتهم بواحد من أقواله المأثورة :

– خللوا السياسة لأهلها .. واحكوا في الإشي اللي بتفهموا فيه .. ثم همس لنفسه معزياً (عوام بجم) .

أفسحوا له الطريق ليخرج من غير أن تتسخ ثيابه إذا احتكت بهم ..

بدأوا يتكاونون على وليمة الضيف .. أخيراً فاز بها جاره يوسف الزهارنة الذي أقسم أن يذبح عجلاً لأهل الحارة احتفالاً بعودة خليل سالماً .

عاد حسين إلى بيته مهموماً .. ماذا لو قبل العرب الهدنة ووقعوا في الفخ الذي نصب لهم .. هل يعقل أن يكون ملوك العرب ورؤساؤهم بهذا الحمق .. لقد سلمناهم فلسطين كاملة غير منقوصة .. وأصبحت أمانة في أعناقهم .. هل تكون نبوءة الحاج أمين صحيحة .. .. شكوكه في قيادة الملك عبد الله للجيوش العربية .. توجسه من

تأثيرات جلوب باشا عليه .. اليهود ينشرون الشائعات حول قبول الدول العربية لمشروع التقسيم واستعدادهم لتنفيذه وضم الأراضي المخصصة لعرب فلسطين إلى دولهم المتاخمة .

يأخذ الأردن الشمال .. وتأخذ مصر الجنوب وتبقى دولة اليهود في الوسط حاجزاً أزلياً بين مشرق العرب ومغربهم .

حين وصل البيت رأى تلاميذ محو الأمية يجلسون في انتظاره .. فتح باب المدرسة .. أشعل اللوكس وعلقها في العريشة .. بدأ يذاكر لهم دروسهم دون أن يعلق بشئ على ما يدور بينهم من أخبار الساحة .

(38)

تعود نزلاء بانسيون روزة على وجود مدحت بينهم .. اعتقد البعض أنه زوج روزة أو عشيقها أو أحد أقاربها .. أشاعت هي بدورها أنه إبن خالتها التي سكنت تركيا وتزوجت أحد يهود الدونمة .. لم يتحرج أحد من الحديث أمامه حتى في ما يعتبرونه من أسرارهم .

كان مدحت وهبه على وشك تحقيق واحد من انتصاراته النسائية .. راشيل الساقية الحديثة لانت بين يديه ولم يتبقى عليه سوى الإنقضاض على الفريسة .. أدرك فجأة أن الذي يجلس في صالة البانسيون المجاورة لغرفته هو الجنرال الصهيوني

وينجت مؤسس الجيش اليهودي في فلسطين .. والمعتمد من حكومة الإنتداب وزعماء الحركة الصهيونية .

جاءه صوت وينجت عالياً بعد أن فكت الخمر عقدة لسانه :

– لقد خضت الحرب العالمية الأولى .. والحرب العاملية الثانية .. وحرب البوير .. لكنني لم أر في حياتي شبيهاً بما يحدث في فلسطين .. يتخذ العرب القرار الصائب ويبدأون في تنفيذه وبدون أي سبب ينكصون عن قرارهم ويبددون كل ما كسبوه في ساحة القتال .. أما نحن فنتخذ القرار الخاطئ لكننا ندرك خطأنا قبل فوات الأوان .. نتدارك أمرنا .. ننتصر نحن وينهزمون هم .. كأن المسألة أقدار مقدرة أو سحر ساحر .. هل بلغ بهم سوء الحظ ما بلغ ؟؟!!.. وهل سيخدمنا الحظ حتى النهاية ؟؟!!..

حدقوا فيه مستغربين حديثه .. فتابع :

– سأضرب لكم مثلاً بسيطاً يقرب المسألة إلى أذهانكم :

– القاوقجي فشل على الرغم من تفوقه علينا عددياً وعلى رغم أنه بدأ هجومه أثناء هطول الأمطار .. انهزم لأنه لم يواصل هجومه بزخم وقوة .. سيطرته على جنوده كانت ضعيفه .. الجنود ينقصهم الإنضباط والتدريب العسكري الصحيح .. حين صمدنا أمامهم توقفوا عن القتال فجأة وبدأوا يتقهقرون إلى الخلف .. كبدناهم الكثير من الإصابات قتلى وجرحى وغنمنا كميات من الأسلحة .. هذا في (طيرة ازفيه جنوب بيسان) .. أما في نابلس فإن هجومه على (مشمار هاعايمك) الغير مسلحة بالأسلحة الثقيلة والمحاصرة من التلال المحيطة بها بحوالي ألف مقاتل عربي تحت إمرته .. لم يستمر .. حين صمدت المستعمرة .. لم يحاول القاوقجي اقتحام الموقع .. بل إنه انسحب فجأة .. مفسحاً الطريق لوصول قوات الهاجاناة إلى المستعمرة .. تلك القوات التي لاحقت فلوله المنسحبة واحتلت جميع القرى العربية التي في طريقها .. تزعزعت سمعة القاوقجي وانهارت معنويات سكان القرى العربية .. فروا بأعداد كبيرة .. فاتحين الباب أمامنا لإحتلال مدينتي صفد وطبريا .

تناول وينجت كأسه وعب منه جرعة كبيرة ثم نحاه جانباً :

– صفد قاومت بشدة إلا أن المقاومة انهارت وسقطت المدينة .. وهكذا أصبحت حيفا بكاملها تترنح تحت ضرباتنا وبدأ سكانها العرب في المغادرة .

نزل على مدحت وهبه سهم الله .. كف عن الشراب وكف عن ملاحقة راشـيل بعباراته المنمقة .. أحس أنه يسقط من حالق .. جميع ما ألفه في حياته وتعـود عليـه يوشك أن ينهار .. سقطت حيفا والسراسينا على يافا .

قام من مجلسه .. غادر البنسيون ذاهلاً .. لم يستأذن .. لم يسلم علـى أحـد .. مضى منكس الرأس .. مهيض الجناح .. كسير القلب ..

أحس بالرغبة في احتضان ولديه بعد أن شغلته عنهما مطـاردة راشـيل فـي مواخير تل أبيب ..

كانت تل أبيب غارقة في غبش الفجر .. تجنب المرور من الشوارع الرئيسـية المحصنة حول المدينة .. حيث عساكر الهاجانا الأفظاظ الغرباء عن المدينة .. تسـلل عبر الشوارع الخلفية حيث ألفه الحراس خلال تسكعه بين البارات والمواخير .. وصل المسافة الفاصلة بين تل أبيب ويافا .. تلفت حوله واحتمى بظلال الجدران الكثيفة بعيـداً عن فوانيس الشارع ..

خلع طربوشه ووضعه تحت إبطه وانطلق يعدو حتى انقطع نفسه .. خيل إليه أن بعضهم يطلق الرصاص في أثره .. لم يتوقف عن الركض حتى وجـد نفسـه محاطـاً بمتطوعي بلدية يافا .. وقد أشهروا بنادقهم في صدره وهم يتصايحون :

– جاسوس .. جاسوس .. جاسوس .

مسح عرقه بمنديله وأحكم وضع طربوشه على رأسه .. قال لهم :

– أنا مدحت وهبه .. تاجر الحمضيات .. كنت أتفقد بناية عمي حسن .

أشار إلى المنطقة الفاصلة وأخذ يضرب كفاً بكف .. وهو يتصنع الحزن الشديد :

– اليهود خردقوها .. ضربوها بالرشاشات طول الليل .. حسبي الله ونعم الوكيل ..

قال آمر الفصيل :

– خلوا سبيله .

حين وصل بيت حسن رأى شاحنة صغيرة على الباب .. عمه حسن منهمك في نقل ما خف من الفراش والأغطية .. خرج فايق من البيت .. وضع بقجة ثيـاب فـي السيارة .. تنبه لوصول مدحت .. عانقه بحرارة .

– إجيت في وقتك .. مرتك ناصبة مناحة ما بترحل على غزة إلا رجلها على رجلك .. لم أغراضك وحطها بالشحن .. ما تكتر .. هات إشي يكفيك اسبوع أسبوعين بالكثير .. لغاية ما الجيوش العربية توصل يافا .. وكل حي يرجع لدارو .

دخل إلى البيت ذاهلاً .. عانق طفليه واحتضن زوجته .. أخرج منديلاً من جيبه ومسح دموعها .. ثم همس :

– تجهزي للرحيل إلى غزة .. أرجو أن لا يطول بنا المقام هناك ..

لم تعاتبه بكلمة واحدة .. تشاغلت بجمع أغراضها ..

اشتد أزيز الرصاص في الخارج .. وتتابعت أصوات الإنفجـــارات .. ارتـــدت زوجته (الكاب) على عجل .. وضعت الغطوة على رأسها .. تبعها يحمل طفليــــه .. مهد لهم حسن ركناً في الشاحنة .. وخاطب مدحت لأول مرة منذ انضم إليهم :

– أنت تركب معي بجوار السائق ..

شخر فايق محتجاً :

– حتى هادي فيها خيار وفقوس .

لم يكترث أحد بما قاله .. صعد الجميع إلى الشاحنة .. أدار السائق المـــانويلا وعاد ليأخذ مقعده خلف المقود .. انطلق بهم في الشوارع الـــتي غصـــت بالحـــافلات وقطعان الناس الذين يتدفقـــون في اتجاه المينـــاء .. استغرق حسن فـــي قـــراءة آيـــة الكرسي .. استرخى مدحت في مقعده وعيناه تتفحصان واجهات المحال المغلقة .

أهذه يافا التي أحبها وعاش فيها أجمل أيام عمره ؟

دهمه خاطر اقشعر له بدنه .. أتراه الوداع الأخير .. هنا اشتد عـــوده .. وبلـــغ مبلـــغ الرجال .. شق طريقه صعداً حتى أصبح من علية القوم .. صار أنس المجالس وريحانة السهر .. لا يغلق في وجهه باب .. لا ينقطع بحضوره حديث .. لا يخفى عليه ســـر .. يافا التي رعت صبواته ونزواته .. لم تمنعه ولم تردعه .. لم تضيق عليه المذاهب كما فعلت غزة ..

تلفت إلى جماعته .. كانوا قد غطوا في نوم عميق .. خمن أنهم لم يذوقوا النوم ليومين أو ثلاثة .. أخرج محفظته من جيبه .. تناول منها عشر جنيهات .. ناولها للسائق :

– هذه أجرتك إلى غزة ..

كانت الشاحنة قد وصلت سبيل أبو نبوت .. دس محفظته في جيب عمه حســـن الـــذي أغرق في النوم وهمس في أذن السائق :

– تمهل .. سأنزل هنا .

انسل من السيارة وأغلق الباب بهدوء ولوح للسائق :

– رافقتكم السلامة .

واصل السائق طريقه .. شيعهم مدحت بعيون دامعة .. خلع طربوشه ووضعه تحت إبطه .. انطلق يركض بكل قوته كأنه يفر من خواطره المجنونة .. لم يتوقف عن الركض إلا أمام مبنى البلدية .. حاول الحراس اعتراض طريقه .. لكنه نحاهم جانباً واقتحم المكان .. تبعه الحراس ببنادقهم المشرعة وكادوا يردونه قتيلاً لولا أن أدركه صديقه القديم يوسف هيكل الذي صار رئيساً للبلدية .

– سود الله وجهكم .

ثم التفت إليه معتذراً .

– إللي ما بعرفك بجهلك يا مدحت بيك .. غلطنا ومنك السماح ..

أعطاه كرسياً إلى جانبه وطلب له كوباً من الشاي .. قال بلهجة حزينة :

– أما زلت في يافا .. لله درك .. التجار كلهم غادروا بحجة توصيل عوائلهم إلى عمان ودمشق وبيروت .. ولم يرجع منهم أحد ..

تمالك مدحت روعه .. وسأل صديقه القديم :

– يوسف بيك .. طمني عن الحالة ؟

تلفت رئيس البلدية حوله وهمس في أذن مدحت :

– الحالة لا تطمئن على الإطلاق .. يبدو أن الجيوش العربية قررت سلفاً الوقوف عند حدود التقسيم .. يافا واللد والرملة خارج تلك الحدود .. لذلك فسوف تترك هذه المدن لملاقاة مصيرها المحتوم .. ما حدث في دير ياسين سوف يتكرر مراراً .. دب الذعر في كل مكان .. الناس يطلبون النجاة لأنفسهم ولا عاصم اليوم من أمر الله .

صاح مدحت وهبه :

– إذا فقد تم بيعنا في سوق نخاسة ولا نجاة لنا !!؟ .

– أقرب الجيوش إلينا جيش الملك عبدالله .. وصلنا منهم خمسمائة بندقية .. وأربعة رشاشات فكرز .. وضابط وعشرة مدربين لتدريبنا على القتال .. كل ما لدينا الآن سبعمائة متطوع عراقي من بقايا جيش الإنقاذ .. وبضع مئات من أبناء المدينة يعملون تحت قيادتي .. أما حشود العدو التي أمامنا فحدث ولا حرج ..

يوم 25 / نيسان أي منذ يومين صمدنا للهجوم الذي شنته علينا قوات الأراجون .. قاتلنا من شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل .. أوقفنا زحف القوات المهاجمة ورددناهم على أعقابهم .. لكننا خسرنا ثلث قواتنا .. المستشفيات تعج بالجرحى ومازالت بعض

الجثث في الشوارع .. لا نستطيع إخلاءها خوفاً من رصاص القناصة .. العراقيون استبسلوا في الدفاع عن المدينة .. جزاهم الله عنا كل خير .

اليهود مازالوا يحشدون قوات جديدة .. الأوضاع ساءت داخل يافا نتيجة نقص المؤن والإمدادات الطبية .. نحن محاصرون تماماً حتى من البحر .. وما لدينا من الذخائر لن يكفي يوماً أو يومين .. اليهود يسمحون للناس بالخروج ولا يسمحون لأحد بالدخول .. في الميناء غرق الكثيرون نتيجة تدافعهم على الزوارق التي تحمل اللاجئين إلى شواطئ لبنان .

تلفت رئيس البلدية حوله وباح لصديقه القديم بالسر الأعظم :

– أنا أفكر جدياً في إعلان يافا مدينة مفتوحة حقناً لدماء من بقي من سكانها ..

ضاق صدر مدحت .. لم يشأ سماع المزيد .. قام دون أن يستأذن صديقه وفمه يرغي بالشتائم المقذعة (هيك وهيك للعرب واليهود والإنجليز) .

في الطريق هبت نسمات دافئة محملة بشذى البيارات المجاورة .. تخيل اشجار البرتقال وقد ازدانت بزهورها البيضاء كالعرائس .. تنهد بحرقة : (ترى لمن تكون ثمار هذا الموسم ؟؟!) .. سمع إطلاق نار متقطع .. خارت قواه .. جف ريقه .. جاهده العرق كأنه مصاب بالحمى .. فجأة ارتطم بالشملول ابن أخيه .. كان الشملول يحمل على ظهره مدفع الفكرز الذي تسلمه تواً من مبنى البلدية .. وعلى كتفه صندوق الذخيرة متجهاً صوب خط التماس وهو ينوء بما يحمل .. أنزل الشملول صندوق الذخيره ووضع فوقه المدفع .. عانق عمه بحرارة .. وكعادته اقتبس من عبدالوهاب مطربه المفضل :

– عمي مدحت ها هنا .. يا ميحباً يا ميحباً (يا مرحباً يا مرحباً) .

غمز بعينه كأنه يعجم قناة عمه .. متابعاً الإقتباس من الأوبريت :

– قيس

ماذا وقوفك وايفتيان (والفتيان) قد سايوا (ساروا) ؟؟!!

ما كنت فيهم !

أين كنت إذن ؟؟؟

توقف عن الغناء .. وفاجأ عمه بخفة :

– يماذا (لماذا) يا تيعب (لا تلعب) أنت عباس فايس (فارس) وأيعب أنا عبد ايوهاب (وألعب أنا عبد الوهاب) ؟

لم يستجب عمه للدعابة .. هز رأسه بأسى :

- بالك رايق يا ابن أخويا .. بالك رايق .. عملت إللي عليك وريحت ضميرك .

نظر بإشفاق إلى المتاع الملقى على الأرض :

- هل أساعدك ؟

لم ينتظر جواباً .. ساعد إبن أخيه في حمل المدفع ثانية .. حمل هو صندوق الذخيرة .

- سأوصلك إلى المنشية .. طريقنا واحد .

سارا معاً .. جنباً إلى جنب .

قال الشملول معاتباً :

- عمي رزق اختفى على تخوم سلمه ويقال أنه وقع أسيراً .. طلبنا منك أن تتقصى أخباره فلم تفعل .. عمي الدوش أصيب في المعركة إصابة بالغة .. لم تزره في المستشفى .. أكيد كنت مشغول مع الكونت بينادوت (برنادوت) .

تمتم مدحت وهبه وهو شارد الذهن :

- شايف إللى أكلنا حلا .. بدو يطلع علينا بلا .

واصلا طريقهما بين الدكاكين المغلقة .. مرا بسوق البلابسة .. كان فارغاً وخاوياً على عروشه ..

تابعا السير في الشوارع الخلفية .. فلول الشيوخ والصبية والنساء كانو يجرون خطاهم باتجاه الميناء .. على الأكتاف أطفال يواصلون النحيب .. قال مدحت في سره :

- لعلهم لم يجدوا طعاماً منذ يومين .

بدى الجميع مذعورين وفي عجلة من أمرهم .. تعب مدحت .. أكتافه الطرية لم تحتمل ثقل صندوق الذخيرة .. حاول أن يستنجد بحنطور أو سيارة لتوصلهم .. لم يأبه لهما سائقو الحناطير القليلة التي مازالت تجوب شوارع المدينة الفارغة .. تجاهلهما سائقو التاكسي .. ازدادت وتيرة إطلاق الرصاص ..

قطعا مسافة طويلة حتى دخلا المنشية .. كان بعض الشباب والفتيان يحملون أسلحتهم وذخائرهم .. يركضون في الشوارع .. كأن القيامة أوشكت أن تقوم .

وصلا خط التماس .. رحب بهما جنود الخندق .. ساعدو الشملول بنصب مدفع الفكرز وشحنه بالذخيرة .. اشتد الرمي على مواقعهم .. احتمى الرجال بخندقهم مفسحين لمدحت مكاناً بينهم ..

أخيراً ظهرت طلائع العدو .. أدار الشملول فوهة المدفع باتجاههم :

– ما جابكم من الغيب (الغرب) إلا نصيبيكم ..

هــدر المدفع .. حصد الصف الأول من المهاجمين وســـط تكــبير الشــباب وتهليلهم .. هتف مدحت منتشياً ..

– سلمت يمينك يا ابن أخويه ..

لم يكد يكمل العبارة حتى سقطت قذيفة هاون في وسط الخندق .. توقفت أصابع الشملول الضاغطة على زناد المدفع .. أزاحه الشباب .. سقط علـــى ظهـــره صـــريع الإغماء .. تولى أحدهم تشغيل المدفع ثانية .. رأى مدحت الدم يتدفق من صدر الشملول غزيراً قانياً .. حمله بين ذراعيه وسار به عبر الخنادق حتى وصل المنعطف المـــؤدي إلى مدخـــل المدينة .. احتمى خلف أحد الجدران ومدد ابن أخيه .. أسند رأســـه علـــى ركبته .. فتح الشملول عينيه .. رأى دموع عمه .. أكتشف لأول مرة في حياته أن لعمه قلباً وأنه يتألم كما يتألم سائر الناس .. كان يعرف حق المعرفة أن القرابة لا تعني لعمه شيئاً وأن القاسم المشترك الذي يربط بينهما الآن هو المدينة التي توشك على السقوط .. كلاهما أحب يافا .. وكلاهما يود لو يفتديها بنفسه .. لكنه سبق عمه وهو يتقلد الآن دور البطولة .. عمه لم يعد سوى سنيد للبطل (كومبارس) .. ثقل تنفسه .. أحس بنهـــايته تقترب .. أراد أن يعبر عن مشاعره .. مطربه المفضل كان حاضراً وعلى طرف لسانه الألثغ .. غرد الشملول :

– جبل التوباد حياك الحيا

وسقى الله صبانا ورعى

فيك ناجينا الهوى في مهده

ورضعناه فكنت المرضعا

كم بنينا من حصاها أربعاً

وانثنينا فمحونا الأربعا

وخططنا في نقى الرمل فلم

تحفظ الريح ولا الرمل وعى

خفت صوته شيئاً فشيئاً حتى تلاشى ..

سقط رأسه على ركبة عمه .. ضمه مدحت وصرخ :

– شملووول .

(39)

توقفت شاحنة على باب مدرسة سرور الأطفال .. نزل منها فايق بثياب النوم .. حافياً .. حاسر الرأس .. النزوح المفاجئ من يافا أذهله عن ارتداء ثيابه .

تبعه حسن وابنتاه .. قال فايق لعمه حسن :

– البلد اللي ما بتحب تمر عنها .. بُحْــكُمْ عليك الزمان تبات فيها بيات .

رد حسن بتجهم :

- والله ما خايف إلا نتخلد فيها .. وينادي المنادي .. يا أهل الجنة خلوداً بلا مـــوت .. ويا أهل النار خلوداً بلا موت .

أجهشت كبرى بنات حسن بالبكاء وهي تقود ولديها الصغيرين إلى داخل البيت:

- يا ترى أبوكم عايش ولا ميت .

قال فايق بخفة :

- يا ستي اطمني .. أبوهم عايش عيشة رقاطي [1] .. ثم أكمل في سره (أكيـــد روزا حطتو في عينيها واتكحلت عليه) .

ناوله حسن طربوشه :

- خود أستر راسك ..

شخر فايق وهو ينحي الطربوش جانباً :

- يا عريانة الطيز .. إيش تريدي .

انشغلا بإنزال متاعهما القليل الذي حملاه من يافا .. حسن تبع ابنـــتيه وأحفـــاده إلى الداخل .. عانقه حسين وهنأه بالسلامة .. أخرج حسن مـــن عبـــه آخـــر صـــحيفة صدرت في يافا .. ناولها لحسين :

- جريدتك المفضلة ..

فردها حسين .. قرأ في المانشيت بخط صغير :

(رئيس بلدية يافا يبرق للملوك والرؤساء العـــرب) .. وتحته بخـــط أســـود كبيـــر .. (وارونا التراب .. ثم واروا رؤوسكم التراب) .

1. عيشة رقاطي : عيشة مترفة .

سقطت الصحيفة من يد مولانا واغرورقت عيناه بالدموع ..

تناول حسن رزمة مفاتيح من جيبه ووضعها على الطاولة :

- أحكمنا إغلاق أبواب المنزل وأحضرنا المفاتيح معنا .

فكر حسين واجماً :

- هكذا فعل أهل الأندلس حين عبروا البحر إلى المغرب .. وهكذا فعل كـــل اللاجئيـــن الذين افترشوا الأرض والتحفوا السماء في كروم الجرو والبساتين المجاورة .. أوقـــدوا نيرانهم حيث ما اتفق ليخبزوا أو يطبخوا أو يغسلوا ثيابهم في انتظار الفرج .

في اليوم التالي تناولوا إفطارهم دون أن يتفوهوا بكلمة .. انشغلت خديجة بجمع صحاف الطعام وحملتها إلى المطبخ لغسلها .. دارت عليهم كبرى بنات حسن بفناجين القهوة .. نهضت الصغرى وتبعت خديجة إلى المطبخ لتساعدها في غسل الأطباق .

قال حسن يقطع الصمت الثقيل :

– لم تستمر الهدنة طويلاً .. خرقها اليهود على كل الجبهات .. بعد أن استنفذت أغراضها ..

تدخلت كبرى بنات حسن لتكمل لعمها حقيقة ما حدث :

– إمدادات السلاح والذخائر والمؤن وصلت للصهاينة بأكثر مما يحتاجون .. المتطوعون اليهود انهالوا على فلسطين من كل المنافذ التي فتحها الإنجليز أمامهم .. معظمهم خاضوا معارك الحرب العالمية الثانية ولديهم أضعاف ما لدى العرب من الخبرة والحنكة .. الطائرات التي سلمها الإنجليز لليهود والمطارات التي أعيد تأهيلها أصبحت جاهزة للعمل ضد الجيوش العربية .. توالت الهزائم .. تقهقرت الجيوش العربية بنظام مرة وبغير نظام عدة مرات ..

ضرب حسن كفاً بكف :

– الجيش المصري أقوى الجيوش العربية لم يستطع فك الحصار عن وحداته في الفالوجة ودخل في مفاوضات مع اليهود ..

استشعر أهل فلسطين الهزيمة التي تلوح بوادرها لكل ذي عينين .. تدفقت سيول اللاجئين الذين سقطت مدنهم وقراهم بيد الصهاينة .. لم يكن أمامهم خيار آخر .. فالبقاء في تلك المدن والقرى يعني الموت على يد المحتلين .

آلاف مؤلفة اكتظت بهم حقول غزة وأحراشها وشواطئها واكتظت بهم دول الجوار .

❁❁❁

محطة غزة أصبحت هدفاً حربياً لطائرات العدو .. توالى قصف الطائرات اليهودية لمحطة القطارات في غزة .. اتسع القصف ليشمل البيوت ومعسكرات الجيش المحيطة بالمحطة .. قنبلة ضخمة سقطت على منزل خليل في كروم مقاط دمرته تماماً .. لم توفر القنابل الأخرى بيوتاً كثيرة في الجوار ..

سكان المحطة هجروا بيوتهم وهاموا على وجههم .. رتب أبو سعادة هجرة أهل المحطة ومنهم مولانا إلى بني سهيلا جنوباً ..

رفض حسن مواصلة الهجرة .. قال لإبنتيه ولصهره :

– لن أخطو خطوة أخرى .. سأبقى هنا حتى ينفذ في أمر الله .

انحازت إليه ابنتاه واضطر فائق للبقاء .

أراد فايق التسرية عنهم :

– أتعرفون من قابلت اليوم على رصيف الجامع ..

نظروا إليه مترقبين :

– محمد بركه .. ابن الأكابر .. أبو الحصان والطاووس .. أخرجه اليهود من قصره في تلة بيدس بالقميص والشروال .. يجلس على حصير بال .. جاد له جيرانه بما يسد رمقه من الطعام .. أشعلت سيجارة وناولتها له .. أخذها زائغ البصر وهو يردد في ذهول :

– أنا صرت صبي حمام .. إيد ورا وإيد قدام .

تنهد حسن بأسى بالغ :

– الحال من بعضو .. لا تشكيلي أبكيلك .. الله يمحى مقدورنا باللطف .

استقر مولانا بزوجته وأطفاله الثلاثة في قوز الشهلات ببني سهيلا .. فكر أن يفتح بيته لأبناء الجوار كمدرسة مؤقتة ويشغل وقته بتعليمهم .. لكن الطائرات الإسرائيلية عاجلته بقصف تجمعات الجيش المصري في بني سهيلا .

رتب أبو سعادة الهجرة الثانية لأهل الحارة إلى خانيونس .. قصفت خانيونس .. فرتب الرحلة الثالثة إلى شاطئ رفح ..

نصبوا خيامهم في تل زعرب .. انشغل الرجال بصيد السمك .. وانشغلت النساء بإعداد رقاق الخبز والغسل والعناية بالصغار .

تكفلت المواصي المحيطة بتموينهم بحاجتهم من الخضار والفاكهة .. مولانا استغرق في غزل طواقيه بعد أن حرمته الهجرة من كتبه وتلاميذه .. قال له محمد أبوسعادة مازحاً وهو يقيس واحدة من طواقيه :

– هادي على مقاس راسي .. لكنني لن أشتريها .. إذا كنت حريصاً على حياتنا إغزل لنا طواقي إخفاء .. تصور كم من الأرواح ستنقذها طواقيك في هذه الحرب وفي باقي الحروب ..

– الرجال الحقيقيون يفضلون مواجهة أقدارهم بشجاعة .. وعدم الاختباء خلف ساتر ولو كان طاقية إخفاء .

– حتى لو كان في ذلك موتهم ؟؟!!

– حتى لو كان في ذلك موتهم .

– صلي عالنبي يا سيدي .. في حدا بعمل هيك ؟

– سقراط عملها

– هادا من أي عيله ؟

– من عيلة كوبرنيكس وجاليليو .

– أنا لا أعرف أياً من هؤلاء .

أراد الشيخ أن يقرب المسألة إلى فهمه :

– عندنا فعلها أبو ذر الغفاري .. والحسين ابن علي .. ثم كرت السبحة .. عبدالله ابن المقفع .. والحلاج .. وأحمد ابن حنبل .. وكثيرون .

هز محمد أبو سعادة رأسه في حيرة :

– يعني هادولا إللي بعرفهم عز المعرفة ؟

قال الشيخ :

– في زماننا هذا .. رجال فعلوا ذلك تعرفهم أنت ويعرفهم الجميع وستظل أسماؤهم في ذاكرة شعبنا إلى الأبد .

أنصت أبوسعادة بشغف .. توقف مولانا عن غزل طواقيه وحدق في عيني محدثه :

– رجال مثل عزالدين القسام .. وعبد القادر الحسيني .. وحسن سلامه .. وعبدالرحيم محمود .. ومدحت الوحيدي .. وأحمد عبد العزيز .. قائمة طويلة لا تنتهي من الشهداء الأبرار .

– يا مولانا الروح عزيزة والعمر مش بعزقة .. أنا مني وعليَّ .. بديش أواجه حدا ولا حدا يواجهني .. ألف قولة جبان ولا قولة الله يرحمو .

خلع أبو سعادة الطاقية ووضعها على كومة الطواقي بجانب الشيخ وانصرف إلى حال سبيله .

فكر الشيخ .. أين يكمن الخلل ؟؟ .. لماذا وصلنا إلى هذا الدرك من الهوان والهزيمة ؟؟ .. لابد من وقفة مع النفس نقيم فيها ما حدث .. ونضع يدنا على مكمن الداء .. إن لم نفعل ذلك فإن كل تضحياتنا ومعاناتنا ستذهب سدى .

صارت رفح هدفاً لقصف الطائرات اليهودية .. قال أبو سعادة للرجال الذين تحلقوا أمام خيمة مولانا :

– وين بدنا نروح .. اليهود قدامنا وظهرنا لسلك المصريين والبحر سد لا ينفد

(تذكر مولانا حين مر العام الأول عليه في المستشفى والطبيب الفرنسي يعالجه بالأدوية والإبر والتدليك المتواصل لجسده .. دخل عليه الطبيب ذات يوم وقال له :

– لقد قمنا بما وجب علينا القيام به .. عالجناك عاماً كاملاً بكل ما في خزانتنا من أدوية ومراهم .. والآن جاء دورك لتقوم أنت بما يجب أن تقوم به .. شد الطبيب حبلاً متيناً في منتصف الغرفة من الجدار إلى الجدار على ارتفاع قامة الرجل ومد يده .. قال للصبي المشلول :

– سوف يوقفك رجالي وعليك أن تمسك الحبل بيدك السليمة .. وتحاول أن تخطو إلى الأمام ..

حمله الممرضون واسندوه إلى الحائط .. مد يده وتشبث بالحبل وبكل ما أوتي من قوة نقل قدمه اليمنى نصف خطوة .. حاول أن يتبعها باليسرى .. اختل توازنه وسقط على الأرض .. صبر عليه الطبيب حتى التقط أنفاسه ثم أمرهم بإعادة الكرة .. سقط ثانية .. وثالثة .. ورابعة دون أن يتسرب اليأس إلى قلب طبيبه .

أخيراً قال الطبيب بحزم وهو ينظر في ساعته :

– علي أن أذهب الآن .. سوف يواصلون تمرينك على المشي حتى تنجح .

طفرت الدموع من عينيه وهو ملقى على الأرض .. مد يده باتجاه الطبيب وهتف :

– مستحيل .. لا أريد محاولة ذلك مرة ثانية .. سأرضى بما قسم لي ..

رجع الطبيب إلى منتصف الغرفة وهزه من كتفه :

– الفرق بين المستحيل والممكن هو أن الممكن يحتاج إلى وقت أطول .. وعزم أصدق)

خضير جار أبو سعادة ونسيبه رجع من عيادة الطبيب في خانيونس بعد أن طاف بعيادات كثيرة دون أن يصله الدور .. طوابير المرضى في كل مكان ..

قال لهم عند عودته :

– تكدس اللاجئين في غزة وقراها أدى إلى تلوث مياه الشرب ونقص الأغذية والأدوية .. وانتشار الأمراض المعدية .. وأكل الخرا ورا .

أيد أبوسعادة ما ذهب إليه جاره :

– كل خيمة فيها مريض .. والله يستر إن ضل هالحال حال رح ترجع الكوليرا إللي أخذت جدودنا أيام الأتراك .

في الليل كانوا يتابعون أضواء الكشافات المركزة على الطـائرات المغيـرة .. والمدافع المضادة التي تصليها بوابل من النيران دون أن تصيبها .

قال شملخ :

– طيارات اليهود مقري عليها .. الله وكيلك ما سمعنا واحدة سقطت ولا اتصاوبت ..

رد عليه محمد أبو سعاده أبو العريف :

– هادولا مخاويين الجان والعفاريت من أيام سيدنا سليمان .

فسر الشيخ لهم ما غاب عنهم :

– طائراتهم تطير في مستوى أعلى من المستوى الذي تصل إليه قذائف المدفعية ..

تأمل الحاضرون حديثه .. منبهرين بعلمه وسعة إطلاعه .

لم يستطع اللاجئون من أهل الحارة في تل زعرب إطعام حميرهم وإيوائهـا .. أعاروها لأصحاب المواصي دون مقابل .

همس أبو سعادة في أذن حماره وهو يسلمه لهم :

– دوق مرارة اللجوء والتشرد .. بس وينك .. هيئة الأمم مش رح تسكت على الظلـم الفادح إللي انظلمناه .. فيه إشاعات عن توزيع مؤن من الهيئة علـى اللاجئيـن .. إذا صحت الإشاعات بدي أعملّك كرت مؤن بإسمك .. حـــا .

ركله بقدمه وعاد أدراجه وهو يتميز من الغيظ .

(40)

تحلقوا حول المذياع كعادتهم منذ بدأت الحرب .. أدار أبـو السـعدي مؤشـر المحطات .. بذل جهداً كما في كل مرة ليتفادى التشويش وليضمن للمحيطين به مـوجز أنباء .. قبل أن تموت البطارية الوحيدة التي يملكونها كما ماتت سابقتها .

موت سـابقتها كلفهم عشرة أيام من العزلـة .. الشـاطر دُريـس وجـد حلاً لمعضلتهم .. كان دُريس قد صادق شاويش حملة الهجانة في رفح .. قدم لـه خـدمات جُلى قبل أن يطلب منه شحن البطارية الميتة وإعادتها إلى الحياة .. شاويش السـودانية أخذتـه الأريحية فقال له :

– هات البطارية أبدلها لك بواهدة مشهونة ..

أشار إلى خيمة أقيم فيها جهاز لشحن بطاريات الحملة وهكذا حصل المخيم على البطارية التي تنوس الآن بين يدي أبو السعدي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة .

سمعوا صوت المذيع يعلن نبأ لم تتأكد صحته يفيد بسقوط غزة في يد اليهـود .. ماتت البطارية قبل أن يسمعوا بقية النبأ .. دب الذعر في صفوفهم .. قال أبو السعدي :

– نتسلل إلى العريش في مصر .. أعرف دليلاً يعبر بنا الحدود في الليل .

أصابهم الذهول .. البعض انخرط في بكاء مرير .. هكـذا وبكلمـات معـدودة يفقدون وطنهم إلى الأبد .. بيوتهم وأراضيهم وملاعب طفولتهم وشبابهم .

لم يكن أمامهم خيار آخر .. تقبلوا الفكرة كأنها وحي منزل .. انشـغلوا بجمـع أغراضهم وحزمها .. عريف الكتاب السعدي ابن أبو السعدي .. هم بحـزم أغـراض شيخه .. لكن مولانا كان قد اتخذ قراره وقضي الأمر .. كل ما بقي علـى التنفيـذ أن يقرب الأمر إلى فكر زوجته .. وأن يحتال حتى يقنعها .. قال لعريف كتابه بحزم :

– لا عليك أنا باق هنا .

– إذا أبقى معك يا سيدي ..

– بل ترحل مع أبيك وأعمامك مصحوباً بالسلامة .

ودع الشيخ حسين عريف كتابه وآوى إلى خيمته .. قال لزوجته التي انشـغلت مثل غيرها من الأمهات بالتجهيز للرحيل :

– دعي كل شئ في مكانه .. لن نرحل .. هذه الخيمة هي آخر الأرض الفلسطينية وهي بالنسبة لنا آخر العالم .

حملقت فيه غير مصدقة .. كان يسرع هارباً بها وبأولادهما مـن كـل مكـان تعرض للخطر قبل ذلك .. فما الذي تبدل حتى يصر الآن على البقاء وحده .. ما أسهل أن يقنعها .. جوابه حاضر .. وطاعتها له تحصيل حاصل .

أشار إلى الأولاد :

– إذا رحلنا أركب الحمار .. وعبدالكريم .. (أشار إلى أكـبر الأولاد) يسـتطيع أن يمشي .. عبد المعطي (أشار إلى الرضيـع) تحملينه على ذراعـك .. عبد الرحيـم (أشار إلى الأوسط وكان في الثالثة من عمره) لن يستطيع المشي .. سنتركه وراءنا .

هجمت على ولدها الأوسط .. ضمته إلى صدرها ملهوفة .. كأنها تحميـه مـن عارض عن له :

– والله ما بسيبو لو بموت ..

ابتسم لها مواسياً :

– إذا نبقى معه .. نعيش سوياً .. أو نموت سوياً .

خرجت من باب الخيمة تركض في العراء .. تصيح كالمجنونة وقد رفعت ذراعيها :

– أين أنت يا رب .. وأين وعدك لي .. لا موت ولا فقد ولا فجيعة .

ظللت تركض حتى خارت قواها .. سقطت على الأرض .. نثرت الرمل على رأسها .. انخرطت في بكاء مرير ..

حين غيب الأفق آخر الراحلين عن المخيم إلى حدود مصر .. سمعت بكاء أصغر أبنائها .. عادت أدراجها مهدودة لا تلوي على شئ .. أغلقت باب الخيمة احتضنت صغيرها .. ألقمته ثديها ذاهلة .. ظللت تبكي حتى غلبها النوم ..

في الصباح .. لم تر للمخيم أثراً .. رحل الجميع .. بدت خيمتهم وسط اليباب وحيدة تصفق جنباتها الريح .. لا أحد غيرهم ولا سواهم على طول الشاطئ .. أحست بالرعب .. تحاملت على نفسها .. تشاغلت بجمع الحطب .. أشعلت النار تحت الصاج قال لها الشيخ :

– علينا منذ الآن أن نقتصد في طعامنا حتى يكفينا الدقيق إلى نهاية الشهر .. موعد رجوع أمي وشقيقي حسني من غزة .. عسى الله أن يهئ لنا من أمرنا رشدا وأن يجعل لنا مخرجاً مما نحن فيه .

عجنت نصف الوجبة المعتادة .. أشعلت النار تحت الصاج وخبزت .. حملت خبزها إلى باب الخيمة حيث كان يجلس .. أحضرت بعض الزيتون من الجرة .. تناولوا افطارهم بصمت .. انصرف الشيخ إلى غزل طواقيه وغزل أفكاره .. (ما كان يجدر به أن يتبع جاهلاً أحمقاً مثل محمد أبو سعادة وينتقل من مكان إلى آخر طلباً للسلامة .. ليته فعل كما فعل أخوه غير الشقيق حسن .. ليته انغرس في بيته ولم يرحل) .. تذكر شعراً لزهير إبن أبي سلمى فترنم به :

– ومن هاب أسباب المنايا ينلنه

وإن يرق أسباب السماء بسلم

حدقت فيه زوجته كأنها تستفسر عن المعنى الذي قصده .. فابتسم لها شارحاً :

– هادا الكلام يقابله في العامية : يا شارد من قضايا .. مالك رب سوايا .

هزت رأسها مؤمنة على قوله .

في المساء تصايح الصبية من الجوع .. وضعت في أيديهم آخر ما تبقي من الخبز .. قالت لزوجها وهي تناوله كسرة خبز وحبة زيتون :

- تبلغ بهذه حتى يحين موعد الوجبة القادمة .

تناول عشاءه بصمت ..

صلى المغرب والعشاء قصراً وجمعاً .. لم يطل التضرع والدعاء .. لم يزد على أن قال عقب صلاته :

- رب أنت أعلم بالحال غني عن السؤال .

سمعا زفيف الرياح في الخارج .. اشتدت الريح حتى كادت تقلع خيمتهم .. هاج البحر .. خيل إليهم أن الأرض تهتز تحتهم مع ارتطام الموج بالشاطئ ..

حاول أن يطمئن زوجته :

- هذه النوة .. إحنا في نص آب .. إللي بتخلق فيه الغيم والسحاب .

غمغمت :

- بتهدس في النوة وتخليق الغيم .. واولادك جوعهم أكثر من شبعهم .

تبسط معها محاولاً شد أزرها :

- يا خديجة .. يقول المتصوفة (إذا صح الإفتقار إلى الله .. صح الغنى بالله) .

استسلما للنوم .

حين استيقظا .. كان الأطفال يمرحون سعداء مستبشرين في يد كل واحد منهم تفاحة حمراء كبيرة .. أتى على نصفها ويتلذذ بالتهام النصف الآخر .. حدقت فيهم مذهولة .. أشاروا إلى الشاطئ .. ركضت حيث أشاروا .. كان الشاطئ مغطى بثمار التفاح وحطام الصناديق .. فكرت في نفسها : (يبدو أن عاصفة الأمس أطاحت بحمولة إحدى السفن .. فقذفتها الأمواج إلى الشاطئ) .

عادت وحجرها ممتلئ بالثمار .. مازحها الشيخ :

- صار البحر لنا حائطاً وبستاناً .

ناولته تفاحة وأفرغت ما بقي في لقان الفخار فامتلأ حتى الحافة .

قبل أن تغرب شمس اليوم التالي بدأ الظاعنون في العودة .. وصلت طلائعهم تحمل جلية النبأ :

- غزة لم تسقط .. دافع عنها الجيش المصري ببسالة ورد الهجوم على أعقابه .

أعادوا نصب خيامهم مثلما كانت .. توافدوا على خيمة مولانا .. ليعتـــذروا لـــه عن تركه وراءهم منبوذاً بالعراء .

سامحهم مولانا وأظهر الاغتباط بعودتهم .. باتوا ليلتهم تلك وفي الصباح تجمعوا ليستمعوا إلى موجز الأنباء .. استعمل أبو السعدي كل حذقه ومهـــارته وثبـــت مؤشـــر المذياع على المحطة المطلوبة .. سمعوا المذيع يعلن بصوت واضح توقيع وقف إطلاق النار بين العرب واليهود تمهيداً لبدء مفاوضات الهدنـــة فـــي جزيـــرة رودس .. إلا أن المذيع لم يخف شكوكه حول جدية وقف إطلاق النار ومدى التزام الطرفين به .

أطفأ أبو السعدي الراديو .. خيم الصمت .. نظروا إلى مولانا لكي يسمعوا رأيه الثاقب .. لم يكن رأياً قابلاً للأخذ والرد .. كان قراراً حاسماً فاجأهم جميعاً :

– نرحل غداً بعد صلاة الفجر ليس إلى بر مصر .. ولكـــن إلى غزة نعيش أو نمـــوت فيها .. طال وقف النار أم قصر .. انتصر العرب أم انهزموا .

التفت مولانا لعريف كتابه .. أمره أن يعلف حماره جيداً ويسقيه استعداداً للرحلة الطويلة .. وأن يشد عليه عند الفجر ويحضره لباب الخيمة .

تفرقوا عنه صامتين .. لم يناقشوه في قراره .. عادوا إلى خيامهم وهـــم نهـــب للحيرة والقلق .

أبو السعدي لم يغمض جفنه طوال الليل .. فكر ملياً في القرار الذي اتخذه مولانا قال لنفسه :

– يا شاري الخبر بفلوس .. غداً نرى من سيرحل مع الشيخ ومن سيبقى .

نفذ العريف ما طلبه منه مولاه بكل عناية .. لم ينس أن يخرج من البردعة العلم الفلسطيني الذي خبأه هناك في المظاهرة الأخيرة .. كان العلم بالياً وممزقاً .. عثر على جريدة نخل طويلة شذبها بموسه حتى صارت مثل السارية .

ثبت عليها العلم .. تلفت حوله .. كانوا قد بدأوا التجمع أمام خيمة الشـــيخ وقـــد شدوا على دوابهم وحملوها بالمتاع القليل المتبقي لديهم .. حينما انتظمت المسيرة خلف مولانا .. تقدمهم عريف الكتاب ونشر رايته .. بدأ ينشد أحد أناشيد الكتاب :

– من مكة والبيت الأمجد

للقدس سرى ليـــلاً أحمـــد

أبو السعدي حين رأى انتظامهم في المسيرة داخله الزهو بولده الذي كان عريفاً للكتاب فصار عريفاً للمسيرة .. عجل بشد متاعه وأغذ السـير حـتى صـار بمحـاذاة مولانا .. حياه تحية الصباح .. وطمأنه :

- لم يتخلف أحد .

ابتسم الشيخ .. استعار مقولة الصوفيين :

- الطريق طويل .. والحمل ثقيل .. والزاد قليل .. (ثم تنهد وأضـاف كمـن يحـدث نفسه) .. لكن الهدف عظيم يستحق العناء والتضحية .. الوطن .. أليس حب الوطن من الإيمان ؟؟

اشترك أبو السعدي في الإنشاد .. امتدت العدوى إلى الآخرين .. أكملوا النشـيد والبشر يغمر قلوبهم .

- من مكة والبيت الأمجـد

للقدس سرى ليـلاً أحمـد

النصر له والفتـح لـه

وصلاة الله على أحمـد

هـذه الرواية خاتمة رباعية (أرض كنعـان) حيث يواصل السبعاوي ملحمته التي بدأها في العنقاء والخل الوفي والغـول ..

الغــزاة بمختلف أسمائهم وأقنعتهم يأتون ويذهبون .. وتبقـــى الأرض وإنسانها العظيم (رابع المستحيل) ..

في هــذه الروايـــة كما في سابقاتها يســـتنهض الســـبعاوي الأمكنـــة والأزمنة للإدلاء بشهاداتها الحية الدافعة ويستنفر الـــذاكرة الجماعيـــة للأمة لتكون درعها وملاذها ..